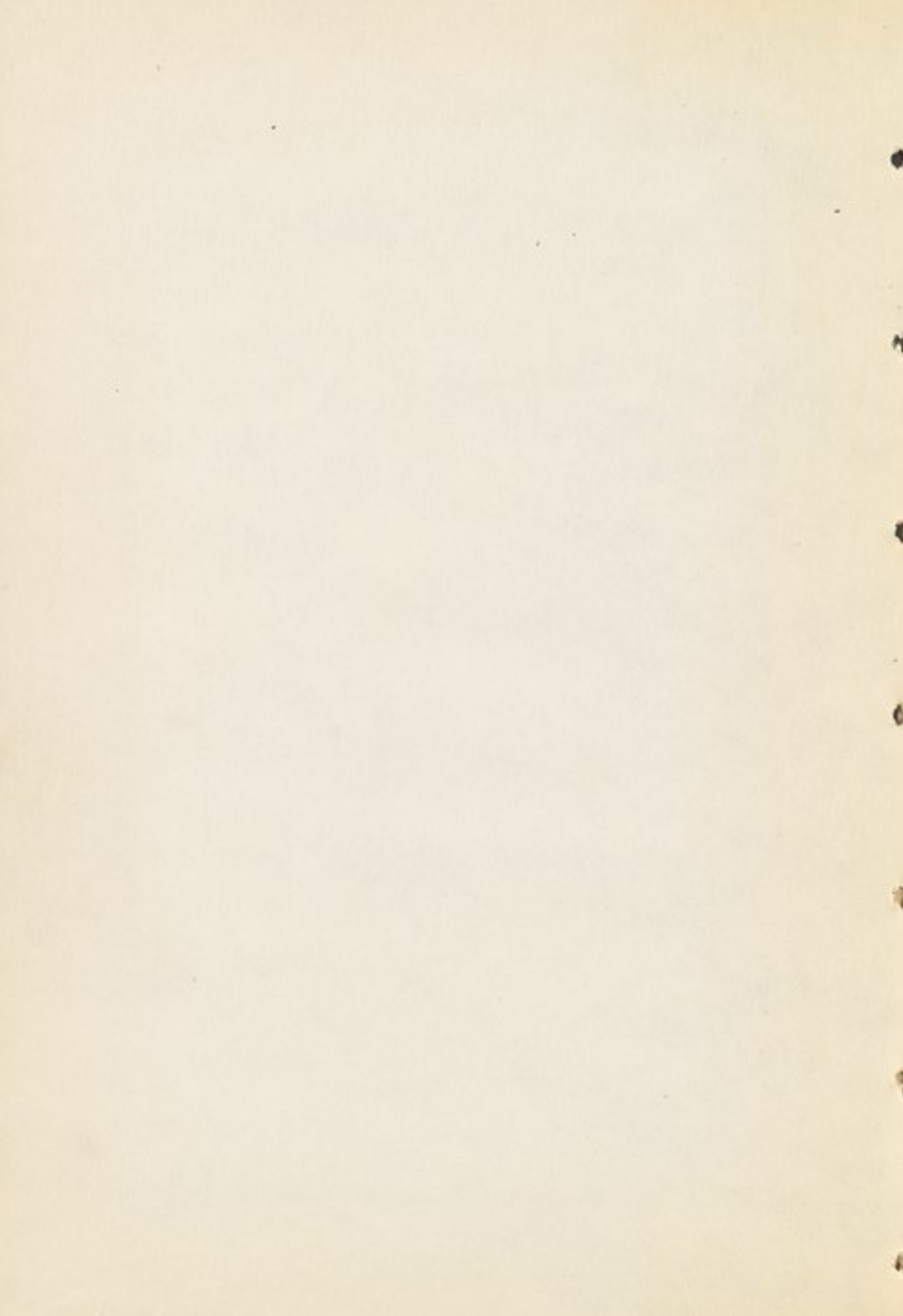


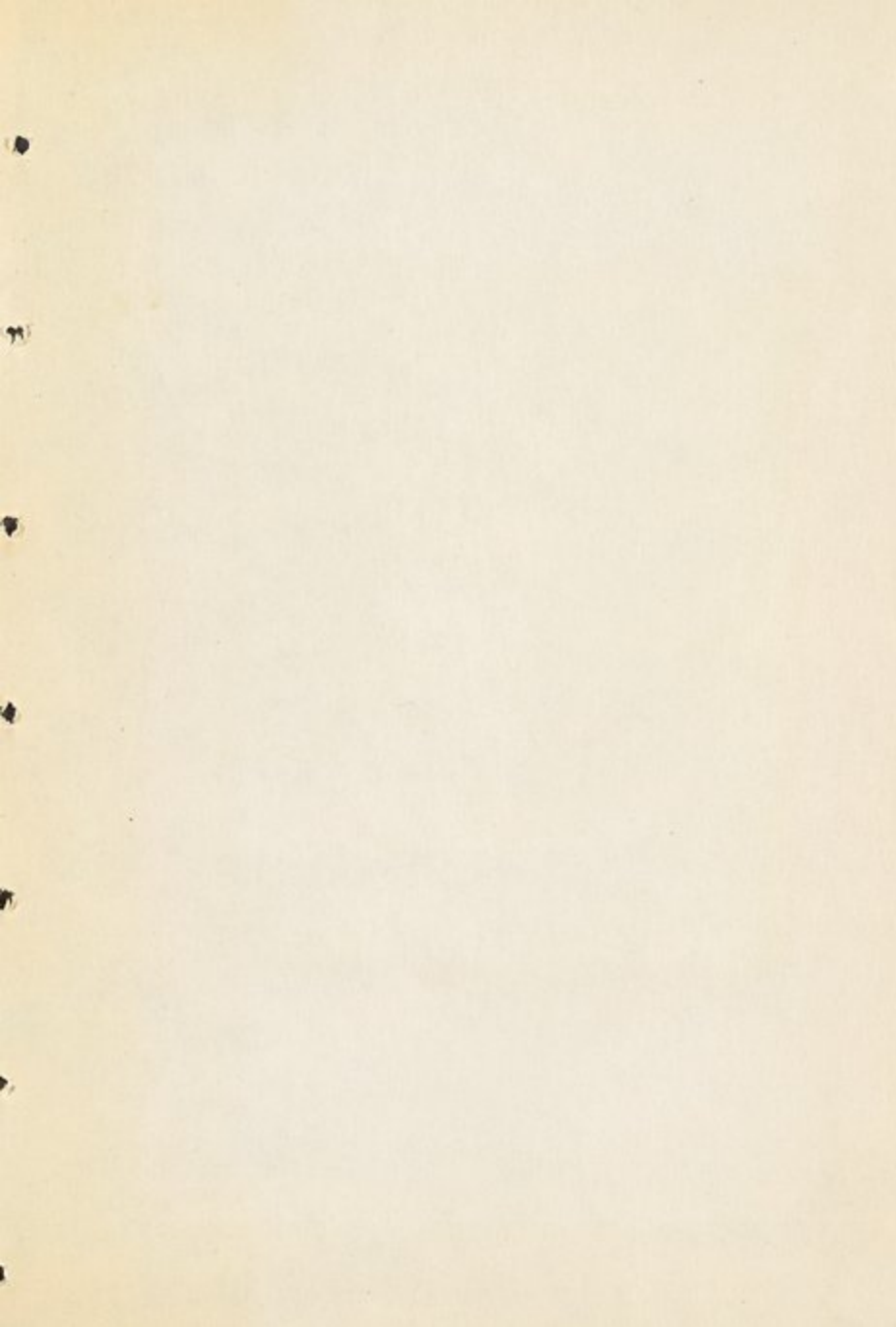


Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES







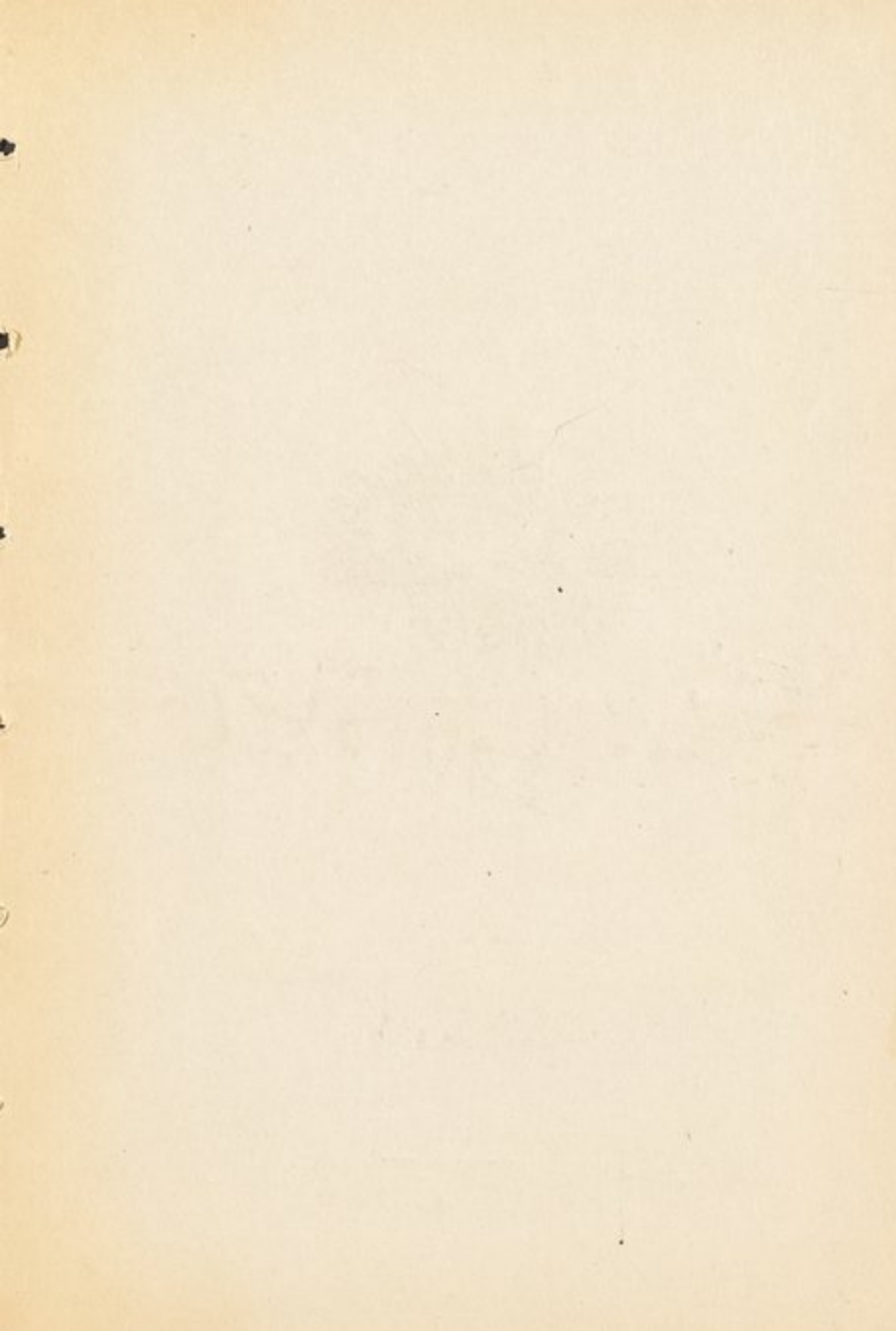
تراجم الأعلام

أضواء
على حياة الأرباب المعاصرين

بقلم

أنور الجندى

١٩٥٥



تراجم الأعلام



على حياة الأرباب المعاصرين

بقلم

أنور الجندي

١٩٥٥

893.79
595

دار
الأعلام للطباعة والنشر

٨٩ شارع السلطان حسين

بالقاهرة

تصدير

بسم الله أقدم هذه الدراسة لطائفة من الأدباء والكتاب الذين تقدموا
موكب الأدب العربي الحديث منذ أول القرن العشرين وهم الذين لمعت
أسمائهم وتصدروا زعامة الأدب بعد الحرب العالمية الأولى ، ولقد حرصت
على أن أرسم لهؤلاء الأدباء صورة نفسية مستمدة من حياتهم وبيئتهم
والعوامل التي أثرت في أدبهم ولونت فنههم وإني حين قصدت إلى هذه الغاية إنما
أردت أن اضع في يد القارئ مفتاح أدب هؤلاء الكتاب فليس من اليسير
على الشباب الصاعد أن يفهم روح هذا الأدب وتياراته دون أن يلم بطرف
من حياة هؤلاء الكتاب ويفهم فهماً واضحاً معالم حياتهم الخاصة وما اضطرم
فيها من عواطف وأهواء . وتعد هذه الدراسة مقدمة وتمهيد لدراسة الأدب
العربي نفسه في ومذاهبه مدارس و نزعات التجديد فيه والعوامل المختلفة التي
أثرت في تكوينه وتطويره حتى تكامل بناؤه على هذه الصورة . وهذه الدراسة
بين يدي الآن في سبيل الأعداد ويضم هذا الكتاب دراسة لثلاثة أنواع من
الكتاب والأدباء والشعراء . القسم الأول منه فيتناول الأدباء الرواد
الأحياء ويتناول القسم الثاني الأدباء الرواد المتوفون ويضم القسم الثالث
طائفة من الشعراء المعاصرين وأدباء المدرسة الجديدة التي كانت ثمرة لجهاد
الرواد وفيها أدباء وأدبيات وهذه هي الأقسام الثلاثة .

١ — الرواد الأحياء

أحمد لطفي السيد ، طه حسين ، محمود تيمور ، عباس محمود العقاد ، أحمد
حسن الزيات ، توفيق الحكيم ، محمد حسين هيكل ، سلامة موسى ، فريد
أبو حديد ، كامل كيلاني ، أحمد زكي .

٢ — الرواد المتوفون

مصطفى لطفي المنفلوطي ، أحمد امين ، مصطفى صادق الرافعي ، جبران

خليل جبران ، الكاتبة مى ، زكى مبارك ، مصطفى عبد الرازق ، محمد السباعى
جرجى زيدان ، عبد البشرى ، ابراهيم عبد القادر المازنى .

٣ — الشعراء المعاصرين

اقبال ، شوقي ، حافظ ، الزهاوى .

٤ — كتاب المدرسة الحديثة

على ادم ، سعيد العريان ، ابراهيم المصرى ، محمد زكى عبد القادر ،
الصاوى ، ابراهيم ناجى ، أحمد زكى أبو شادى ، انطون الجميل ، امير بقطر ،
ميخائيل نعيمة ، جميلة العلايلى أمينة السعيد ، سهير القلماوى ، على الطنطاوى .
ابراهيم المصرى ، محمود كامل .

وإني لأرجو أن يتاح لى أن اتم هذه الدراسة بتقديم طائفة أخرى من
كتابنا وكتاباتها كلها تسرت أمانى وسائل هذه الدراسة وأتمنى لى أن أحقق
حياة هؤلاء الكتاب وأربط بينها وبين إنتاجهم .

أنور الجندى

القاهرة فى سبتمبر ١٩٥٥

عشرون عاما

١٩٢٣ - ١٩٥٣

أكتب مقدمة كتابي الأول هذا - اليوم - وهو أول عمل أدبي أَرْضِي عنه ، أكتبها في الأيام التي تسجل عيد ميلادي السابع والثلاثين - ٥ ديسمبر سنة ١٩٥٤ - وبعد عشرين عاما من كتابة أول كلمة لي في الأدب .

كانت أول كلمة لي عن « المثل الأعلى » . ونشر لي أول شيء عن حافظ في عدد أبولو يونيه ١٩٣٢ . وبدأت بعد ذلك أكتب في الصحف الإقليمية ، كنت أعيش في الريف ، في ديروط وصنبو والقومية وأبي تيسج خلال أربعة عشر عاما طويلا ، كانت من أقصى الأعوام على نفسي . . . كنت خلالها أحلم بالقاهرة والصحافة وأشوف الطريق إلى هذا الأمل الذي ملأ جوانب نفسي . حتى أنني هربت ذات ليلة لأسافر بالقطار إلى القاهرة لأعمل في صحيفة إقليمية تصدر في القاهرة هي « الأمانى القومية » . . . ومن الصدف العجيبة أن يطبع هذا الكتاب في مطبعة هذه الصحيفة التي كتبت فيها طويلا سنة ١٩٣٤ ولكنني الآن أنظر إلى هذه الفترة على أنها كانت فترة تحضير لعمل الأدبي كله بعد ذلك ، فقد كنت أقرأ وألهم ، وكان الوقت الواسع والفراغ والطبيعة الجميلة ، وصباحيات الريف ومسائياته والقمر والليل والساقية وجداول المياه وترعه الابراهيمية ، كلها كانت تبني شخصيتي وتدعم طبيعتي الأدبية . وأنا أعد كتابي هذا هو عملي الأدبي الأول ، بالرغم أنني أصدرت أكثر من عشرين كتاباً - أو كتيباً - كانت كلها صوراً بالطلباشير على حد تعبير في الدكتور مختار الوكيل ، كانت أعمالا تصلح لأن تكون مقدمات لما بعدها . كانت فيها دفعة الشباب وعاطفته ، وفيها أوهام محتها الخبرة ، وحماسة حورتها التجربة .

حقاً لقد قدمت إلى القارىء عدداً من الكتب في النقد والسياسة والاجتماع والإسلاميات ولكنى اليوم أنكر ماضى كله ، ولا أحسب هذه المؤلفات ذات قيمة فى تكوين شخصيتى الأدبية . فقد كنت أصدرها تحت ضغط رغبة واحدة ، هو أن أظهر على المسرح الأدبى ، وكنت فى خلال مرحلة من هذه الفترة مرتبطاً بعجلة دافعة ، من تلك العجلات التى تربط أنفسنا بها دون إرادة ، أو رغم إرادتنا ثم نتحول عنها ولكن لانندم عليها . وهى فى مجموعها تمثل تحولى من حلقة من العمر إلى حلقة ، ومن مرحلة فى الفكر إلى مرحلة ، إنها إحدى علامات الطريق فى حياتى خلال عشرين سنة . تصور تنقلى بين النقد الأدبى الخالص والجريء العنيف ، الذى كان يتمثل فى مجموعة مقالات نشرتها الإنذار سنة ١٩٣٢ تحت عنوان «محول فى الأدب» . ثم تحولى إلى الإسلاميات واندفاعى فيها وتحولى منها إلى السياسة الوطنية . وكتابى «أخرجو من بلادنا» بأجزائه الأربعة كان عام ١٩٤٦ حدثاً بعيد المدى فى حياتى فقد قدمت بسببه إلى المحاكمة وبقى حجر الزاوية ، أو علامة الكفاح ضد طغيان العهد الغابر وأول محول فى هدم الحزبية السياسية التى صنعت بعد ثورة ١٩١٩ .

وفى سنة ١٩٤٩ دخلت السجن فأضيت فيه العام كله . وكنت قد وصلت القاهرة فى مايو ١٩٤٦ لاشتراك فى إنشاء صحيفة يومية كبرى دفعت إليها بروقى كلها .

ودارت العجلة بسرعة عنيفة ، وانتهت بأن وجدت نفسى فى أواخر سنة ١٩٤٨ فى السجن لأمضى شتاين بين صحراء مصر الجديدة وصحراء الطور . وكانت فرصة لتأمل حياتى ونفسى وهدفى . وانتهيت منها إلى أننى كاتب . وإن أكون سياسياً أو مصارداً فى ميدان الزعامة أياً كان نوعها .

وخرجت فى يناير ١٩٥٠ لأبدأ صفحة جديدة : هى صحيفة الأدب الخالص . وعملت فى جريدة «الزمان» وبدأت أكتب فيه وفى الأهرام

والرسالة والثقافة والوعي فلما جاءت الثورة المصرية أحسست أن فجرأ جديداً من الضياء يشرق في كياني وأن الآمال العريضة التي كانت تغمر صدري ككاتب حر قد بدأت تتحقق على صورة رائعة ومضيت أجرد نفسي للأدب والصحافة وحدهما وقد نحت السياسة جانباً فمالي ولها بعد أن تولاهما الأحرار ولكنني تبينت بعد قليل ، عند ما احتجبت الرسالة والثقافة في أوائل ١٩٥٣ أن العمل الأدبي في الصحافة جهد ضائع . وأن هذا الإنتاج ينطوى مع الأيام ، ويمضي ولا قيمة له .

وآمنت بأن العمل الأدبي الخالص يجب أن يبدأ . وكنت كلما اقتربت من سن الأربعين أحسست بأنني مغبون . وأتني غبنت نفسي إذ دفعته في طريق وطريق . وغفلت عن الطريق الأصيل : الأدب الخالص .

وكنت أنظر باشفاق إلى هذا العمر الذي مضى ، وهذه السنوات العشرون في حياة الأدب قارئاً وكاتباً ، التي مضت دون أن يظهر لي إنتاج واضح المعالم . وما هذه الكتيبات عن محمود تيمور والمراغى وأعلام الإسلام ، وهذه المقالات المنشورة في الصحف الأدبية والمجلات إلا أعمال غير كاملة . إنها رءوس مواضيع لأعمال كبرى قد بدأتها فعلاً فأنا أريد أن أؤرخ الأدب العربي المعاصر على صورة كاملة واضحة جديدة ، غير مسبقة ، ولدى من الوثائق والأسانيد والقصاصات ما يمكنني من ذلك إذا أتيحت لي أسباب الرزق والقدرة على النشر .

* * *

ولقد لقيت فعلاً من الصحافة والناشرين عنثاً لا حد له . فأصحاب الصحف والمجلات يريدون منك أن تكتب الألوان التي يريدها الجمهور ، على تلك الصورة التي نراها من تفاهات الصحف ، والطرائف ، والساندويتش ، والأدب الخفيف ، والقصة التافهة . . هذا هو الذي تريده الصحف والمجلات

لتقدمه للقراء . فاذا استطعت أن تفعل حصلت على المال .. ولكنك في نفس الوقت قتلت نفسك .

أما الناشرين فهم يريدون منك أن تولد عملاقاً حتى ينشرون لك آثارك . لقد كان لي في وقت واحد . عشرة مؤلفات عند عشرة من الناشرين . وكلهم ماكر . يشوف ويعد ويعتذر ويرجى . . .

وكان حقاً على أن أشق طريقى بيدي . دون أن أعتمد على الصحافة أو الناشرين ، كان لابد لي أن أطبع مؤلفاتي بنفسي وأقدمها للقارىء وأنا واثق من أنني أقدم له قطعة من ذات نفسي . رمن قوتي وقوت أولادى فلا سبيل إلا هذا . . وقد كان ذلك هيناً على فقد بدأت حياتى دون استناد على أحد ، لم يكن لي في الأدب أستاذ . لقد كنت أرى الأدب كالحديقة أقطف من كل أنواعها ، ورودها وأزهارها لا أفضل نوعاً منها على آخر . ولكنى امتحنت بالأدباء سنة ١٩٣٢ بعد أن صدرت الرسالة فقد أخذت أرسل لأدباء مصر وكتابتها بآثارى وإنتاجى . . عبد القادر حمزة والزيات وزكى مبارك وإبراهيم المصرى والدكتور هيكل . .

وأشاح الكتاب الكبار بوجوههم عنى . . . إلا واحداً هو : الدكتور زكى مبارك رحمه الله عليه ، فقد بعث إلى خطاباً حاراً يدفعنى فيه إلى القراءة والمطالعة والكتابة وأوصانى بالصبر الجميل ، وكان هذا هو المنار الأوحيد في ظلام حياة الريف . فأحببت زكى مبارك وعشت معه حتى كان أسلوبى يوماً تقليداً له .

ولكنى أحببت بعد ذلك الزيات وطه والرافعى وسلامه موسى وغيرهم .. ولست أنسى تلك الأمسيات في ظلال أشجار السرو في ديروط ، على ضفاف بحر يوسف سنة ١٩٣٠ ونحن نقرأ ماجدولين والعبرات للنفلوطي ونحفظ عباراته عن ظهر قلب . .

كان الحرمان والريف والشباب اليافع يعمل في نفوسنا عملاً بعيد المدى ،

وكنّا نتطلع إلى المستقبل في خوف وإشفاق .. ولكن الأحداث لم تدعنا
انرسم الطريق ، فقد كان مرسوماً لا مرية فيه ولم يكن علينا أكثر من
أن نقطعه .

وطالت حياة الريف وكان لابد أن نقول كلمة مدوية سجلها كتابي الأول
« عرائسي البسكارى » الذى صدر فى ٢ أبريل سنة ١٩٣٨
« است أدرى من أين أبدء حديثي ، إذ أقدم هذه الرسالة الصغيرة ، أننى
كلما رجعت إلى ما كتبت من صور الفكر أحسست بأن عملي لما ينضج . وهذا
أمر أن يستقر . فسيظل الكاتب ينظر إلى كل ماسلف من آثاره الأدبية نظرة
من لا يرضى عنها

ولقد أساء إلى وجودي في الريف إساءة بالغة إذ حرم على متاع الدراسات
العليا والاتصال بمواطن الأدب وأبعد بيني وبين الصحف . هذه الصحف التي
لا تعرف إلا الوجوه والتي لا يهمها كتابة ناضجة بقدر ما يهمها الصديق
أو الكاتب المعروف لمحريها ، ولقد مضيت أجاهد في الظهور غير معتمد
على شفاعاة أحد .

ولست أنكر أنى قد ضجرت ضجراً بالغاً بعد أن قابلت ، الدكتور
زكى مبارك فقد نفرنى من الأدب ورغب إلى أن أعمل في ميدان آخر ،
فأمنت له أول الأمر وأرغمت القلب العاقى الخفاق بحب الأدب إلى الانصراف
عنه إلى دراسة الاقتصاد وقضيت سنة كاملة أدرس هذه المادة باللغة الإنجليزية
دراسة قاسية . كانت تطوى وقى ومالى كله ، .. ولكنى عدت منها بالفشل
المبين ! فقد تغلب الأدب على روحى وظغى ، وأفسد على الدراسة إفساداً
بالغاً ، وسد فى وجهى المسالك سداً ، وضعفت أنا إزاءه ضعفاً بالغاً ، وعدت
أشعر بالوحشة له والحنين إلى موارده .. وانصر الأدب
ونكنى عدت بقلم صدأ ، فقد أمضيت عاما كاملا لا أكاد أكتب رسالة
عربية إلى صديق ..

لقد كنت عنيت، أول مرة بالحديث عن المرأة والشرق والحضارة .
وتلون إنتاجي بلون الخيال والعاطفة . واستفاقت في نفسي رغبات جديدة
فأثرت في كياني ، وكتبت في الوادي قطعاً يومية تحت عنوان « جولات »
واستوى لي بعد أن عرفت الحب فن جديد ، فأنشأت صوراً ذات طابع معين ،
صادفت ، إعراض الكثيرين عني ، وقيل لي إنني تنكرت للتقاليد المرعة ..
وأنتجت في سنوات ٣٤ — ١٩٣٥ أدباً ذاتياً عنوانه ما يقال من الداخل
للخارج فلما ألححت على دراسة الاقتصاد عدت أكتب النقد وأمعن في الاتجاه
نحو العقل والبحث العلمي .

هذا حديث أسجله اليوم وثيقة للمستقبل . ويتطور أدبي وتذهب هذه
الصورة في تضاعيف الأحداث ولا يبقى إلا هذا السجل المسطور وايس من
الخير أن يظل الكاتب صامتاً لا يتحدث عن نفسه ولو في مقدمة كتاب صغير ،
هذا ما قنته سنة ١٩٣٨ أي منذ سبعة عشر عاماً في أول كتيب لي عن النقد .
حقاً . لقد خرجت من قريتي سنة ١٩٣٣ في سن السادسة عشرة ، ولم أعد
إليها . أمضيت هذه الأيام رجلاً مسؤلاً أكفح في سبيل العيش وأتعلم وأقرأ
وأدرس في المساء ، وكنت في هذا السن الباكر أعيش في قرية « صنبو »
لأحصل على أول قرش لاشتري به كتاب « في أوقات الفراغ » لهيكل
وفي هذا السن بدأت أحب . أحب المرأة التي علمتني كيف أحب
الحضارة والقاهرة والتي كانت روحها تدفعني إلى المجد . إنها أمي الروحية
التي مازالت تبارك خطواتي ، والتي أمضيت أكثر من عشرة أعوام أتبجج
رؤيتها حتى ألقاها وأنا قريب من الصورة التي أحب أن تراني بها .

وكانت السنوات من ٣٢ — ١٩٤٦ سنوات قاسية قلقة مريرة ، كالخت فيها
في سبيل الرزق والعلم والأدب حتى وصلت القاهرة في أوائل أبريل ١٩٤٦
وأحسست يومها بأنني قد أنهيت حياة مظلمة وبدأت صفحة جديدة .
وبقدر ما كانت أيامي تلك بطيئة مغرقة في السأم والملل والكسل ، كانت

أيامى بعد ذلك صراعاً وصداماً وارتطاماً ، حتى اليوم ، ذلك لأننى كنت أخشى أن أموت قبل أن أسلم للندى إنتاجى وآثارى ، هذا الإنتاج الذى تطور وتحول وتلون مع السن ومع الثقافة ومع التجربة . ولقد كانت الصحافة حائلاً طويلاً المدى بين إنتاجى وبين الحياة بعد أن خشيت أن تدفع أدبى إلى تلك الكتابة الصحفية الباهتة . ومن ثم حجزت أدبى عنها وعشت برئة واحدة حتى ظن الناس أن الصحافة قد قضت على الأدب فى نفسى مع أننى دخلت الصحافة من باب الأدب أولاً ولكنى مضيت أوازن بين عملى الصحفى الذى هو مورد رزقى وبين الأدب الذى هو غاية حياتى فكنت أجعل النهار للصحافة والليل للأدب .. حتى انتصرت ..

وفى فترة ما غلبت على الروح الإسلامية بل الدينية ، ثم تحررت منها ، كما تحررت من الانطلاق وراء المدنية الأوروبية ، وبدأت أربط الشرق بالغرب والماضى بالحاضر ، والجديد بالقديم فى تناسق ، يمثّل فى نفسى التى لا تحب الانحراف نحو اليمين أو نحو الشمال ! فأنا أحب الاعتدال والهدوء . وقد مرت بى فترات كنت خلالها نائراً على الأدب وعلى السياسة وكانت أعصابى تصرخ .. لقد ترك الريف فى نفسى جرائم الحرمان والقلق ورعييد التوجس من المستقبل والخوف من الغد وعقدة التطلع والاستكشاف وعمق السرائر .. ولكن الريف أعطانى فرصة التأمل الطويل والقدرة الناضجة فى الحكم على الأشياء ، فلما وصلت إلى القاهرة لم ألبث أن نزلت إلى ميدان الصحافة والكتابة ، ولكنى كنت مقيداً ، ثم لم ألبث أن تحررت وتجردت للأدب والفكر وحده !

انمد بدأت حياتى الأدبية بداية عنيقة ، منذ عشرين عاماً ، ولكنى تحولت من لون إلى لون . ومن التخصيص إلى التعميم . ومن الطامع المحدودة إلى

الميدان العام . ولقد كتبت في أكثر من عشرين صحيفة ولكني توقفت فجأة في أول عام ١٩٥٤ .

لقد رأيت كل هذا عبثاً وقلت لنفسى ليس هذا هو الطريق ، ولا هو الهدف وكرهت الارتباط بالمناسبة والموعد والصحافة ، وكرهت أن أطلب إلى أحد أن يستكتبني ..

وحاول أصدقائي أن يدفعوني إلى القصة ، أو أن يحملوني على الكتابة الخفيفة الفكهة ، أدب الساندويتش كما يقولون — ولكني أصرت أن أقول لا ..

إن أعق فطرتي ، ولن أندفع مع غير طبيعتي ، مهما يكن ، من فقدان بضعة جنهات ثمناً لهذه الألوان التي يطلبها الناس ولا تستجيب لها نفسى إن لى أدنى وفئ ، وموضوعاتي ، وأهدافى ، ولن أتغلى عنها

من يضمن لى أن أعيش حتى أكتب كل ما أريد ، والعمر يتفلى سنة بعد أخرى ، والأحداث تدفع بنا فى عباب صاخب ، هو عباب القدر الذى يرسم حياتنا دون أن ندرى ؛ إن خير ما عندى لم يخرج بعد إلى حيز النشر ، إننى كالرجل البخيل الذى ما زال يدفن الجواهر فى الرمال !

واليوم إذ يمر على تاريخ بدء حياتى الأدبية عشرين عاماً أراها على بعد الزمن وقرب الذكرى مرحلة كفاح طويل فى سبيل الفكر والذوق والثقافة تحول خلالها الكاتب فى المشاعر والسن والفهم وتنقل بين مراحل عديدة مختلفة ، قد تكون متباينة ، ولكنها تحمل جميعها معنى واحداً هو العمل لأداء أمانة الفكر وأمانة القلم . ولكم كان يحز فى نفسى أن مجموعة ضخمة من معارفى يظنوننى واحد من الصحفيين ، لأنهم لم يقرأوا لى أثراً حياً يحدد موقفى بين الأدب والصحافة . لقد عشت بالصحافة للأدب وأن كل لحظة من لحظات يومى التى أملكها إنما هى حلقة فى هذا الطريق الطويل . وبالرغم من مرور هذا الزمن فما زلت أعد نفسى فى أول الطريق . لم أحقق بعد الآمال العريضة

والأحلام الخنونة التي تملأ نفسي .. أراي مازلت في مبدأ الشوط .

ولقد فكرت طويلا طوال حياتي الأدبية لماذا لم أجد الكاتب الذي يجوز لي أن أقول أنني تلميذه أو الذي اتخذه أستاذا لي ولكم حمدت الله — عندما بدأت أكتب هذه الموسوعة — أن ذلك لم يقع ، حتى أكون أكثر تجرداً في الحديث عن أدب الأدباء المعاصرين وإني لا أجدني آسفاً وأنا أنحت الصخر في سبيل الوصول إلى مكاني ، دون أن أجد ذراعاً استند إليه .

* * *

أن هذا السفر الأول من موسوعي عن الأدب المعاصر هو خلاصة دراسات طويلة لأدب روادنا الأول ، وكتابنا الذين برزت أسماؤهم وإنتاجهم بعد ثورة ١٩١٩ على وجه التحقيق ، وإن كانوا قد كتبوا وانتجوا قبل ذلك التاريخ وهي عمل جديد غير مسبوق أحسست بمدى حاجتنا إليه ولقد تناولت حياة هؤلاء الكتاب من إنتاجهم وآثارهم في ضوء علم النفس الحديث ، وحاولت أن أصورهم في أنصاف دون مجاملة أو تحامل . لقد مضيت أقرأ لهم أكثر من عشرين عاما فأحطت بمعالم نفوسهم من خلال إنتاجهم وكون هذا الاتصال بيني وبينهم صداقة روحية ، كنت أحس أنها أقوى من معرفتي بهم أو ببعضهم ، معرفة الصحبة أو الالتقاء في صالونات القاهرة وإني لأرجو أن أكون قد أنصفتهم وآمل أن أؤدي بهذا العمل واجبا في بناء حياة نقدية وإنشاء دراسة كاملة للأدب العربي المعاصر .

أنور الجندي

شارع الهرم في ٥ ديسمبر سنة ١٩٥٤

لطفى السيد



نظلم لطفى السيد حين نضعه مع رجال السياسة فهو من رجال الثقافة الممتازة ولاشك . . . كان رائد الصحافة المصرية ١٩٠٧ عندما بدأ يكتب فى الجريدة مقالاته عن « المصرية » . . فقد أمضى عشر سنوات ليعمل فى الصحافة ، ثم لم يلبث أن انتقل إلى محيط الثقافة فأمضى فيه بقية حياته المديدة إلى اليوم ولم تكن فترة المناصب الوزارية والأعمال السياسية إلا أشبه باللمحات العابرة فى ساعات الزمن المديدة الموصولة بالعمل الثقافى وفى خلال هذه الفترة الطويلة عاش مع الكتاب : كاتباً ومترجماً . وعنى أشد ماعنى بارسطو فنقله إلى اللغة العربية فكان ذلك دعامة من دعائم نهضة الترجمة يدين لها الأدب العربى المعاصر بكثير من الفضل .

لقد تأثر لطفى السيد منذ شبابه بأراء تولستوى الذى دفعته سنة ١٩٠٥ إلى أن ينصرف عن الوظيفة ويعيش فى بلده بعيداً عن ضجيج الحياة . ولما لم

يتحقق له ذلك بدأ كأنه يعيش هذه الحياة المثالية التي ملأت عليه أقطار فكره.. فهو منذ سنوات وسنوات يكاد يكون معزلاً للحياة العامة عاكفا على دراساته وحياته الخاصة.. لا يرضى بها بديلاً :

ولقد تصدى لطفى السيد للرأى العام فى فترة كانت الحياة الحزبية تأخذ صورة شاقة فقد كانت الجريدة تصدر باسم حزب الأمة فى الوقت الذى يصدر فيه مصطفى كامل «الواء» باسم الحزب الوطنى . ويصدر على يوسف «المؤيد» باسم حزب الإصلاح . فكان طبيعياً أن يسأل الناس عن أهداف الجريدة وعلى رأسها لطفى السيد . وفى خلال هذه الفترة بدأ كأشد ما يكون لمعانا وهو يضع أحجار الأساس للنهضة الفكرية التى سار على طريقها جيل من أبنائه وتلاميذه .

ولقد افتتح لطفى السيد العدد الأول من الجريدة بهذه الكلمة نسجلها لتكون أحد مصابيح الطريق فى حياة الرجل الذى تعلم عليه طه حسين وهىكل وعزى وعبد العزيز البشى ومصطفى عبد الرزاق وعبد الحميد بدوى وما الجريدة ، إلا صحيفة مصرية ، شعارها الاعتدال الصريح . ومراميتها إرشاد الأمة المصرية إلى أسباب الرقى الصحيح . والحض على الأخذ بها وإخلاص النصيح للحكومة والأمة .

لا يكون من أهل الوطن أمة إلا إذا ضاقت دائرة الفروق بين أفرادها واتسعت دائرة المشابهات بينهم . وإن أظهر المشابهات فى حالة الأمة السياسية هو التشابه فى الرأى بين الأفراد — وهذا ما يسمونه بالرأى العام .

والناس بطبائعهم اشتات فى الرأى كما قيل (للناس عدد رؤسهم أراء) وهم فى البلاد الحديثة العهد بالرقى ينصرف كل منهم غالباً عن التفكير فى الأمور العامة إلى تدبير حاجتهم الخاصة حتى ترشداهم الصحف كل يوم إلى أن لهم فوق وجدهم الخاص وجوداً عاماً . وأن بهذا الوجود العام كما لا يجب أن يرقى إليه بعمل الأفراد ...

ولاشك أن هذا الأسلوب سنة ١٩٠٥ يدل على مدى طواعيه البيان للكانب
ولقد عاش لطفي السيد في برج عاجي . ولعل قراءاته وإعجابه بتواستوى واتجاهه
الفلسفي وضعه بين رجال المنطق فضى عفا الأسلوب ولم يعرف عنه الهجوم
ولا الصيال ولا الدخول في المعارك . . . ولعل هذا الطبع الغالب على نفسه
في تجنب المزالق هو الذي دفعه إلى أن يزايل الصراع الحزبي عندما بدأت أولى
مظاهرات في الخلاف بين سعد وعدلى . .

وفي خلال الفترات القصيرة التي عمل فيها وزيراً كان مثلاً عالياً للكرامة
والرجولة ، فلم يصف إليه أحد ما يضاف إلى الوزراء في ذلك العهد ، بل ظل
حتى في هذا المنصب هو الفيلسوف مترجم أرسطو والرجل الزاهد في المظاهر
والمطامع . وما يلبث حين تاح له الفرصة لأن يعود إلى صومعته أن يعود . .
ولكن هل مضت حياته في هدوء بعد أن سجل بدء النهضة الفكرية المصرية
التي بدأت على صفحات الجريدة . . . لا . لقد أراد أن يسجل شيئاً آخر ،
ذلك هو الدفاع عن حرية الفكر حين حمل لواء الذود عن استقلال الجامعة
من عنت السياسة الحزبية مما أغضب الرجعيين .

ولقد سجل موقفه من السياسة في مذكراته فقال «وأنا إذ أفكر الآن في
كل مامضى السياسى منذ سنة ١٨٩٨ ، أى منذ نصف قرن ، أستطيع أن أقول
أنى ما دخلت غمار السياسية مرة إلا وأنا أعتقد أن عملي فيها واجب قومى ،
يشبه أن يكون فرض عين ، ومع أنى أحب القراءة في كتب السياسة فأنى
أكره الاصطلاح بها عملياً . . .

* * *

لقد شغل لطفي السيد منصب مدير الجريدة بين سنة ١٩٠٧ وسنة ١٩١٣
ولما أعلنت الحرب العالمية الأولى انتهى هذا الدور الفكرى ليكون
واحداً من زعماء مصر الذين قاموا في أعقاب الحرب يطالبون بالاستقلال .
وانظم في الوفد الذى سافر إلى أوروبا . ولكنه لم يلبث حين ظهر الشقاق

في الصفوف أن اعتزل السياسة وعكف على أرسطو . وعين بعد مديراً لدار الكتب ، ثم أول مدير للجامعة المصرية . وفتح سنة ١٩٣٠ أبواب الكليات الجامعية للفتاة المصرية وكانت أزمة ذات دوى ، ثم قدم استقالته عند ما تدخلت السياسة الحزبية في استقلال الجامعة ونقلته طه حسين عميد كلية الآداب إلى وزارة المعارف .

* * *

وللرائد الأول للفكر العربي الحديث أسلوب وطريقة في الكتابة كانت مثار تعليقات الناقدين والكتاب فالأستاذ عبدالعزيز البشرى يقول : « ولطفي يجمع إلى عذوبة الروح عذوبة الحديث . وهو أديب تام يحفظ صدرأ من متخير شعر العرب ومأثور أقوالهم ، إلى فقه في متن اللغة ، ورعاية لدقائقها ، وبخاصة إذا كتب أو حاضر أو خطب . وله في أبواب البيان والترسل أسلوب خاص به ، حاول كثير من الكتاب أن يتكلفوه فانقطعوا دونه . وهو شديد الحرص على أن لا يعبأ بتجويد العبارة ولا يتحرى اللفظ الرشيق إذ هو في الواقع يجهد في هذا ، رغم عنايته بالمعاني والتكثير من إيراد مصطلح العلماء ، ويعمل له إلى ما دون التعسف » ثم يذهب البشرى إلى تفسير هذا في نفسية لطفي السيد فيقول : « . . وهذه الصفة في لطفي السيد إنما تتصل بأخلاقه جملة ، فهو رجل قد أخذ نفسه من كل أقطارها بألوان التكلف ، يتكلف في مزاج الشيايب ثقل الشيوخ ، ويتكلف في مجالس اللهو هيئة الجدد ، ويتكلف عدم الاكتراث لأعظم ما يكرهه من الأمر ، بل أنه ليتكلف للكلام « الجاف » إذ هو قد نجم في بيئته لم يعد يربطها بأهل الريف سبب .

نعم . لقد أخذ نفسه بهذا التكلف كله ، حتى أصبح له طبعاً وسجية وأكبر أظنى أنه لو شاء يوماً أن يرسل نفسه على سجيته لتكلف في هذا كثيراً . هذا رأى في أسلوب لطفي السيد وهناك رأى آخر لركى مبارك .

... كتابات هذا الرجل لا تتصور ما يملك من المواهب لأن قلبه أضعف من روحه ولأنه في سريرة نفسه يتهيب المجتمع وإن اشتهر بالثورة على المجتمع... ، لطفي السيد كاتباً رجل هيب . ولكن لطفي السيد محدثاً رجل شجاع ، كان مثله فيما يكتب مثل من يمشي على الشوك . ثم انتقل من الطبع إلى الطبع فكان آية من آيات الحذر والاحتراس .

أسلوب لطفي السيد بطيء الحركة إلى حد الجود ، وهو خال من البشاشة البيانية ، وليس في كتابه صفحة واحدة تشهد بأن بيانه من وحي الطبع أو فيض الوجدان .

لطفي السيد كاتب متعمل متكلف ، وهو يجر جر كلامه بتناقل وإبطاء ولولا البوارق الفكرية التي تلع في كلامه من وقت إلى وقت لعد من المتحلفين ، ونحن لانذهب مذهب البشرى ولا مذهب مبارك ولكننا نستعرض آراء الذين تناولوا أدب « معلم الجيل » بالدراسة .

* * *

وغاية ما يقال أن لطفي السيد لم ينشر من آثاره إلا هذه المجموعة التي قام على جمعها الأستاذ إسماعيل مظهر بعد كتب أرسطو . ولذلك فنحن حين نريد أن نضعه في بوتقة الدراسة النفسية المستمدة من آثاره لانجد أي ضياء يهدينا في هذا السبيل . فإذا أردنا أن نعرف أثر المرأة في أدبه أجهدنا هذا . ولكن لطفي السيد كان يحب مجالس مي ويشغف بالحديث إليها وهو احد الذين أعجبوا بها وكان لها استاذاً وموجهاً ولا يبعد أن تكون مصدراً من مصادر الإلهام في حياته الوجدانية

ولطفي السيد واحداً من أولئك الكتاب الذين يؤمنون بالعقل الخالص ، فقد وجه نفسه منذ شبابه إلى العلم والثقافة . إذ نشأ صبوراً جليلاً يلقى الحوادث غير مزور لها ولا مهمل عواقبها . ولكنه يلقاها في الوقت نفسه من غير جزع ولا هلع : وهو قد فتح للناس في الحياة الحديثة بابان لم يسبقه إليهما

أحد فتح باب الجريدة للدعوة إلى المصرية وإلى حرية الرأي وفتح باب الجامعة لإنشاء ذلك النمط الجديد من أنماط الفكر الحر ولقد بدأ مع سعد وعدلى ومع محمد عبده وقاسم أمين وأمكن الله أطلال في عمره حتى رأى الحياة الفكرية والاجتماعية تتطور وظل هو يتطور معها حتى وقف على رأس الخالدين في مجمع اللغة العربية .

وهو يصور وضعه هذا من التاريخ حين يرى نفسه يقطع جيلين كاملين من أول القرن إلى ما بعد منتصفه فيقول «وأراني الآن أشبه شيء بالمصعد إلى قمة الجبل يسلك إليها الطريق التي تستقيم حيناً وتلتوى حيناً ويلقى فيها ما يلقي المصعدون من هذا الجهد الشاق الذي لا يخلو من عنوبه ولا يخلو من أمل ، ينظر إلى ما بين يديه من هذه الطريق التي قطعها ، راضى النفس مطمئن القلب : » وبعد فيمكنني لطف السيد أن يكون أستاذ رواد الأدب العربي المعاصر

طه حسين



لاستطيع أن تفهم طه حسين أو تصل إليه بمؤلف واحد من مؤلفاته فهو رجل أحب الحرية وكلف بها منذ صباه . وجر عليه حبه لها متاعب كثيرة وكانت هذه المتاعب في حلقاتها المتصلة عاملاهما من العوامل التي دفعته إلى أن ينشئ ألوانا مختلفة من الأدب . ويبدع فنونا متباينة من الأحاديث .

فلقد اصطدم طه حسين بالناس . واصطدم بالحكومات . واصطدم بالملك المطرود واصطدم بالأزهر والأزهريين ، في مطلع حياته ، وفي شبابه . وفي رجولته . وكان طوال الأربعين عاما الماضية من عمر أدبه ينتقل من مرحلة إلى مرحلة ، لا يتوقف ولا يجمد ولا يهره المجد الأدبي أو تسلبه الشهرة إلى النوم العميق .

فهو دائب الإنتاج والإبداع والإنشاء ، يظهر القراء من نفسه وأدبه كل يوم على فن جديد ، وهو إلى ذلك دائب القراء والمطالعة والبحث . . حتى

ليكاد يصرف يومه كله أو أيامه كلها في بعض الأحيان ، ذين في أحداً ، وقد أغلق يده وبين مظاهر الحياة اليومية المتعددة باباً صفيقاً ومضى يعيش حياته الأدبية الخالصة . وبالرغم مما بلغ طه حسين من الشهرة المستطارة ، والجاه الأدبي الضخم ، فإنه مازال حريصاً على أن يواجه القارئ وهو على أهبة الاستعداد . فهو يحترم قارئه وسامعه ويحرص على أن يتزود له حين يكتب أو يخطب .

* * *

وحياة طه حسين ، سلسلة من المتاعب والاضطهادات ، فهو رجل حر حريص على الحرية في حياته وفي حياة مصر وفي حياة الأدب العربي . ولذلك فهو لا يلبث أن يصطدم بعامل من العوامل المعوقة حتى يثور . فهو نائر أبداً ، نائر لا يهدأ ولا يستقر .

ثار في أول أمره على أسلوب (١) الأزهر ، ونظمه في التعليم ودراساته ، وظلت ثورته على الأزهر ممتدة متصلة بعد أن خلف الأزهر ، وبعد أن سافر إلى أوروبا ، وبعد أن خلع عمامته وهو في مركبه الأول إلى الغرب ، وبعد أن عاد فوضع كتابه الشعر الجاهلي : وهنا ثارت عليه نائرة العلماء واهتزت الحكومة وهدد رئيسها بالاستقالة واضطرب أئتلاف الأحزاب .

ثم ثار على الأدب القديم وتأججت المعركة التي كان هو قطبها ، واصطدم بدعاة المذهب القديم وهاجم شوقي وحافظ والرافعي ثم اصطدم بالأحزاب الحاكمة التي كانت تحول يده وبين حرية الرأي وتنتزعه إنزاعاً من الجامعة . وثار عندما اعتدى على استقلال الجامعة . وأعلن الحرب على عهد الديكتاتورية البغيض الذي حمل لوائه إسماعيل صدق سنة ١٩٣٠

(١) قال أستاذه (وما كفر الفقهاء به الحجاج قوله والناس يطوفون بقبر النبي ومنبره إنما يطوفون برمه وأعواد) فقال طه حسين أنه لم يكفر وإن كان قد أساء الأدب .

غير أن هذه المرحلة الطويلة من الصراع ، كانت قد علت طه شيئاً جديداً
علته كيف يلجأ إلى الرمز والإيماء . وصنعت منه الكاتب الذى يستطيع أن
يحتال ليقول ما يريد دون أن يقع فى قبضة الحاكم الظالم أو تحت سلطان
القانون .

وهنا نقض طه يده من الكتابة السياسية واتجه إلى الأدب الخالص وأخذ
يضمن إثارة آيات من القرآن الكريم يقصد بها إلى غاياته ولجأ أحياناً ، بل
وكثيراً إلى القصص التاريخي والقصص الإسلامى ليرسم منه صور الصراع بين
بين الجماهير التى تطلب العدل والحكام الظلمة الذين يحاولون استعباد الشعوب
... كنا نحتال ماوسعتنا الحيلة فى أن نخدع الحكومة عن أنفسنا .
ونجرب هذه الألسنة الصناعية كلاماً نلفف فيه آراءنا تليفاً ، ونخفيها
فيه إخفاء .

وما أحسب أن التليخ والتعريض والتورية والكنائية والإشارة استعملت
فى عصر من العصور الأدبية كما استعملت فى هذه الأعوام الأخيرة . وكانت
الصحف تشاركنا هذا المكر أحياناً . وربما أبت علينا ففكرنا بها كما كنا
نمكر بالحكومة وأجريننا على ألسنتها الغازأ نفهمها نحن ويفهمها قراؤنا ،
ولا تكاد هى تفهم منها شيئاً . وكنا نقول للصحافة والرقاية ولعيون
الحكومة وجواسيسها أن هذا كله أدب خالص لا شأن له بالحياة الواقعة
ولا يتصل بسياسة الحكم من قريب أو بعيد (١) .

وفى هذا اللون تقرأ أحلام شهر زاد ، وتقرأ مرآة الضمير الحديث وهذا
اللون من أدب طه يعطينا صورة الأديب الذى يؤمن بالمتجمع ويتصل به
ولا ينفصل عنه .

« لا أفهم البرج العاجى ولا أحبه للشخص الذى يحترم نفسه ووطنه ،
ولا أفهم أن يرى المفكر اعوجاجاً ثم لا يحاول تقويمه أو خطأ ثم لا يحاول

تصحيحه سواء كان هذا في الحياة الاجتماعية أو العقلية أو السياسية . وطه يؤمن بأن الأدب لا يمكن أن يعيش في عزله عن المجتمع لأن الأدب ظاهرة اجتماعية لا تمكنه من أن يعيش بنفسه ولنفسه .



ويمثل مراحل تطورات طه حسين صورة واضحة للقلق النفسى الذى يعيش فيه ذلك المفكر الحر وهو يؤمن بأنه يختلف عن الناس ، فقد جرت العادة أن يتغير الناس كلما ارتفع بهم السن فينتقلون من الشمال إلى اليمين ويتطوون من الثورة إلى الاعتدال . أما هو فكان على العكس من ذلك . بدأ يكتب فى السياسة مع المحافظين ومن قبل مع حزب الأمة ولطفى السيد ، ثم مع عدلى وثروت وضد سعد زغلول ، ثم تطور إلى الشمال وفى ١٩٣٢ وجد الأحرار الدستوريين والسعديين وقد ائتلفا وكان يفهم أنه يكتب معهما ثم بغى الأحرار على السعديين مع الوفديين وهنا تحول إلى الوفد . ثم مالبت أن وجد الوفد محافظاً أكثر مما ينبغى ورأى نفسه أشد تطرفاً من الوفد .

وتغير فيه شيء آخر هو صورة للنقد فانتقل من نقد الألفاظ إلى النقد العام ، وإيه ذلك نقده لهنفلوطى فى أول الشباب . ورأية فيه بعد ذلك حين رد إليه فضله وأثره .



أنشأ طه حسين فنوناً من الأدب (١) أنشأ الأدب الإسلامى على صورة القصة الأوربية « الميثولوجيا » فكان لوناً جديداً غير مسبوق ثم اضطرتة الاحكام العرفية ، وضغط الحكومات الحزبية إلى إنشاء لونين آخرين ، ظهر أحدهما

(١) يقول طه حسين (رأيت الذين يدعون إلى القديم مثل الرافعى والمعارضون للقديم كجبران والريحانى . وكان إن توسطت وجمعت بين القديم والحديث)

في كتابيه جنة الحيوان ومرآة الضمير الحديث وظهر الثاني في جنة الشوك
وهي نقد للحياة على هيئة الحوار ومرآة الضمير الحديث رسائل وجهها طه
حسين إلى بعض من يعرف في أيام كان يحس أنه يمتحن بالخصومات ممن
كانوا أقرب الناس صلة به .

في هذه الفترة كان يحس دائماً بأنه يمتحن بالخصومات ، وقد كانت أقبى هذه
الآزمات سنة ١٩٤٨ ، كان في أوروبا ، وكانت كلماته تفوح برائحة الألم والسخط .
وقد صور هذا في كتابة رحلة الربيع ، وكنت قد تركت في مصر شرأونكرأ
واثماً . وخرجت وفي نفسي شيء من شرها ومكرها واثماً . إني لظالم للحق
ولنفسى حين أحفل بهذه الضفادع البائسة التي تملأ جو مصر نقيقا .

وما الذى يمنعني حين تثقل على عشرة الضفادع أن أنسل من بينها كما تنسل
الشعرة من العين لاخلو إلى رائع القديم واتعزى بجمال الأدب والفن والموسيقى
عن قبح السياسة والمنافع وغدر الغادرين ومكر الماكرين وخيانة الخائنين

... وفي نفس الكتاب « .. ففسيت مصر وأهلها ونسيت مكر الماكرين
ولطوت عن عذر الصديق ، وعن جحود الجاحد . والنعم من حولي يملأ الجو
قد أخذ نفسي من جميع أقطارها . وإذ أنا في هذه الساعة القصيرة الحلوة كاني
أعيش مع إبتى التي تركتها في القاهرة ، ومع إبنى الذى أسعى إليه في باريس ،
وقد كان طه في خلال رحلته تلك قد أزمع ألا يعود إلى مصر إلا حين
تدعوه إليها . كانت مصر غارقة في إحدى آزمات السياسية العنيفة ، وقد
كتب طه في هذه الفترة كتابه « الوعد الحق » صور فيه أبطال الإسلام الذين
عذبوا في سبيل فكرتهم .

وصاح « توفيق الحكيم ، صيحته وردد ما كان يملأ نفوس الناس
ردغت الإذاعة المصرية بجميد الأدب إلى مصر فعاد وهو أشد حبا لها . .
وحربا للطغيان .

في حياة طه حسين ثلاثة : أوروبا وأبو العلاء وحب . وهو متصل بهؤلاء الثلاثة دوما ، دائب الاتصال ، لا ينقطع ولا يتوقف . هو متصل بأوروبا طول عامه ، متصل بأدبها وفكرها وأثار كتابها وشخصيات مفكرها وقادة الرأي فيها ، فإذا جاء الصيف ، اتصل بها اتصال حياه ، فتمتد إليها وعاش بها ، وتنقل بين أرجائها « اعترف بأن الصيف هو أبهى فصول السنة إلى إذا أقمت في مصر وهو أثرها عندي وأكرمها علي إذا عبرت البحر أو الصحراء فرقيت الجبل . في أوروبا أو في لبنان بذلك إلى لأطيق القيظ إلا في جهد جهيد وعناء شديد ومشقة شاقة تضيق به نفسي ويقلق له قلبي وينمقد له لسانى .

فإذا عبرت البحر إلى أوروبا ، أو نفذت من الصحراء إلى لبنان فالصيف أحب فصول العام لدى وأثرها عندي . وأخفها على نفسي ظللا لأن قمم الجبال تعفينى من القيظ فتزدني إلى نفسي وترد نفسي إلى ، وأنا مقبل على القراءة في نهم لأعرف له نظيراً في الفصول الأخرى وإذا القراءة خصبه أى خصب لا أكاد أقرأ المجلة أو الفصل حتى تفتح لي أبواب من التفكير والحس والشعور وإذا أنا في حاجه إلى أن أتحدث حتى أصحاني وإذا أنا في حاجه إلى أن أملئ حتى أشق على الذين يكتبون عني والصيف يفتح لي خارج مصر فنوناً من التجارب ويدعوني إلى المشي حتى أتعب واتعب من معي .

ولست أعرف عاماً خرجت فيه من مصر أثناء الصيف . وعدت فيه إلى مصر فارغ اليدين . وإنما أنا أخرج من مصر فلا أكاد أستقر هنا أو هناك . حتى يفتح الله على بكتاب أمله أو بكتاب أعده في نفسي لأمله إذا رجعت .

والذين ينظرون فيما نشرت من الكتب يجدون أن أكثرها قد أرخ من قمة جبل أو مدينة من السهل الأوربي . أكثر كتبى بدىء أو أتم في جبال الالب أو في لبنان وأقلها بدىء وأتم في القاهرة () ،

وطه شغوف بباريس ، وشغوف بالجبل ؛ يكره البحر ولا يألفه ، وإذا تركت باريس فقلما أفكر في سواحل البحر ، لأنى أكره البحر واجدنى جواره الما ومشقة لا أحتملها ، إلا أن أضطر إلى ذلك اضطراراً وقد أراد الله ان يلائم في ذلك بين مزاج زوجى وابنى ومزاحى ، فنحن جميعاً نكره البحر ولا نطمئن إليه . ونحن نكره الإستحمام ايضاً .

فأحب ضروب الراحة إلينا هو الإيواء إلى جبل معتدل الإرتفاع نتخير فيه فندقاً مريحاً معتدلاً رخيصاً كفندقنا في باريس فنأوى إليه ، لانبغى إلا طعاماً ملائماً . وغاية قرينة نقضى فيها النهار أو أكثره .. وفراشا وثيراً نقضى فيه الليل كله (١) وقد ظفر الأدب العربى بكثير من الفصول التى صور فيها طه حسين عبور البحر وايام المركب . . . اما سحر الليالى وما فيه من قصف وعزف ورقص ومناجاة ومناغاة فلست احداثك عنه لانى لا اذكر انى شهدت قط منذ تعودت أن أعبر البحر . اما قصارى فى هذه الاسفار إذا فرغت من العشاء ان أصعد الى الجسر فاذهب عليه واجىء حيناً مهما يطل فلن يتجاوز احراق سيجارة أو سيجارتين ثم اهبط الى حيث مضجعى فأوى إليه .

وانا لا أذوق النوم فى السفينة الا غراراً فإطول ما يكون فى هذه الليالى الطوال بينى وبين نفسى من حديث . أهو حديث حلو ، أهو حديث مر . أهو مزاج بين الحلو والمر . است ادرى ! لست ادرى . ولكنى اعلم اننى احب هذه الليالى وأنس إليها اشد الانس لانى افزع فيها إلى نفسى ، ولانى اجد فيها من الحرية والخلوة مالا اجد فى مكان آخر ولا فى زمان آخر (٢)

وفى رحلة اخرى بعد عشرين عاماً يقول « وتلقانا حين خرجنا من ثغر

(١) « ألوان »

(٢) مجلة الجديد — ٢٨ يناير ١٩٢٩

الاسكندرية بحر يعلن الرضى ويسر السخط ويظهر الهدوء ويضمم الثورة وكان
البحر ساكناً يتكلف السكون وساكتاً يتصنع السكوت قد ابتسمت له الشمس
المشرقة فعمرتة بأشعتها الحلو الهادئة ورق له النسيم فداعب صفحته بانفاسه
الفاترة اللينة وتلقى هو هذا كله متجهماً متجملاً لا يش له الا فى قصد ولا يبتأس
له الا بمقدار (١) وهو يتناول حديث نفسه كلما سافر إلى اوربا ، « انا انسى
أو أناساها طوال فصل العمل فى مصر فاريحها واستريح منها فاذا أقبل الصيف
أقبلت معه دلى فكان بيني وبينها حساب ما أشد يسره حيناً وما أشد عسره
فى أكثر الأحيان وما يكاد يتقدم الصيف أسابيع حتى أسامها وتسامنى وحتى
انقر منها وتنفر منى وحتى افر منها إلى ألوان القراءة وضروب اللهو وتنكش
هى فتختبئ فى ناحية ضئيلة خفية فى نواحي الضمير ،



ويتصل بحديث البحر فى حياة طه حسين ، حديث له جلاله وخطره هو
يوم أن ركب البحر أول مره ، يوم أن ولى وجهه نحو الغرب « كنت ارانى
حين تركت مصر لأول مرة شيخاً معماً قد صعد الى السفينة يتعثر فى أذيال
جبته وقفطانه اللذين كانا يزيدانه حيرة إلى حيرته الطبيعية التى قضت بها
عليه عاهته التى حالت بينه وبين الضوء فلم أكد أصل إلى غرفتى حتى طارت
العمة عن رأسى ولقد أريد أن أتذكر إلى أين فلا أجد إلى ذلك سبيلاً . كل
ما أعرفه إننى خلفتها حين دخلت الغرفة لم أدر إلى حال صارت ولو قد عثرت
عليها لحفظتها تذكاراً باقياً ، ولوجدت شيئاً من الحنان والحزن والأمل
حين آخذ بين يدى ذلك الطربوش الكالح وتلك الخرقه التى ما أظن انها كانت
يومئذ ناصعة البياض وخلعت الجبة والقفطان وانا علم إلى اين صاراً . منحهما
اخى هدية لسيدة كان يألفها فى فرنسا ولست ادرى ماذا اتخذت منهما
ودخلت فى هذه الثياب الأوربية فكم ضقت بها وكم ندمت على جبتي وقفطاني

طوال الأسبوع الذى قضيته على ظهر « اصبهان » ، رحبها الله فقد هوت اصبهان
إلى قاع البحر وعبث الموج بأجزائها كما عبث بأجزاء عمتى فى اكبر الظن (١) .

والشئ الثانى هو « أبو العلاء » .

أحب طه حسين شيخ المعرة وأعجب به ، وجعل رسائله الأولى عن حياته
وأدبه . فقد قرأ له كل ما كتب . وقرأ كل ما كتب عنه . . ثم لم يدعه بعد
ذلك ، بل ظل يتناول شعره وأدبه ، المرة بعد المرة . . كان يمد فيه تعبيراً
عن نفسه ، وكان قد ربط بينهما ذلك الشعور الأدبى الفلسفى ، وهذه الآفة
التي قربت بينهما وهو يصور اندماجه مع أبى العلاء فى هذه الصورة الرائعة . .
« لم أكد أبلغ مدينة نابولى وأنفق فيها يوماً ، وبعض يوم حتى خرجت للترويض
مع أسرتى على سواحل هذه المدينة . وبينما كانت زوجتى وإبنائى وصاحبى
ينظرون إلى البحر والسماء وإلى الجزر والربى . وإلى هذه المناظر الكثيرة
المختلفة التي كانت تحدث لهم متعة . وتطلق ألسنتهم بالإعجاب وتثير نفوسهم
وتسحر قلوبهم . كنت أحس هذه الطبيعة التي لم أكن أراها ولا أتصورها
ولا أعرف لها كنهها تدنو منى قليلاً قليلاً ، ثم تنفذ إلى نفسى ، ثم تملأ قلبي
رضاً وأملواً وحباً للحياة . وبينما كانوا يتحدثون عما كانوا يرون . ويتواصفون
بما كانوا يشهدون ، كنت أنا أدير فى نفسى حواراً بينى وبين أبى العلاء
موضوعه الرضا عن الحياة والسخط عليها والابتسام لها والضيق بها .

وكان الجو من حولى صافياً مشرقاً عطراً . ولم تكن الطبيعة تتحدث
إلى بلسان واحد أو لغة واحدة وإنما كانت تتحدث إلى بألسن مختلفة ولغات
متباينة . كانت تتحدث إلى بعبيرها الذى كان يملأ الأرجاء وبطيرها الذى
كان يستقبل الليل بأعذب النغم وأشجاء ، وبهذا الهدوء الشاحب الحزين

(١) فى الصيف .

الذى يلم بالحياة والأحياء إذا آذنت الشمس بالمغيب وبابتهاج الناس لما يحدون من جمال وباتئناس الناس لما يشعرون من حزن .

وكنت أسمع هذه الأحاديث كلها فأشدت على أبي العلاء في اللوم وأعنف عليه في العذل . وأقول له : إن أيسر هذا خليك أن يرضيك مهما يبلغك مشوهاً مسوخاً وأن شيء خير من لا شيء (١) . . .

فصله طه حسين بشيخ المعرفة ، ليست صلة ذلك الطالب الذى قدم رسالته عن شاعر المحبين ، وإنما هى صلة بعيدة الجذور ، عميقة الأثر فى النفس . فأبى العلاء يرسم أصداء نفس « طه حسين » فى هذا التشاؤم وفى هذه الشكوك وفى هذه الآفاق الواسعة وفى نظراته العميقة إلى الحياة والناس والأحداث . ولا يمنع هذا من أن يكون طه حسين قد هاجم أبى العلاء فى أول الأمر فان الآراء فى الشباب الباكرا لا تأخذ عادة طابع اليقين وإنما تقوم على أساس الظواهر ، تدفع إليها النفس المتطلعة إلى المجد الراغبة فى الاندفاع .

* * *

والأمر الثالث الذى يعرف به « طه » هو حبه . . هذا « الحب » الذى يرسم صفحة رائعة فى حياة هذا الكاتب العظيم الذى يعد نفسه مديناً بما وصل إليه من مجد . . إلى ذلك الإنسان .

« كانت صديقتى أستاذة لى ، عليها تعلبت الفرنسية . وفقّهت ما أستطيع أن أفقه من أدبها . وعليها تعلبت اللاتينية . واستطعت أن أجوز فيها امتحان الليسانس . ومعها درست اليونانية ، واستطعنا أن نقرأ معاً بعض آثار أفلاطون . على أننى قضيت من عام ١٩١٦ أشهراً ليس بينى وبين صديقتى إلا ما يكون بين المعلم والمتعلم ، وبين الصديق والصديق . ثم لم يلبث الحب أن اتخذ سبيله إلى نفسى . وما أظن أنك تطمع منى فى أن أصور لك ما كان يثير

(١) مع أبى العلاء فى سجنه .

هذا الحب في قلبي من عاطفة وما كان يزود عني من نوم . وما كان ينغص
على من راحة . وما كان يضيع على من درس . »

* * *

« كانت حلوة لذينة تلك الأيام السعيدة من بورسعيد ونابولي آخر
سنة ١٩١٥ . لم أكن قد دفعت إلى العودة إلى فرنسا حيث باريس وحيث
تلك التي لم تكن قد جاوزت العشرين من عمرها والتي فارقتني في مونبلييه أول
الصيف على أن نلتقي في باريس إذا أقبل الشتاء ، أكان ما أحمل لها في قلبي
حباً ، أم كلن مودة خالصة ، أم كان شيئاً بين ذلك لم أكن أتبينه حينئذ ،
وإنما تبينته بعد ذلك بشهرين كاملين .

وكان أحلى من ذلك وألذ ، ذلك اليوم الذي وصلت فيه إلى باريس ،
بل تلك الساعة التي طرق فيها باب غرفتي ، ثم فتح ، ثم أقبل على شخص
فصاحني في قوة ومودة وصراحة ، وجلس إلى ساعة يسألني وأسأله ويحييني
وأجيبه . ثم افترقنا على أن نلتقي من غد فما افترقنا منذئذ يوماً ولا ساعة ،
ولا بعض ساعة إلا أحسست — شهد الله — في نفسي ألم الفراق وشوقاً
إلى اللقاء (١) . »

وهو يحدث ابنته في بعض حديثه في الأيام (٢) عن قصته ويصور فضل
هذا الحب ، وأثر سوزان .. « فإذا سألتني كيف انتهت أبوك إلى حيث هو
الآن . وانتقل من تلك الحال إلى هذه الحال فليست أستطيع أن أجيبك .
إنما هنالك شخص آخر ، هو الذي يستطيع هذا الجواب . فليبه ينبئك .
أعرفينه . أنظري إليه . هو هذا الملك القائم الذي يحنو على سريرك . لقد
حنا يا ابنتي هذا الملك على أبيك فبدله من البؤس نعيماً . ومن اليأس أملاً .
ومن الفقر غنى . ومن الشقاء سعادة .. »

وفي عبارات حارة .. هنا وهناك تحس هذه النفس المحبة الصادقة الحب .. إن قلبي ليملؤه البر ، ويغمره الحنين حين أذكر ما كنت تبدئين وتعيدين فيه أثناء ذلك من حث لي على الراحة . ورغبة إلى في الترويض . وإلحاح على في الاستمتاع بنعيم الحياة وجمال الطبيعة في جبال الألب . وما كنت ألقى به عطفك من إباء وإعراض .. »

ويمضى طه حسين في حياته ، ويمضى معه هذا الحب قوياً .. صادقاً .. متداً .. على الأيام .

* * *

وقصة طه حسين ذاكرة ، إنه من الكتاب الذين لهم حياة ، ولكنه كتب هو هذه القصة للناس وأرسلها فيهم . وصور لهم كيف جاء القاهرة في سن الثالثة عشرة ليختلف إلى دروس العلم في الأزهر ، كان نحيفاً شاحب مهمل الزى أقرب إلى الفقر منه إلى الغنى . تفتحه العين اقتحاماً في طاقته التي استحال بياضها إلى سواد قائم ...

وصور كيف كان ينفق اليوم والأسبوع والشهر والسنة لاياً كل إلألوناً واحداً يأخذ حظه منه في الصباح ويأخذ حظه منه في المساء .. يعيش على خبز الأزهر وويل للأزهريين من خبز الأزهر ، ويغمس هذا الخبز في العسل الأسود .

* * *

ثم انتقل بعد ذلك إلى بيئة الجريدة والجامعة . « فنت هذه البيئة ، كما فتن غيرها من شباب الأزهر — بالجريدة لأنها كانت تصور لوناً جديداً من ألوان التعبير . لم يكن مأوفاً في المؤيد المحافظ ولا في اللواء الذي كان يلهب وطنيه . وإنما كان فيه شيء من اعتدال واستقامة في التفكير . وكانت فيه

نبوع خض نفحه من اجديد حين كان نضى السيد يتحدث عن موتاسيكو وفوتير وروسو وجول سيمون .

وكذلك التقى الشباب الناشء بعضهم ببعض . فأخذت الاسوار تنهار بين العائم والطرايش . التقموا بالشباب الناضج والكهول والشيوخ من اعلام الحياة المصرية على اختلاف فروعها فأخذ دم جديد فى جيل من المصريين (١) .

* * *

هكذا بدأ ، ثم مضى فى طريقه ...

إنه يرى هذه الفترة من تاريخ مصر ، فترة خطيرة « أشبه بمنحدر مرتفع ، قد ارتقت إلى قمته جماعة من اعلام الحياة المصرية ، وجعلت جماعة أخرى من الشباب تصعد من أسفل هذا المنحدر تصعيداً يختلف قوة وضعفاً وبين هذه الجماعة من يصعدون تصعيداً سريعاً وبينهم من يصعدون تصعيداً فيه شيء من البطء والاناة . وكان هؤلاء الذين وصلوا إلى القمة ينظرون إلى هذه الجماعة الناشئة المصعدة نظرة فيها كثير جداً من الرفق وفيها كثير جداً من الحب والتشجيع .

... وكان على هذه القمة من هؤلاء الاعلام جماعة لا أظن أنها تضيق إذا ذكرت الآن أو سميت بعض أعضائها . كان على هذه القمة أحمد لطفى السيد وعبد العزيز فهمى (١) .. »

أحب كتابين إلهيه القرآن . واللزوميات . وله هوايتان . الأدب القديم والموسيقى « أما الموسيقى فأنى أنصرف إليها عشية كل يوم فأجلس مع زوجتى حول الجرامفون نصغى إلى تصانيف من الموسيقى الكلاسيكية الغربية . فهى

(١) من مقال « بعض بيانات الادبية » فى المصور .

(٢) مجلة المجمع اللغوى ٢٩ أكتوبر ١٩١٥

غذاء تروح أى غذاء . وممتع تنفس بعد ساعات العمل المضنى . فتذهن
لا يصفو إلا على أنغام الموسيقى .. »

وهو يكتب فى كل وقت . ليس من الكتاب الذين لهم وقت معين
أو مكان خاص . وقد يفرض عليه أحد كتبه فرضاً ، فيصبح ملزماً به ،
يختلس أوقات الطعام اختلاساً . ويقطع الصلة بينه وبين من حوله وأحياناً
يكون غاية فى الألم الجسدى ، ولكن الأفكار ما تلبث أن تلح عليه فلا يستطيع
أن يدفعها .

* * *

وقد عرف طه بالإصرار على رأى وعرف بالوفاء ، فى طبعه الثورة
الأزلية الكامنة ضد الجود « يزدري التقاليد ويهشم الحواجز ، ويتمرد
على المألوف ، لا يبالي أعجب الناس أم سخطوا ، أم تقموا ، ويقول عن
نفسه : « إنما أنا قلق دائماً ، مقلق دائماً ، ساخط دائماً ، مثير للسخط
من حولى .. »

وعاطفة الرحمة والوفاء تدفق من قلبه الكبير . إنه ما زال يذكر أخاه
الذى فقده منذ خمسين عاماً ، وما يزال حتى اليوم يراه فى المنام « ذلك الذى
ينام هناك وراء النيل ،

وحين تحدث عن « أمه ، كتب أبرع صور الوفاء .. ويظهر أنه لم
يحب أحداً بلا قيد ولا شرط كما أحب أمه الغالية ، ولم يثق بأحد كما وثق
بقلبها الرقيق (١) .. »

وتحدث فى إثارة عن الشمسى وثروت وعدلى بأسلوب غاية فى الوفاء
والحب ، وهو يوفى لصديقه عبد الرحيم محمود فيقول : « لعلى لا اعدو
أحق إذ قلت إنى مدين له بأحب كتبى إلى نفسى وأثرها عندى وهو ذكرى

(١) زكى مبارك .

أبى العلاء . وكل ما كان يمكن أن يقرأ عن شيخ المعرفة من المطبوع والمخطوط .
كأن يقبل على دارى مع الشمس وينصرف عنها حين تغمر القاهرة ظلمة الليل
وكان يقرأ على شعر أبى العلاء ونثره متغنياً فهما مترنحاً بهما ، فلما فرغنا من
القراءة جعلت أملى وجعل يكتب . وماهى الآن يقبل شهر ابريل سنة أربعة
عشر وتسع ومائة وألف حتى كان بين أيدينا كتاب ذكرى أبو العلاء تقدمت
به إلى الجامعة ونلت به درجة الدكتوراه ولم أذكر أنا عبد الرحيم ولم يذكره
الذين منحوني تلك الدرجة . ولم يذكره الذين احتفلوا حينئذ بأول من تخرج
من الجامعة .



بدأ حياته الفكرية بثورة « الشعر الجاهلى » وبأحاديث الاربعاء وكلها
تدور حول العلم والبحث العلمى :

ثم لم يلبث طه أن تحول الى الادب الوجدانى . إلى رسم صورة حياته
ثم انتقل إلى السيرة فبدأ يكتبها على هذا النحو الجديد .
وكان لا بد أن يصل طه الى هذه المرحلة من الاستقرار تجاه اللون الذى
يمثل شخصيته وطبيعته . ومذهبه فى هذا هو ما سجله فى مقدمة كتابه على هامش
السيرة . . . وهى أن تكن أساطير يضيق بها العقل ، ويأياها المنطق فليس
العقل فى الادب كل شئ وليس العقل فى الحياة كل شئ .

ثم لا يلبث طه أن يجمع بين هذا اللون القصصى وذلك اللون العلمى حين
يكتب عن عثمان وعلى فقد تناول المادة التاريخيه تناولاً فنياً فصاغ منها هذه
الصورة الممتعة .

وقد كون فيه هذا الاتجاه الاصيل ما قرأه فى مطلع شبابه من قصص الأساطير
فى الأدب العربى من سيف بن زى يزن إلى الأميرة ذات الهمة ثم دراسته
للأساطير اليونانية وحياة الهة الأولمب .

وقد أحب طه اليونان ، وهو يرجع نزعته هذه إلى رواية ألفها الشاعر أحمد شوقي واسمها « ورقة الآس » .

ومن حياته في الريف ، والرؤى المدخورة في أعماقه كتب دعاء الكروان وشجرة البؤس .

ولا يستطيع مؤرخ طه حسين أن ينسى فصوله التي كتبها في الأهرام صيف ١٩٤٨ « ضير البحر . الطبيعة الساخرة . الحرية الحرة . بين مؤتمرين »

وأبرز ما يتميز به طه أنه لم يهجر الأدب يوماً ، ولم تحل الأحداث بينه وبين هذا الفن الذي أحبه ، كما فعلت مع غيره ، وفي السنوات التي ولي فيها وزارة المعارف ، كانت له قراءات متصلة . « ومع أن الوزارة صرفتني عن القراءة في كتب القدماء فهي لم تصرفني عن القراءة في كتب المحدثين . فقد مضيت في هذه القراءة الحديثة التي خصصت لها دائماً ساعات الراحة من النهار . . . وهو لم يرض عن نفسه وزيراً ، فقد كانت طبيعة الأديب تغلب عليه وتدفعه إلى طريقها . . . ومالي لا أنسى الوزارة وقد لقيت فيها عناء وشقاء . وما رضيت فيها عن نفسي قط وإني لأشقى الناس حين أَرْضَى عن نفسي ، فما يرضى عن نفسه إلا رجل قد فرغ من الحياة أو فرغت منه الحياة . . »

وهو بطبعه لا يحب كلمة الغد . . . أبغض شيء إلى أن أحاول تعرف ما سيكون عليه أمرى في غد . أنا لا أفكر إلا في أمس وفي اليوم . وتفكيرى في أمس أكثر من تفكيرى في اليوم . .

و . . . إنما أحب الكتاب أثناء كتابته ثم يكون أبغض شيء إلى . وكتابى ملكى ما دمت أملكه ثم لا أعرفه . . .

ونعل طه من أكثر كتابنا أثراً وذكراً في الأدب الأوربي . فقد تناول مؤرخو الآداب الحديثة بالدرس وترجموا آثاره . وكان آخر هذه المحاولات

كتاب رونالد روبنسون الذى كتب عنه من بين « أهم مائة رجل فى العالم اليوم » (١) .

ولا شك أن طه حسين من أجراء كتابنا ، وأشد هم حماسة وثورة . وهو غاية فى الجرأة حين رسم حياته وكشف عنها على هذه الصورة الرائعة . . وكان أقصى المصارعين فى ميدان السجال بين القديم والجديد . وأزمات الشعر الجاهلى . وعهد صدق ، وعهد إبراهيم عبد الهادى ، كلها حلقات متصلة من الصراع . .

لقد أصدر طه حسين عدداً من الكتب والآثار وكلها حلقات من تاريخ ذاخر متصل . متجدد . فيه ذلك القلق . وذلك الطموح . وتلك النفس الراغبة إلى أن تفاجئ الناس بالجديد . وتهدى إلى الثقافة والفكر آناً حية خصبة رائعة ، وتقدم إلى المثقفين فى الشرق اقباساً متوالية من ضياء الحكمة والحرية .

محمد تيمور



ولد في العقد الأخير من القرن التاسع واستشرف مطالع الشباب والنضج في الوقت الذي وضعت فيه الحرب أوزارها ، وتفتحت معالم روحه وحاسته الفنية في « بؤرة » الثورة المصرية . وقضى أيام شبابه بين درب سعادة . وعين شمس . ونشأ في بيئة كلها ورق وأدب وصحف وشعر .. حيث كان والده « أحمد تيمور » يعقد صالونه ومن حوله أقطاب الرأي وقادة الفكر . ورأى عمته عائشة التيمورية واستمع إليها وقرأ لها . وشاهد « محمد تيمور » وهو يتطلع إلى المجد .

مرض في أول شبابه « بالتيفوئيد » فلزم فراشه ثلاثة أشهر ، فكانت فترة حضانة لأفكاره واتجاهاته . فتحت له أبواب المطالعة والدرس ، وأتيح له أن يعرف « موباسان » ويحبه ويتعشق آثاره فيتعقبها « فما لا ريب فيه أن حادث المرض كان بداية طور جديد في حياتي الأدبية نقلني من دور التردد إلى دور اليقين ، ومن دور الإلمام والهوادة في التحصيل إلى دور الجد فيه والاستيعاب (١) . . . »

(١) المصادر التي ألهمني الكتابة - كتاب « شفاء الروح » .

ثم سافر تيمور إلى أوروبا ، وأمضى فترة تزيد على العامين بين سويسرا وباريس . فكان هذا من العوامل البعيدة الأثر في تكوين شخصيته ، وتفرغت لقرأة واتصلت بالأدب الأوربي أقرب اتصال ، وطالعتني أثناء إقامتي هناك مرثيات ومناظر هزت نفسي وتغلغلت في صميم قلبي . كما أن خبرتي بالحياة ومعرفتي لها قد اتسعت وتنوعت ، فكان لهذه الحياة الجديدة التي عشتها هناك أثر لا ينكر في تطور تفكيري ... »

وثمة شيء آخر ، كان له أثره في تكوين شخصية محمود تيمور . ذلك هو المرض . لقد تألبت على الأمراض منذ الطفولة « وأذكر بالخير طبيبى الأول فقد كان يجمع بين الطب والطبية ، أى بين العلم والصدقة ، فلم يكن يداوى الجسم وحده ، بل يداوى معه النفس . كان طبيب الطفولة هذا رجلاً نحيفاً ذا طربوش أفطس ووجه أسمر مهزول . ولا أدري لماذا يخطر ببالى كلما شاهدت صورة « دون كيشوت » هذا الطبيب أو بالأحرى هذا الصديق .

.. منذ الصغر والعلل تتردد على حتى ألفتها الآن وأصبحت غير غريبة عني . منذ سنين طويلة . وأنا في رقابة الطب في مأكلى ومشربى ، وفي نومى ويقظتى .. وهكذا كنت أحس في أعماق نفسى بنقص يحتجرنى عن الاستمتاع بما ينعم به غيرى ، هذا النقص يدفعنى ولا يزال يدفعنى إلى أن استكمل الخيال ما عجزت عنه في الواقع (١) .. »

هل كان هذا المرض القابع في الأمعاء ، بعيد الأثر في شخصية محمود تيمور وأدبه .. « أنا أحرص أول ما أحرص على ألا يعكر صفو هذا الجو لك المعكر الأعظم .. وأعنى به المرض الذى اتخذ معدنى محلاً ممتازاً له يبعث لى منه بمعايباته الزسكية ، فلا يعيننى حين أجلس إلى مكتبى أن أتفقد القلم والقرطاس بقدر ما يعيننى أن أتفقد أعوانى الأمانة من علب وحقق

وقوارير . فهذه علبة الإسبرين ، وهذا حق الميكروبونات ، وتلك قازورة
النمناع . . .

ومع ذلك فأنت حين تطالع آثار محمود تيمور تجد صورة من الهدوء المطبوع ،
والعاطفة الخصبية ، والبساطة الواضحة .

تقرأ له فترى روح البشاشة والفرح والمرح ، تكاد تنظم أدبه جميعه
روح التفاؤل والإشراق ، فلا انطواء هناك ولا تعقيد ولا تشاؤم . تجد
عنده التفاؤل بالأشياء والطبيعة والناس ، وتجد عنده الأضواء المشرقة
لا الظلال القائمة .

وتبدو « حياة » تيمور هادئة مطردة من وراء أسلوبه وفنه ، وليس بها
مغامرات أو فجوات ، ويبدو هو شديد الحيوية ، ذاخر المشاعر ، يسكب
نفسه على الورق في صراحة ووضوح .

وأنت ترى أناقة ملبسه حين تطالع أسلوبه الأنيق ، ولكنك لا تلبس
أن ترى روح « الشعبية » واضحة ، فيخيل إليك أنت ترى تيمور وهو يختلط
بالحياة ويشاهد ويسمع ويتأمل ..

لا يضع تيمور على عينيه منظاراً أسوداً حين ينظر إلى الحياة ، أو حين
يرسم الحياة .. بل على عكس ذلك تماماً .. تراه مشرق النظرة يتوسم
في الحياة الضياء والنور والطلاقة ، ويرى أبهى جوانب الحياة :
الحب والجمال .

« . . إن النزعة المسيطرة على الوجود هي النزعة الخيرة ، وأن بذرة الخير
أصيلة كامنة في تلافيف هذا العالم ، وهي التي تسير به دائماً إلى هدف معين ،
هو منفعة ورقية . وبذرة الخير موجودة في كل الكائنات صغيرها وكبيرها .
حقيرها وعظيمها .. فهذه الذرات التي يتكون منها جميع ما في العالم من
كائنات مكونة من كهارب يسير بعضها حول بعض . وتسير حول نفسها
في حركات هي أوفى ما وصل إليه النظام والتناسق . أي أرقى ما وصل إليه

« الجمال » وهى فى حركاتها متماسكة بقوة الجاذبية ، أى بقوة « الحب » ..

* * *

وهو فى مجموع ما كتب رجل مثل عليا يحب زمهرير الحياة ، ويغرم بالصحراء ، ويحب الاجراء الهادئة الساكنة التى تعيش على الإنتاج ويذهب فى البلاد طولاً وعرضاً ، يستقضى ويبحث ويتصفح الوجوه . يرى جمال الكون عند بحيرة « ليمان » وشاخات العائر وناطحات السحاب فى نيويورك ويستمتع إلى هدير الأمواج الصاخبة عند شلالات « نياجرا » ويستشف روعة الطبيعة فوق صخور لبنان فاذا دخلت « صومعته » أو حرمة المقدس طالعك التماثيل الثلاثة التى استوحى منها قصصه « فرعون الصغير » بنت الشيطان ، إحسان الله .. » وهو معجب بهذه التماثيل ، مشغوف بها ، وهو يربط بين قلبه وفنه بوشائج عاطفة صادقة حين يقول « ربما كان حكم الكاتب أيسر مثل نضربه ، فيه يتبدى ذلك الضرب من إحساس الفنان بالجماد فقد تتوثق الألفة بين الكاتب وقلبه فلا يرغب بديلا به ، وإن بلى فى يده » .

* * *

وتبدو حياة تيمور وليس فيها أحداث ضخمة ، أو مغامرات جريئة . إلا حين امتحنه القدر بفقد ولده الذى لا يحب هو أن يسميه .

لقد هز الحادث تيمور هزاً عنيفاً ، ولكنه استطاع أن يستمسك وأن يصد .. وكان من أثار هذا المصاب كتاب خالد هو « أبو الهول يطير » حيث يبدو تيمور فى سورة الصوفى المؤمن .. حين يطلق نفسه من كل قيد ، ويصور الآمة فى حنان بالغ .

« .. لقد تطايرت من يدنا ، يا بنى ، كما يطاير العطر من قارورة رفعت سداداتها فلم نعد نراك بأبصارنا ، ولكننا ظللنا نشمك طيباً تشيع فيها حولنا من أجواء ..

أى بنى .. ها هو ذا كل شيء قد اختفى من حولنا ، فلم يعد إلا أنت وأنا وحدنا . لقد تزايدت أصوات الأحياء بما تحمل من تجمية وتوديع وبقية أنت . أنت الوحيد الذى مازالت أراه . إنك لتماماً على الرحاب والآفاق . وإننى لأحس وجودك إحساساً كله صدق ويقين . حقاً أن الموت لأعجز عن أن يفرق بين حبيبين .. »

أعتقد أن « الرحلة والسفر » من أهم العراجل فى تكوين محمود تيمور الأدبى فهو قد تردد على أوروبا فى خلال ربع قرن مرات متعددة . وتركت فى نفسه ، جبالها ومناظرها وجمالها أناراً لونت قصصه وأناره . « جلسة رخيّة تجاه بحيرة ليان .. فى لوزان .

انطلق إلى هذا المشهد الخلاب الذى يتألق لعيني تحت أشعة الشمس وأرى القرى تتناثر على الشواطىء ممددة فى صعودها على سفوح الجبال ، سكتنفها المروج والغابات .

لبحيرة ليان خصائص عجيبة ، إنها متحولة متبدلة ، لا يستقر لها حال فهى تتشكل وتتلون وفقاً للجو فى تطوره واختلافه . هى فى بواكير الشروق غيرها فى وهج الظهيرة .

وهى فى ذلك الوهج غيرها فى فترة الأصيل . وكأنما هى تخلق خلقاً جديداً حين تنسدل أستار الظلام أو تسكائف أطباق الضباب .. »

وفى الاقصر ، وفى نيويورك ، وفى باريس ، وفى لبنان تجد محمود تيمور متأهباً ليسجل خواطره .. يقول « لم أر منظرأً بديعاً وقعت عليه عينيأى إلا وضعته فى مذكراتى وأنا نشوان به . ولطالما جذبتنى زوجتى من يدي وقالت لى : « لقد جئنا للترويح عن النفس لا لكتابة المذكرات » .

يقول محمود تيمور أن الشخصية التي أود أن أكونها وأن أعيش حياتها هي شخصية « أمين بك » الملقب بالملوك الشارد ..

حسبنا أن نتأمله هائماً في مزدهم الحياة يجالدها وتجالده وتدفع به أمواجها صاعدة هابطة . وهو منتعش بذلك الذي أصابه دون سواه في تلك النكبة العارمة التي لم تبق من زملائه ولم تذر ولعل ما حببه إلى وأغرمني به ، هو تلك الصورة الغامضة التي اختتم بها حياته . صورة الفارس الجسور الذي كان له وحده دون زملائه المالك جميعاً حظ الإفلات من منجل الموت الحاصد .



وأحب كتب محمود تيمور إليه هو « أبو الهول يطير » .. « فقد أحسست إنني أكتبه بدمي ، وأنا أودعه شعوري الصادق عن رحلتي إلى أمريكا .. »
أما القصة التي يجب أن يكتبها فهي قصة النيل « بوصفه آلهة من آلهة الأساطير . فان قصته خالده شبت مع الزمن وستبقى إلى الأبد » .



لا تعطينا آثار « محمود تيمور » شيئاً واضحاً عن حياته الوجدانية ولعل طبيعته المعتدلة الهادئة ، جاءت على نفس النسق في العاطفة أيضاً فلم يكن من ذوى المغامرات أو الذين أجبوا حباً من ذلك النوع العنيف الحاد ولسكنه يؤمن بأن المرأة ملهمة للأديب والكاظم « المرأة ملهمة الأديب والفنان في كل مكان ، فكيف يشذ الأمر في مجتمعنا المصري . وأن البحث الدقيق في حياة الأدباء والفنانين ليكشف عن جوانب فيها للراء وحى وتأثير خاص أو عام . والأدب في خصائصه وظواهره يختلف قبل خروج المرأة إلى بحال حياتنا الاجتماعية عنه بعد خروج المرأة ومشاركتها في الحياة العامة ، فقد اتسم الأدب في الماضي بالحرمان والكبت والتظاهر بالتحشم والتوقر أما الآن فيتسم بالحرية والصراحة والانطلاق ، فهو اليوم أدب سفور ، للراء فيه تأثير إيجابي ، وكان بالامس أدب حجاب ، للراء فيه تأثير سلبي . ومن هذا

يتضح أن الادب متأثر بالمرأة على أية حال (١) .

ويسير على نفس نهجه في الاعتدال حينما يؤمن بالزواج ويرى أنه ضريبة الحياة « على الشباب أن يبادر إلى الزواج متى كان في استطاعته أن يتحمل تكاليف الاسرة ويضطلع بما لها من تبعات فتلك هي ضريبة الحياة وذلك هو الحجر الاساسي في بناء المجتمع .. » وهو مؤمن بأن الزواج لا يحول دون المجد « وليس يحول الزواج دون المجد ، وربما أعان عليه » .

وهذا كله يعطينا صورة من رجل سوى الخلق . سليم الرأى في الحياة الاجتماعية . لم يعتزل الحياة الزوجية . ولم يندمج في التجارب العنيفة . وبقى على اعتداله وبعده عن الإسراف .

بدأ محمود تيمور حياته بقراءة ألف ليلة ، وجيران . وعيسى بن هشام وصدرت « زينب » أول باكورة قصصية مصرية فأعجب بها .. ثم اتجه إلى موباسان وتشيفوف وتورجنيف ..

وهنا أنتج أول إثارة سنة ١٩٢٥ « الشيخ جمعة » و « يحفظ في البوستان » وفي خلال ربع قرن تحول اتجاه محمود تيمور القصصى وتنوع .

تحول من القصة القصيرة ، إلى الطويلة . ثم إلى المسرحية ومن الواقعية إلى التحليلية . ويقول نقاده أن قصة « الاطلال كانت ثغره بين مرحلة الواقعية ومرحلة السيكلولوجية (٢) .

ولعل تيمور قد رسم في قصة الاطلال صورة حياته في مطلع شبابه حينما تدفع الثورة الكامنة المتأججة ، إلى الخروج من حالة القلق والخيرة إلى عالم

(١) في حديث مع المؤلف : الصباح ٢٧ - ٣ - ١٩٥٣ .

(٢) محمد ابن حسونه

الجسم وجحيم الشهوة (١) ؛

ويقول تيمور أنه يقرأ المقالة أو القصة أو الخبر في إحدى المجلات فتكون نتيجة ذلك أن يخرج بموضوع جديد لقصة جديدة .

وهو لا يكف في سبيل فنه عن الإتصال بالمجتمع ، التفلغل في أعماقه ، وقصة « عم متولى » استوحى الكاتب موضوعها من مشهد لفت نظره أثناء جولته في أحد الأحياء الشعبية لرجل يبيع اللب والفول السوداني

ويقول الدكتور طه حسين أن محمود تيمور يصدر عن طبيعته دون تكلف ، فادلم تجد في قصصه هذا اللون أو ذلك ، فانما هو يستجيب لطبيعته الهادئة المتحرزة الوقورة ، التي عاشت في كنف التقاليد ورعاية الأرضاع ، وبعدت عن النزق والاندفاع في شبابها وراء المطامع والأهواء . وهي إذا اتجهت نحو الحب أو الإعجاب بالجمال ، فانما تدخل هذا الباب مستأنية مترففة متوقفة .. أو قل متحفظة .



ومحمود تيمور في آثارة الأخيرة ، في فترة استكمال أدوات الفن ، وتبلور الصور والمعاني ، والوصول إلى السن التي يعرف الكاتب فيها معالم طبيعته ، يتخذ منحنى التحليل النفسى المستفيض للكشف عن البواعث الخفية التي تدفع بالأبطال إلى ما يقومون به من أعمال دون الوقوف عندما يبدو من الأسباب الظاهرة لهذه الأقوال التي تجرى على ألسنتهم أو التعليقات التي يتذرعون بها لتبرير ما يقومون به .

وبدا في قصصه اليوم « اليوم خم » و « حواء الخالدة » ياتهم الأجواء التاريخية دون أن يتخذ من مادتها أو أساطيرها دعائم قصصية .

ومن التاريخ الإسلامى « ابن جلا » وعثره وهو فيها « يستجلى بواطن

هذه الشخصيات ويصور نفسياتها ويعمل تصرفاتها وينتزع منها نماذج إنسانية
حية بفرائزها الخالدة »

« وهو يستجيب إستجابة طبيعية لما يجري حوله ، وقد ضمن مسرحياته ألوانا
من هذه الإستجابة القوية ، وقد أوحى إليه العهد السياسي البائد في مصر
مسرحية عنيفة هي « المزيفون » صور فيها الحالة العامة قبل الثورة الحاضرة ،
وفي مسرحياته « كذب في كذب ، أشطر من إبليس ، قنابل » صور جوانب
من المجتمع وحلل طبائع من الناس على وجه يدل على كفايه واضحه في فهم
السرائر والشائمل .

أحمد حسن الزيات



أخرجته المنصورة بلد الشعر والجمال، وتفتح شبابه على ضفاف النيل،
حيث تغدق الطبيعة في العطاء، وتنثر العطر والندى في طريق الفن والشعر.
وكان في الأزهر أحد ثلاثة أقاموا مدرسة التمرد على القديم « طه حسين
— الزيات — محمود زناقي »

وخلف الأزهر غير نادم، وتعلم الفرنسية، وسافر إلى فرنسا سنة ١٩٢٥
حيث درس القانون والآداب.
ومن جمال المنصورة وبلاغة الأزهر وثقافة الفرنسيين بزغ أدب الزيات
ناعما هادئا.

وبدأ الزيات حياته مدرسا ١٩١٧ وقد طال اتصاله بالتعليم إلى أن أنشأ
الرسالة سنة ١٩٣٢ وهو لم يتصل بالصحافة على غرار طه حسين والعماد وغيرهما
فلم يكن من طبعه هذا اللون من الصراع السياسي، وإنما كان أدبيا تجرد

للأدب والحب والجمال وقد ترجم في خلال هذه الفترة روفائيل وآلام فرتر ووضع كتاب تاريخ الأدب المربى .

وفي خلال فترة العشرين عاما ١٩٣٢ - ١٩٥٢ كانت « الرسالة » هي المجلة الادبية الاولى في الشرق . ولها أثرها البعيد في تطور الادب خلال هذه الفترة .

أبرز ما يأخذ بالبال أن « الزيات » رجل هادىء كالجدول الرقاق ، كلما انصل قلبه بموضوع هادئا ، لا ترى فيه الحماسة الفوارة ولا العصبية الهاجئة ولا الجراءة الجريئة : لست أدري هل السر في هذا أن الزيات بدأ كتاباته هذه التي نشرتها الرسالة وجمعت في « وحي الرسالة » في سن مرتفع ، في حوالى الاربعين ، وهي سن تعطى الكاتب التركيز والاعتدال والرسوخ .

ولسنا ندرى لو أن الزيات كتب واتصل بالحياة وبأمر المجتمع قبل ذلك يعشر سنوات هل كان يبدو هادئا أم نائرا .

لكن الذى يمكن القطع به أن الزيات هادىء بالطبع ليس راكدا أو آسنا ذلك أنه في سن الخمسين وبعدها قد تناول الكثير من الموضوعات فحملها الكثير من الحماسة النابضة بالحياة بالرغم من الهدوء الواضح في مظهرها .

ولكن الزيات إلى هذا كله لم يكن نائرا ، ولم يكن من كتاب الأدب الانقلابى كطه حسين مثلا ولم يكن عنيف النقد كالعقاد وهو إلى هذا الهدوء معتدل . متزن . مترفق على أسلوب المدرسة الفرنسية وعلى طريقة الصالونات . . .

وإذا قلت أنه عاطفة متحركة فانت لا تعدو الحقيقة أنه مفتون بالجمال ، تبرز في بيانه الروعه والجمال والحسن والفن . أنه هو الرجل الذى خلق مدرسة جديدة في الادب تعنى باللفظ الموثق والعبارة العالية . وهو الذى

جدد روح الادب العربي ، لقد بدأ حياته كما يبدأها أى شاعر بالحب وترجمة
آلام فرتر ثم عندما بلغ سن الرجولة العامة نقل الحب من الذاتية إلى
الموضوعية يقول الزيات « لماذا ترجمت فرتر ؟ » فى ١٩١٩ كنت اجتاز هذا
الحين . شباب طرير حبه الحياء والانقباض والدرس ونمط التربية وطبيعة
المجتمع فى دائرة ليس فيها من الواقع غير وجوده واحساس مشبوب يتوقد
بالجمال وقلب غريب يتحرق ظمأ إلى الحب فالطبيعة فى خيالى شعر
وحرركات الدهر نغم وقواعد الحياة فلسفة وكان فهمى لىكل شىء وحكى
على كل شخص يصدران عن منطق أفسد أفيسته الخيال وزور نتائجه المثل
الاعلى ثم فجر هذه الحال التى وصفت هوى دنخيل هادى* ولكنه ملح فسيحت
منه فى فيض سماوى من النشوة واللذة وأحسست أن وجودى الخالى قد امتلأ
وقلبى الصادى قد ارتوى وحسى الغائر قد سكن ورحلت اسلك هذا الطريق
السحرى محمولا على : بناح الهوى حتى ذكرنى الزمن الغافل فقام فيه عقبة
اصطدم الخيال بالواقع والحبيب بالخاطب والعاطفة بالمنفعة .
فلما تراءت « آلام فرتر » سمعت نواحا غير ذلك النواح ورأيت روحا
غير هاتيك الارواح وأحسست حالا غير تلك الحال . كنت اقرأ ولا أرى
فى الحادثة سواى واشعر ولا اشعر إلا بهواى وانذب ولا انذب إلا بلواى ،
هذا هو « الزيات » فى شبابه حياة كلها حب وكلها عاطفة ولكن هل
هو الحب الاول ...

لقد رسم الزيات صورة الحب الاول فى إحدى قصصه .
ذهبت منذ قريب إلى القرية فى شأن من شئون الاسرة وفى فترة من فترات
الصمت العميق الحالم أرسل صديق نظره إلى مورد الماشية من التربة ثم رده
وعلى عينه الساجية جميع معانى التعجب .
وعلى شفته الباسمة كل أدوات الاستفهام فنظرت حيث نظر فاذا امرأة

فى اخريات الشباب تورء بقرءاء الماء وقء اسءلء على وءهءاء كامء طرءاءها
السوءاء ..

o o o

ءع لى صوءة الفءاءة الءى عرءءها واءءبءها ، انءا لاءزال فى طواىاء القلب
طاهرة كاملفءوله ناضرة كامصبى ساءرة كامشىبىه اما هءه الءى ءرى فلىس
بىنى وىبىنءا عءء ولا سبب .

هءه قصة نور ، قصة الحب الاول

وبعء فاءا ءزال للزىاء فى مىءان الحب قصص

قصء الى بارىس فكءب القءر صفءة لا ءقل وضاءء ولا ءمالا .

ءرء فى بارىس سنة ١٩٢٥ الآنسة « فرناءء » ، ابءة اءء القضاة فى
ءءكة ءىمون وءاءء طالبة بالسة الاءيرة فى كلية الءقوق وءان لها بالمسءشرق
المرحوم كازانوفاء اسءاء الاءب العربى الكولىبى ءى فرانس صلة قرابة
أوصءاقه فعرفنى إليها لءكون فى مءىنة النور ما ءاءت بىاءءر كركس لءاءى
فى ءنة الفرءوس

اءنىاء الامءءءام معاءم ارسلء نفسى الءشىمة على هواها ومناها فرءنا معاءبء
الطبىعة فى فنسین وسان كلو وفنءىاءو وءبءبنا مءارب الءن فى الوفر والاوربرا
وفرسائى وءكنء یومئءاء ءرءبم « روفائىل » فسكان ما قرأ وما اءب
وما اسمع وما ارى نساء عءببا من الءمال والءلال والءن والشعر والءب والءأمل
والاسءغراق لا یءع للءبمال الوءاب مسبءا ولا للنفس الطاءة رءبة ثم ءم الفرءاق
فرءعء الى مصر ولءقء هى بأهلها فى روبان وءان بىنى وىبىنءا بعء عوءءها
رسائل مسكیة المءاء ورءیة الورق ءواف ءءابا من شعر القلب والعقل

وعاء الزىاء الى مصر وسافر الى بعءاء وعاء الى مصر فاسءقر بها وانشاء
الرسالة ووصلء الرسالة بألاف القراء والقارءاء

وكنّا نحس بين حين وحين بخفقه قلب ، هنا أو هناك
ولعل قصة ضخمة عنى الزيات بكتابها فى فصول سبعة كانت بعيدة الأثر
فى نفسة تلك هى « قصة فتاة »

هذه الفتاة التى كانت تحب الزيات فى عنف و رقة وتراسله من قريتها
فكسب له على هذه الصورة من الهوى العنيف
كيف كان موقف الزيات الرقيق القلب العاطفى الوجدانى من فتاة محرومة
تضع آمال عاطفتها فى الكاتب الرقيق

أن منطق القصة يعطى صورة الزيات وهو يهتز عاطفه ويحاول أن يوازن
بين العاطفة والعقل وبين قلبه ورسالته وبين أن يكون حبيبيا وأن يكون أبا
أوناعما هاديا .

أنها ولاشك عاصفة هزت الكاتب من الأعماق وإلا فلماذا أولاها هذا
الاهتمام ورسم لها هذه الصورة القوية الجبارة

وثمة صور أخرى من صور العاطفة فى حياة الكاتب الوجدانى الرقيق
« تذكرت أن شهر يناير قد عودنى الجليل فيما مضى من عمرى فمقد سجل
أكثر ضحكات القلب وحسبى منها ميلاد وابنى رجاء والرسالة

« ألقى إلى البريد الجوى فى صباح هذا اليوم غلafa من العراق على ورقه
طابع الدوق وعلى خطه سمه الظرف فلما فضضته وجدت فيه رسالة وصوره قرأت
الرسالة والامضاء ثم تأملت الصورة والاهداء فاذا هما آنسة من أوانس بغداد
المثقفات وقد اولعت بالأدب واغرمت بأهله ثم عدت اقرأ وعدت أتأمل
وطال تردد البصر والفؤاد بين الصورة وهى رسالة الجسم الجليل وبين الرسالة
وهى صورة الروح النبيل حتى غاب حسى فى سكره من سكرات الأحلام

ولم أكد استوعب الرسالة بفكرى وأناقش موضوعها حتى
تناولت القلم وفتحت الألبوم واجبت على رسالة برسالة ورددت على الصورة

بصورة . ولكن هيهات واسفاه ، لن تجيب رسالة عقل عن رسالة قلب ،
وان رد صورة قبيحة على صورة « مليحة » .



والاستاذ الزيات ما زال على ارتفاع السن شاب القلب . . وهو يصور
السعادة بهذه الصورة الحلو الرائعة . . « ما أيسر السعادة على ابن آدم لو يدري
أو يريد ، إن كلمة من قلب مفتوح ، أو بسمه من شفاه بريئة ، أو نظرة
من عين حبيبة ، أو فقرة من رسالة شاعرة ، أو قسمة من صورة فاتنة لتستطيع
أن تنير ما أظلم من قلبه وأن تفرج ما اشتد من كربيه . إن السعادة فئات
وفترات . فلا تكون في واحد صحيح ، ولا تدوم في زمن متصل . . »

وهو يصور الحب ، في صورة موضوعية تدل على طول الخبرة ، وسعة
الفهم ، وعمق التجربة

« العلة الغائية لخلق المرأة هي أن تكون زوجة وأما ، وسبيلها أن تروق
الرجل وتدمت أخلاقه وترقى طبعه ليسكن إليها ويشيل عليها بالمعونة والنجدة .
. . للحب خصيستان قويتان : الرغبة والحشمة . ومن ذلك كان جمال
المرأة داعي الرغبة خافض الجناح حيي الطبع ، والرجل مزهو على المرأة يدل
بجيازه لها ويتعزز بقيامه عليها ، فهو يريد ريحانة لا قهرمانة ، وحبيبة
لا جليبة ، لها سلطان ولكنه رفيق وفيها أباء ولكنه رقيق .

ومن ثم كان لجمالها مزيجاً من الوداعة والعزة ، وخلطاً من الضعف
والدلال ، وطبقاً من الهيبة والنبيل .

وجمال المرأة يحتفظ بدوامه وسحره ما دامت له روح من العاطفة تشع
من نظراتها وتنم من بسماتها ، وتشيع في قسماها ، وتنتشر أضواءها السحرية
على أعصاب الرجل — وهو بطبعه ولوع — فيمتع بنعمة اخياره ولذة
إيثاره ويمجد في للضعف الذي يستسلم ويستكين ، والحب الذي يطول ويحكم .

وساطان المرأة القوي على قلب الرجل ، إنما يأتيها من ذلك الذكاء المستتر
ترعاه معه وفيه على غير علمه ، فكان من مزايا جمالها أيضاً أن تلوح هذه
البصيرة الدقيقة على أسرة وجهها وتشرق على الأخص في تلك الفطرة الوديدة
التي تتغلغل في طوايا القلب فتنسخ ظلال الفتور ، وتبدد ظلام الكآبة ، وتشعل
نمود الحب .. »

وهو المحب الذي يهتف عند ما يتنازل دوق وندسور عن ملك بريطانيا
فيقول .. « يا كافرين بالشعر والأحلام والحب » .

وإذا تحدث عن الربيع كانت المرأة عقدة حديثه .. « أجمل شيء في ربيع
القاهرة أصائله وأماسيه . ففي هذين الوقتين تزدهر شوارع القاهرة الحديثة
بزهرات شتى الألوان من بنات الإنسان فتملاً الجو عطراً ، والعيون سحراً
والقلوب فتنة » .

وإذا تحدث عن العيد ، أرجع السر في أن حياتنا الاجتماعية ممسوخة
وأعيادنا مشوهة إلى غيبة المرأة عن المجتمع الإسلامي « ذلك السبب هو على
ما نكابده من جفاء في الطبع وجفاف في العيش ، وجهومة في البيت ، وسآمة
في العمل وفوضى في الاجتماع » .

.. كرهنا الدور لاحتجاب المرأة ، وهجرنا الأندية لغياب المرأة ، وسئمنا
الملاهي لبعدها المرأة .

فإذا لم تصبح المرأة في الهو عطر المجلس وعلى الطعام زهر المائدة . وفي
الندى روح الحديث . وفي الحفل مجمع الأفئدة ، فهيات أن يكون لنا عيد
صحيح ، ومجتمع مهذب ، وحياة طيبة وأسرة سعيدة .. »

ومما يتصل بهذا ما يرويه من أنه قرأ كل قصص الحب العالمية هلوي
الحديدة ، ورينيه ، وأتالا ، وأدولف ، ودومنيك ، وماريون دلوم ،
ومانون ايسكو ، وذات الكاميليا ، وجرازيلا ، ورفائيل ، وجان دكريف ..

فاذا أضيف إلى هذا فصوله عن شاطئ البحر ، وحبه للقرية وأحاديثه عن ذكرياتها في أيام الفيضان والعيد ورمضان وفصوله عن الأقصر وخواطرها مهاجر ، أمكنك أن ترسم الصورة الكاملة لهذا الكاتب الذي تمرد باكراً على العمامة والأزهر وأسلوب الجود في الدرس والآداب ، واتجه إلى اللباس الأفرنجي والجامعة واللغة الفرنسية والآداب الغربي وباريس .

ومما يتصل بالحياة العاطفية الأستاذ الزيات ، فقدان ابنه « رجاء » . . . كنت في طريق الحياة كإشارد الهيمان ، أنشد الرحة ولا أجد الظل . وأقبض المجد ولا أجد الحبيب ، وألبس الناس ولا أجد الأنس . وأكسب المال ولا أجد السعادة . وأعالج العيش ولا أدرك الغاية . كنت كالصوت الأصم لا يرجعه صدى ، والروح الحائر لا يقره هدى ، والمعنى المهم لا يحدده خاطر .

فلما جاء رجاء وجدته أولاد فيه من جديد ، فأنا أنظر إلى الدنيا بعين الخيال . وأبسم إلى الوجود بشعر الأطفال ، وأضطرب في الحياة اضطراب الحى الكامل يدفعه من ورائه طمع ويجذبه من أمامه طموح . شعرت بالدم الحار يتدفق نشيطاً في جسمي ، وبالأمل القوي ينبعث جديداً في نفسي ، وبالمرح الفتى يضحك لاهياً في حياتي ، وبالعيش الكئيب يراقص على حواشيه الخضر عرائس المني .

. . ثم انقضت تلك السنون الأربع فصوحت الواحة ، وأوحش القفر . وانطفأت الومضة ، وأعطش الليل ، وتبدد الحلم ، وتجهم الواقع ، وأخفق الطاب ، ومات رجاء (١) .

ثم لا يلبث أن يتحدث عن ابنه رجاء وكتابه العراق . .

... والافتاء على ولدى الذى أبدعه الله ، وعلى أخيه الذى أبدعته .
 جاء معاً فى الشتاء فلم أجد بفضل وجودهما برذاً ولا عبوسة ولا كآبة ؛
 وذهبا معاً فى الربيع فلم أحس بسبب فقدهما دفئاً ، ولا طلاقاً ولا بهجة .
 أودى بهما القدر العايب خداعاً وغيلة فسلب العين الكلواء ريبه
 الحذر ، وجرد الدفاع اليقظ من فرصة الحيلة . دب للطفل الموت
 فى وعكة خفيفة من البرد ظنها الطيب زكاماً عارضاً ، فاذا هى الخناق القاتل ،
 ومشى للكتاب القدر المحتوم فى ركाम من الورق المتروك فذهب به خلسة إلى
 النار المبيدة ..

° ° °

ويتصل بالعاطفة فى الزيات عاطفة أخرى هى عاطفة العروبة والشرق
 والإسلام فهو مدره هذا الميدان .

وهو الذى جاهد بقلبه فى سبيل تحرير الشعوب العربية ودافع عنها فى
 كل مناسبة ، وأحتضن الدعوة إلى إصلاح الأزهر .. ، ولم تمنعه سعة أفقه
 وهو مؤلف « عبقرية الإسلام » ، وإعداد الهجرة أن يرثى « إسماعيل أدهم
 أحمد » ... عندما أنتحر فى أغسطس ١٩٤٠ ولما أراد أن يصف خلته
 وانحرافه داوره بلباقة : لقد حسب أن أرقام العلم وأقيسة المنطق ، هى كل
 شئ فى تقدير المعلوم وأكتناه المجهول فاعتمد فى أدبه على العقل القعيد ،
 الذى يرى ولا يظير ، وأتكأ فى الفلسفة على الغرض البعيد الذى يظير
 ولا يرى .

ويمكن القول أن اتصال الزيات بالأدب الفرنسى لم يسمح شخصيه ولم يدفعه
 إلى الانحراف ، وإنما يظهر اعتداله فى أنه يحتفل بعيد الهجرة والميلاد سواء ..

وبالرغم من أن الزيات شاعر فى سلوبه الأخاذ ، فانه منصف لا يميل مع
 الهوى ، ولا يقول كلمة السوء ولا العبارة النابية ، فاذا أراد أن يقول شيئاً

فيه ما يغضب ، دار ولف ، وحاور وداور ، حتى يقول ما يريد في صيغة
لا تجرح ولا تسيل الدماء ! ..

* * *

وهو يصور طبيعته في عبارات واضحة « ... لست بطبيعتي وتربيتي رجل
صالون ، ولا حديث مجلس ، لأن المجامع المختلطة التي تدفع الحياء عن الذهب
وتذهب الخوف عن اللسان وتجعل أطراف الحديث في متناول كل جالس
أبتها علينا التقاليد ،

وصداقة طه والزيات من الصداقات الأدبية المعدودة في تاريخ الأدب
العربي يروي الزيات كيف عقدت مي مجلساً للصلح بينه وبين طه حسين في
فترة أصيبت فيه الأخوة المصقولة ببعض الفتن .

« ... ثم (١) مسحت مي بيدها الساحرة على ما كان بين الصديقين فإذا الماضي
يعود كله ، وإذا الحاضر يذهب كله . وعلاقة هذين الصديقين علاقة نشأت
مع الصبي وأستمرت مع الشباب وتوثقت مع الزمن فلما نال منها العهد المجرم
الذي نال من كل شيء جزعت الأنسة الكريمة فيمن جزع وظلت تتحين
المناسبة لسفاره الوفاق والمودة حتى تم لها ذلك ليلة الأمس ..
كان حب صديقي وحبي لحظة من الذكرى تعيد غارب الحكم وتكسر
عادية الجدل . »

ويصف الدكتور زكي مبارك أدب الزيات بأنه صوره من نفس رجل
تمتحن بنفسه وبالدينيا وبالناس ، قاده الذي ينشره اليوم قد يكون صدى
لتجاربه منذ أكثر من ثلاثين سنة والكاتب لا يعرف أين هو من حاضر
وماضيه لأنه مشدود إلى قافلة الوجود ..

...

(١) الرسالة — برابر ١٩٣٥ .

وبعد فالزيات له أسلوبه الواضح الذى يفصح عن نفسه ، وهو
أحد أبناء المدرسة الازدواجية التى ابتدعها الجاحظ ، وسار على
منهجها ، المنفلوطى والرفعى والمازنى وطه حسين على أساليب متفرقة ،
وطرائق متباعدة .

ولقد حرص الزيات على قلبه ، نقياً فلم يدفعه فى حمأة السياسة ولم ينزل
به إلى مستوى الصراع أو الخصومة ، ومضى وفيماً لطبعه وفنه ، يكتب فى
أناة ، وينتج فى ترفق وأعتدال .

توفيق الحكيم



سال توفيق الحكيم إذا كان قد وصل إلى ما كان يريد فقال : ربما ظفرت ببعض ما كنت أريد أو بكثير منه ولكن هل ما كنت أريد هو ما كان يجب أن أريد .. اننا نحدد مطالبنا عادة عند مانكون في مطلع الحياة . اى في مرحلة الشباب فمن يضمن لنا أننا في هذه المرحلة كانت لنا الحكمة الكافية والتجربة الضرورية للارادة الصحيحة .

ويبدو توفيق الحكيم صادقا في تصوير نفسه بعد أن ارتفع به السن وقد بلغ الآن الخامسة والخمسين — ١٩٥٤ — أظن اننى أحب تقبى الآن أكثر مما كنت احبها ايام الشباب لأن القلب يصغر كلما كبرنا إلى ان يأتى الوقت الذى لا يتسع فيه لغير انانيتنا والعياذ بالله .

وقرات له تصويره للسيدة زينب فحيل إلى إنما يقصد نفسه « .. مامن مرة وقع في شدة إلا وجد العزاء عند ضريح السيدة زينب ذى القضبان الذهبية كل نجاح ظفر به في الحياة هو دفعة من يدها وكل عطف هو نظرة من عينها

وكل ابتسامة إنما هي ابتسامة من شفقتها انه يتخيل هيئتها ووجيها وملائمها
ويعتقد انها في السماء رداؤها الأبيض إنما تنظر إليه دائما وترعاه وتجعله
من شأنها .

ولما ذهب إلى سالزبورج في العام الماضي — ١٩٥٣ — اخذ بصورة
المجد التي وصل إليها « وفي سالزبورج رايت الحيطان تحمل إعلانات حمراء
كبيرة تحمل اسم « بنجاليون » واسمى واسماء الممثلين النمساويين وفي تلك اللحظة
يرجع في الزمن القهقري ثلاثين عاما يوم ابصرت لأول مرة اسمي واسم رواية لي
اخرجتها فرقة عكاشة على مسرح الازبكية . يالها من رحلة بين لحظتين . كم انفق
في هذه الرحلة من جهد وعمل ويأس وامل وكفاح فني .. ولكن ..
لقد كان قلبي يرقص في اللحظة الأولى اما لحظة اليوم فان القلب هادئ .
متشد يبتسم ولا يفرح ، ما الذي حدث له ! ..

عرفت أشياء كثيرة ولكني لم اعد اعرف الفرح الفارح الراقص الذي
يجعل من الفنان طفلا . وإذا فقد الفنان طفولته فقد نضارته . لاظن انه قد
كتب على كل فنان هذا المصير ، ان تجعل منه الايام دوحه قد تظل ولكن ليس
يجري في قلبها عصير ..

وعندما تحدث عن الحب قال « إن الحب كمرض الحصبة يصيب الصغار
ويندر ان يصاب به من جاوز الثلاثين ويمكن مد المدة إلى الأربعين .
اين هذا السكائن المنقرض . يتخيل إلى اننى رايه فيما مضى . ولكن لماذا
يتخذ الحب هذه الأهمية في حياة الناس . انهم يريدون ان يقرءوا عنه في الكتب
ويسمعونه في الأغاني ويشاهدونه في القصص . والويل للروائي او الشاعر
او السينمائي الذي يهمله . انى احب بقلبي الذي في راسي وبقلبي الذي بين
جوانحي .. »

هذه ملامح شخصية توفيق الحكيم اليوم .. في الحلقة السادسة من عمره . بعد
أن بلغ من الشهرة مداها وتحول من الفن الخالص إلى الصحافة إلى الأدب الذي

يرضى القراء .. إلى أن أصبح هذه الشخصية الجديدة . أنه ظفر ببعض ما كان يريد وهو حب نفسه الآن أكثر مما كان يحبها أيام الشباب . والسيدة زينب هي منجاة في الشدة وإليها يرجع كل نجاح له في الحياة .. ومهما وصل إلى المجد فإن القلب هادئ متدد يتسم ولا يفرح أما الحب فهو كمرص الحصبة يصيب الصغار .. وهو يحب بقلبه الذي في رأسه وعقله الذي بين جوانحه .

حقاً ما أبعد الفرق بين الشباب وبين ارتفاع السن .. في الافكار والآراء . ان كل شيء يتحول ويتقل من وضع إلى وضع وبعد فما هي حياة توفيق الحكيم من ادبه .

وهل المصادقة البحتة هي التي قدمته إلى الناس ، عند ما طبع أصدقائه مائة نسخة من قصته « أهل الكهف » سنة ١٩٣٣ فاستقبلها الدكتور طه حسين استقبالا ضخماً فخماً . وصفي مؤلفها . ووصفه بأنها أول محاولة لابتداع الحوار في الأدب العربي ؟ .

أن كل الأسانيد التي أنمى تدل على غير ذلك . تدل على أن « توفيق الحكيم » ولد كاتباً .. وأنه بدأ محاولاته مبكراً .. ثم أختفى ، وذهب إلى باريس وعاد وهو يحمل الآمال العريضة في الظهور والتبريز .

« ... لقد طرح في مصر مهنة المحاماة والقانون ليمضي في حمل القلم ، ويقول للناس أشياء يعتقد أنها قد تنفعهم .. وما كان يريد غير ذلك . ولا يطمع في حياته في غير ذلك . فلا الجاه العريض كان يغريه ولا مفاتن الحياة كانت تستهوته . ولا الثراء كان يجذبه أو يقنعه أو يرضيه . وعند ما يصغ إنسان لحياته خطة ، فإن القدر أحياناً يأخذ وينفذ (١) » .

وهذا يعني أن الرجل كان يفهم نفسه ، ويرسم طريقه . بل أن توفيق الحكيم يؤكد « أن أكثر الكتاب يعيشون حياتهم أولاً ثم يكتبونها بعد ذلك . أما أنا فكتب حياتي أولاً ثم أعيشها بعد ذلك .. ياله من شيء خفيف »

(١) توفيق الحكيم في « فن الادب » .

.. إذن فتوفيق الحكيم أن كان قد لمع في الجو الأدبي في ذلك التاريخ وبذلك الكتاب فإنه لم يكن أول محاولاته .. وإنما هو رجل عاش في اغماق برجه العاجي ، هذا الوقت الطويل ، يقرأ ويراجع ، في اناه وهدوء .. كان مبدا ظهوري في الجو الأدبي نشر اهل الكهف ١٩٣٣ ولم تكن هذه الرواية بالطبع بدايتي الاولى في هذا اللون من التأليف بل كانت ثمرة تجارب عشرة اعوام او تزيد سابقة على الشروع في وصفها فلقد كنت قبل ذلك اكتب للمسرح المصري روايات تتلائم وجمهور تلك الأيام .

وإني وان كنت اؤثر نسيان الروايات الاولى إلا اني لا يجب ان انكر فضلها على تكويني الفني الاولى فلقد كانت هي خير محاولاتي على ممارسة الحوار ثم اتسعت آفاتي باتساع نطاق مطالعاتي في أصول هذا الفن في الآداب الأجنبية .

وضاقت ببى مصر فرحلت إلى فرنسا بعد أن كنت سجلت اسمي في جدول المحامين ومهدت امرى لحياة مجدية . ولكن اى شيطان في اعماق نفسى كان يدفعني إلى إضاعة حياتي وراء فن لم يكن له بمصر اى احترام .. وهناك في فرنسا قرأت كثيراً وكتبت بالفرنسية نحو اربع روايات تمثيلية مزقت الواحدة منها تلو الأخرى تمزيقا عقب الفراع منها فلم اكن قد اهتديت إلى شىء يذكر . ولبثت في هذا الجهاد زمنا لا أجد في آدابنا العربية مرجعا لهذا الفن ولا مصدرا محتوما يجعلني ابدأ منه أو أضيف إليه إنما كان على أن اخلق البداية خلقا وكتبت بعد ذلك عدة روايات من بينها « اهل الكهف »

وقد اشتغلت بالقضاء فألنسانى هذه الخزعبلات ودقنت محفوظاتي في حقائي طويلا انتقل من بلد إلى بلد ومن قرية إلى قرية .

حتى وقعت مخطوطة اهل الكهف في يد قاض مثقف من زملائي كان يذكر ايامى الماضية في مسارح القاهرة (١)

هكذا ظهر توفيق الحكيم فجأة ولاكنه كان قد استعد لذلك سنوات ،
ولذلك سرعان ما قدم للأدب العربي المعاصر ، عدداً ضخماً من المؤلفات
في سنوات قلائل .



اتصل « توفيق الحكيم » منذ شبابه ببيئة الفن . . ولم يتخلص منها بعد
ذلك — حتى هذه الفترة التي قضاه في القضاء والنيابة — كان مرتبطاً بالفن
بأكثر من سبب .

ومنحته باريس « بيئة الفن » سرها وروحها . . أعطته باريس آيات
الفنون والآداب التي « تملك عليه أمره كله . فلا يرى غيرها . فان المعرفة
غير المباشرة من كتب ومحاضرات و متاحف ، لم تلبث أن طغت في نفسه على
المعرفة المباشرة .

كان يفضل البقاء في باريس مكباً على القراءة والتحصيل على أن يصاحب
إخوانه المصريين إلى شاطئ بحر أو قمة جبل .

ولاكنه كان يحس في باريس بأن أيامه لا مذاق لها . . فهي كالماء
الحراق أجرعه على غير ظمأ . المستقبل أمامي محاط بالضباب . يخيل إلى أنني
هويت قبل الألوان كالثمرة التي تسقط من الفرع قبل النضوج . .

وفي باريس عمد إلى تحصيل الثقافة من منابعها الحققة وبدأ محاولة في سبيل
الخلق الفني . .

« والحوار » هو موهبة توفيق الحكيم الأولى . . فيه تتجلى ملكته
الأساسية وأسلوبه المركز ، أشبه بالبناء الدقيق .

وهو قليل التخبر والتقلب في الآراء والاتجاهات (١) ، يؤمن بأنه حياة
الكاتب متصلة بحياة إنتاجه . . وأن في أعماق كل « خلاق » شبه غريزة
داخلية تدفعه إلى الإنتاج البطيء أو السريع تبعاً لطول حياته أو قصرها (٢) ،

(١) مجلة الاثنين . توفيق الحكيم .
(٢) البرج العاجي .

ويصف أسلوب تفكيره بأنه هندسي .. صدقت يا أندريه في قولك
أني أصالح أن أكون رياضياً ، وأن أخطاري وتصرفاتي تكاد تسير على
طريقة هندسية او حسابية او جبرية (١) .

.. وهو من الأناة بحيث يجب أن تمر فترة على آرائه « تتيح لي أن
أراجع أفكارى القديمة بعين جديدة لأرى مدى استحقاتها البعض في الحياة
معى . إنها هى التى ينبغى لها أن ترغبنى على تحمل تبعه بقائها ، فهى وحدها
التى تملك بيدها أمر حياتها » .

وقراءات توفيق الحكيم متنوعة .. « ولعل امتع الكتب التى قرأتها كانت
من الكتب التى تبحث فى فلسفة العلم . وأنا من يميلون إلى القراءة ببطء كبير .
وقد أقرأ صفحة واحدة من كتاب ثم اقضى ساعة فى تأمل ما قرأت والتفكير
فيه . وقد لا أقرأ فى الشهر أكثر من كتاب واحد لهذا السبب . وأقرب
الكتب إلى نفسى هى كتب التأمل والفلسفة العميقة . ولعلك تعجب إذ تعلم
أن أقل الكتب التى أقرأها هى القصص . وأنا لا أقرأ منها إلا القصص العالمية
الممتازة دون غيرها . وأست من يحتاجون إلى مكان خاص أقرأ فيه . فقد
أقرأ وأنا سائر فى الطريق أو جالس فى المقهى أو عند ما أرقد فى سريري
لأنام (٢) . »

يتصل إنتاج « توفيق الحكيم » بنفسيته وشخصيته ، مهما بعدت مظاهره ،
ويدور حول نفسه فى كل ما يكتب ، ويعيش حياة أبطاله فهو الشخصية
الأولى فى كل قصة كتبها . وهو البطل الفعلى لسكل مسرحياته . يبدو
الابتكار واضحاً فى إنتاجه ، الساقون الثلاثة ، و « شهر زاد » .. الملك والوزير

(١) زهرة العبر .

(٢) المصور ٢٤ فبراير ١٩٤٤ .

والعبد الأسود .. كل منهم يحب شهر زاد على صورة تختلف عن حب الآخر
حب الفريزه وحب الحضارة ، وحب الخيره .. وشهر زاد تحب هؤلاء جميعاً .
ولكن هل حقاً أن أدب توفيق الحكيم غير عميق الجذور وإن ذلك
يرجع إلى أنه قليل الخبرة ، لم يتصل بالمجتمع وعاش في برجه العاجي ، ولم
ينغمس في الحياة ، ولم يتمرس بأهوائه وآلامه ..

قالوا أن نشأته تختلف عن نشأة طه وزكى والعقاد ، هؤلاء الذين اتصلوا
بالبعثات المختلفة ، ودرفوا الفقر وكابدوه ، وشربوا كوؤس العلقم ، وكدوا
وذاقوا قسوة الأيام أما هو فقد ولد وفي فمه معلقة من ذهب . وذهب إلى
باريس .. ولم يغامر مغامرة واحدة .. ولم يلبث أن اتخذ مقامه في البرج الدجى
« .. وهكذا أعبّر الوجود الأرضي نهاري في برج عاجي ، وليلي تحت
مصباح أخضر .. »

والحق أن توفيق الحكيم قد مارس الحياة على صورة غير الصورة التي
مارسها بها العقاد وزكى وطه .. وأنه قد اتصل بها في يفاعته الباكر في صورة
العاشق ، وفي شبابه في صورة المسافر ، وفي رجولته في صورة المحقق .. ثم
جاءت تجربة « الرباط المقدس » .

.. هذه التجربة التي لاشك في أنها واقعية ، لبروز عناصر الصدق والقوة
والواقعية فيها .. فأكملت شخصية الفنان وأعطته سمته ومظهره ..

« لم (١) تكن حياته كلها غارقة في النظريات أو التحرير والتجوير ، ولكنه
غرق زمناً في الحياة من حيث هي حياة بواقعها وحلوها ومرها . وطبيها
وخبيثها . ومن ذلك يوم كان يعمل في القضاء ويجوس خلال الريف والمدن
ويتصل بالحاكين والمحكومين ، ويطلع على خبايا المجتمع وخفايا الصدور
والأسر والأكواخ والقصور .. »

واستطاع توفيق الحكيم أن يعطى لنفسه صورة تختلف عن صور الكتاب والأدباء .. إنه « راهب الفكر » التائه في بيداء الحياة ، المعتزل للناس في برجه العاجي وتحت مصباحه الأخضر .

« حياتي الليلية ، حياة رحة مضئفة فاخرة بثتي الألوان ، ميدانها لا في المراقص وحانات الليل ، بل في حجرتي المنزوية ، ومقعدى الواسع قرب خزانة كتي . حياة الليل عندي ، هي حياة النفس في اتصالها النليل بما أقرأ في ساعات السكون . وفي إصغائها الطويل إلى الخواطر والأفكار التي تغمر عالمي الصامت (١) .. »

وقد رسم صورة واضحة .. لهذه الحياة الغامضة ، المليئة بالوحدة فقد أراد أن يجرب الحياة المستقرة ، غير أنه فشل في تجربته . « .. ورجعت إلى وحدتي .. تلك الوحدة الباردة التي تحيط بي من كل جانب ، فما أنا في الحقيقة دائماً سوى كوخ مقفر ، وسط صحراء من الجليد . وضعت بداخله يد المصادفة إناء يغلي ويتصاعد منه بخار . هو تلك الأفكار التي تخرج من نافذتي إلى حيث تصل أحياناً إلى جموع الناس . فإذا دخلت امرأة هذا الكوخ فمن يضمن لي ما سوف تلقيه في هذا الإناء وما يتصاعد من جوفه بعد ذلك .

« .. وهكذا أنفقت حياتي متنقلاً تائهاً ، ليس لي مكان معروف ولا عنوان دائم . فما تركت فندقاً لم أنزله ولا نزلاً لم أهبطه حتى ضجرت ذات يوم وتبرمت بهذه الحال واستنكفت أن أعيش هكذا كما تعيش الفكرة الهائمة والروح الحائر .. فأردت أن أجرب الحياة المستقرة في مسكن ثابت اخترته في بقعة جميلة من بقاع القاهرة يشرف على النيل وترى من نوافذه القلعة والأهرام وعينيت بأثائه وأعددت فيه مكتباً أنيقاً وخزانة للكتب واقتنيت سيارة . واقت بمفردى وحولى خادم وطاه وسائق ..

(١) تحت المصباح الأخضر .

فماذا حدث ؟ لم أتحمل الحياة فيه عاماً فقد كاد الخدم الثلاثة يذهبون البقية
الباقية من عقلي .

أما السائق فلا يريد أن يصغى إلى رجائي كلما طلبت إليه ألا يسرع فأنا
أبغض السرعة . إنها تمنعني من التفكير ولطالما أكدت له أني لست متعجلاً
شيئاً . ولا شيء في الوجود يستعجلني فأنا عدو الزمن والوقت . ولم أحمل
ساعة قط فالوقت عندي ليس من ذهب بل من تراب .

.. وانطلقت بمفردي حرّاً من جديد ، أنتقل في الفنادق وأطوف
بالشوارع . وأقفز إلى عربات الترام وسيارات الأتوبيس ، وأختلط بالناس
وأمتزج بالجمهير . فأحسست كأن الدم يعود حارّاً إلى عروقي . وأن قدمي قد
فرحتا بلبس الأرض من جديد . وأن فكري قد عاد إلى انطلاقه ونشاطه مع
السير الحر بالأقدام في كل مكان . وملاحظة الناس في الطرقات قد أخصبت
ذهني الذي حبس طويلاً خلف الزجاج . وجعلت أقف على بائع الأزهر ، وهو
يشوى كيزانه على عربته الصغيرة ، فأحادثه وأبسطه لا يتعجلني سائق ولا
نتظرني سيارة وأصغى إلى حديثه الطويل في ذلك الليل مع كناس الجهة
فأشترك معهما في السمر والحديث . ورأيت الكناس يسامر البائع طمعاً
في كوز والبائع لاه عنه لا تخطر له العزومة على بال ، فان الشغل شغل في
عرف التجار فشريت أنا كوزين أعطيت الكناس واحداً واستبقيت لنفسى
الآخر فدعا لي الكناس الدعوات الصادقات وجعل يأكل ويقص على مما عنده
من أحاديثه العامة البريئة اللذيذة . . .

.. من هذه الصورة ، ترى توفيق الحكيم في أهاب « رهاب الفكر » كما شاء
هو أن يرسم هذه الصورة .

وبالرغم من أن توفيق الحكيم فرنسي الأسلوب ، فإن ثقافته متنوعة بين الإنجليزية والفرنسية .

وهو يحب الجو الغربي ، المطار والسحاب ، والوطن الروحي .
ويؤمن بأرستقراطية الثقافة ولا يحب الترخص « .. وإذا الأديب قائم في المجتمع بين طبقتين ، كل منهما تجذبه بعنف ، الأولى تقول أنت للجميع لا لطبقة خاصة ، والثانية تقول له الزم مكانك بينما نحن الخاصة وإلا هبطت إلى الحضيض .

ويؤمن بالأديب الملتزم « وأن خدمة الوطن في ميدان المجتمع ليست مثله ، إنه يراها تضحية يبذلها « الأديب » الحر إذ يضع قلبه الرفيع مؤقتاً في خدمة الوطن على صورة ياباها الأدب الحر .

* * *

أدب توفيق الحكيم صورة لنفسه ، فما موقفه من المرأة والحب ! . لقد أطلق عليه لقب « عدو المرأة » ، فهل تحول عن رأيه في المرأة ، كما تحول عن بعض آرائه الأخرى « لقد تغيرت كثيراً وتنازلت عن أغلب أفكارى وآمالى لقد أرغمتني الحياة على المصانعة في أمور كثيرة (١) .. »

لقد أحب « توفيق الحكيم » في فجر شبابه .. هذه الفتاة التي روى قصتها في عودة الروح .. الفتاة التي كان يحبها الشبان الثلاثة .

هذه العاطفة التي رسمت طريقه ، ووجهته إلى قرص الشعر .. ولكن « الفتاة الأولى » .. تركت في أعماقه آثاراً ظهرت فيما بعد واضحة حين صور رأيه في المرأة والحب ..

لقد سخرت الفتاة منه ومن أصحابه ، كانوا يتقربون إليها وكانت هي تسخر منهم وتلهو بهم ، وتعبث بقلوبهم ، .. فلما صادفها شاب آخر من جيرانها أكثر وسامة وغنى .. بذلت له حبها .

(١) زهرة العمر .

هذه «العقدة» كانت أول ما صدمه في حياته العاطفية فتركت أثرها القوي باقياً ..

فاذا تحدث بعد ذلك عن المرأة بدا رأيها مظلماً متشائماً .. عبوساً .. لو^(١) خيرت ، لا أريد جنة أو ناراً من صنع المرأة . إنى أحرص كل الحرص أن أكون سيد نفسي ، وأن أصنع لنفسي نعيماً وجحماً لا تعرفهما المرأة . إن جنتي بالطبع أن تجدفها حية ولا تفاحاً ، فهي جنة هادئة متواضعة ، جنة الفكر والتأمل والخلق والإبداع . إذا دخلتها المرأة حلت فيها الفوضى وانقرطت عقود درها المنظوم ، وتحطمت تماثيلها المرمرية ، كما أن جحيمي مملوء بعذاب الشك والقلق الفكري ، وعذاب القصور عن إدراك السكال الفنى . آلام لا تفهمها المرأة كذلك ولا يمكن أن تتعرف بها ، فأنت ترى أن نفسي «منطقة مقدسة» لا أسمح لامرأة بالدخول منها ، ولقد ازدادت مع الزمن شدة في ذلك حتى رأيت أن أقصى المرأة نهائياً عن الشطر الباقي في حياتي .

.....
إنى أعيش مع شبح امرأة دائماً ، واسكن أى امرأة ، إن تلك التى سمحت لها بدخول جنتي ، هى امرأة لا كالنساء ، فانها النور بغير مصباح ، وهى قطرات الندوة بغير زهر ، هى عروس لها جسم المرأة ، وكل شيء جميل فى المرأة متدثرة فى رداء من خيالى وهن كل ما هو جميل من نفسي قد أسبغته عليها . هى ملكة جنتى التى توحى إلى بخير ما أخرج وأصنع . فالمرأة التى لها شأن فى حياتي هى كما ترى من صنع يداى ، وخلق تصويرى . «وإنى أعتقد أن أغلب من ذكرت من الكتاب والفنانين والرجال العظام ما دفعتهم إلى العمل المستج إلا نساء من صنع أنفسهم» .

(١) مجلتي .

.. ولكن هل استطاع توفيق الحكيم أن يقصى المرأة نهائياً عن الشطر
الباقى من حياته .. ، إنه قد تزوج رغم إصراره على البرج العاجى ، ولكنه
ما زال يقول .. المرأة عندى هى المرأة دائماً ، وإن كنت اليوم أكثر
شفقة بها وأشد حرصاً على عدم الإساءة (١) إليها ،

ويربط توفيق الحكيم الفن بالمرأة ، إنه يراها مصدر الفنون والآداب
ويؤمن بالهامها .. « إني إذ أتكلم عن الفن لا يسعنى إلا أن أعترف مرغماً
أن المرأة هى روح الفن ، ولو لم توجد المرأة على هذه الأرض فربما وجد
العلم ، ولكن المحقق أنه ما كان يوجد الفن . ذلك أن الإلهام الفنى نفسه ،
قد خلق على صورة امرأة . وأن لكل لون من ألوان الفن عروساً هى التى
تنثر أزهاره على الناس . ما من فنان على هذه الأرض أبدع شيئاً إلا فى ظل
امرأة ..

إن عداوتى لهذا المخلوق إن تنقطع ما دمت أخشى منه ، إن عداوتى ليست
إلا دفاعاً عن نفسى . أقرن بين المرأة كشئ يوحى بالجمال وبين المرأة كمخلوق
يريد أن يستأثر بكل شئ فى حياتنا (٢) .. ،

فاذا تحدثت عن زوجة الفنان رآها عاملاً هاماً فى حياته .. « زوجة الفنان
هى تلك التى تمنى بزوجها ولا تطالب زوجها بأن يعنى بها . هى التى تزيل
متاعب زوجها ولا تنتظر من زوجها أن يزيل متاعها . هى التى تتلقى من
زوجها همومه ولا تخبره قط بهومها . هى المخلوق الذى يعيش صامتاً صابراً
باسماً بجوار الفنان طول العمر دون أن يشعر لحظة واحدة بوقر هذا
الجوار (٣) .. ،

لكن .. هل هذا الذى يرى المرأة على هذه الصورة الممتازة الموحية

(١) مجلة الاثنين : يونيو ١٩٥٣ .

(٢) تحت شمس الفكر .

(٣) نفس المصدر .

الملهمة .. أحب ، أحب حباً قوياً جباراً ..

إنه يرى أن الحب .. ربما كان هو الشيء الوحيد الجميل الذى يعيش به
ومن أجله نحن البشر .. « .. غير أنه فى فترات عاصفة يقول أن الحب فى هذا
العالم عضو ربما تمكن العلم الحديث من بتره واستئصاله ، دون أن تخسر
الإنسانية شيئاً كثيراً .. »

فاذا أردنا أن يتجاوز الشباب الباكر بأحاسيسه وعواطفه هل يمكن أن
تعطينا قصة « عصفور من الشرق » صورة الحب ، أم أن هذه الصورة تبدو
رائعة فى « الرباط المقدس .. »

لست أدري ، ولكنى أبحث عن الحب فى حياة الكاتب فلا أجد إلا
هذه العبارات الغامضة الحزينة المحرومة « .. إنى أحب الحب ، وإنك لتعرف
أن للحب مقاماً كبيراً عندى فى الحياة ، وفى كل حياة ، وربما كان الحب
هو الشيء الوحيد الجميل الذى نعيش به ومن أجله نحن البشر .. آه .. لو كان
القدر أعطانى هذه المنحة لحظة واحدة ! وجعائى أجد أحداً يحبنى حقيقة ، مرة
واحدة ، أنا الذى اعتقد طويلاً أن عطاء الرجال هم عطاء العواطف ، وأقوياء
الرجال هم أقوياء العواطف ، وأن الذى لا يعرف ولا يستطيع أن يحب
إنساناً لن يعرف ولن يستطيع أن يحب الإنسانية (١) .. »

أى صرخة داوية هذه ، أى نفس هذه المحرومة المشوقة . ولكن هل
حقاً أن توفيق الحكيم حزين ذلك الحزن الممض الذى تصوره بعض كلماته ..
« لا تذكرنى بالغد ، إنى الآن أعيش . حسى هذا . أعيش يوماً
فى مونتارتر ، فردوس الفن .. الذى سأفقدته يوماً . سوف أذكره مع
الحشرات .. أما الآن فانى أقطن فى ناحية أخرى من الحى . شأتى فى كل شهر
ما أحلى التنقل والحرية . يا جان ..

لم تنح لى لحظة من لحظات حياتى أن أحزن لحزن الطبيعة أو أبسم لابتسامها
فإن ما عندى من أزمات داخلية شغل قلبى دائماً عن الطبيعة . إن عيناى
مصوبتان دائماً إلى أعماق قلبى ..

لقد جاوزت الأربعين وما أبصر بعد فى الأفق طيف واحه موروقة فى
صحراء حياتى المحرقة . ما قيمة الشهرة بغير سعادة . وفيم الأدب والفن بغير
هناء ..

يقول العقاد أن توفيق الحكيم متردد بين عتبة الصومعة وعتبة
الحياة .. ، ويصف سيد قطب طبيعة توفيق الحكيم بأنها « تشفق من الحل
الحاسم وتنفر من الوضع الصريح . إن الشك فى طبيعته ، والقلق الدفين فى
نفسه . وهو معنى بالذهن الإنسانى المجرد ، يوغل فى تأملاته ويسبح فى فروضه
ويثير مشكلاته ويتابع ومضاته .. »

* * *

هل نستطيع من هذه اللسات أن نرسم صورة توفيق الحكيم ..
أعتقد أن هناك خيط آخر هو الصوفية ، فما صلتها بتوفيق . هل كان من
المتوقع أن يتجه اتجاهها روحياً صوفياً خالصاً . ثم غاب عليه طابع المفكر ..
ول محمد مندور إنه « مفكر بعقله لا بحواسه . يعالج المسائل علاج من لم
تمسه عن قرب » ، فالى أى حد يبدو هذا فى إنتاجه ؟

إن « توفيق الحكيم » يضع أمامنا ضوءاً جديداً لشخصيته « طفولتى مملوءة
بالجرائب منذ ولدت . وحتى ساعة ولدت قيل لى لم أبك مثل سائر الأطفال
خسبوني نزلت ميتاً ، وكان الوقت ليلا فنبذوني للاعتناء بالأم المريضة ،
لما عادوا إلى وجدوني فى أتم صحة ، ساكناً صامتاً ، أنظر فى عجب وسرور
لى نور الصباح . أترانى أحبت النور من النظرة الأولى (١) ..

(١) تحت المصباح الاخضر .

« أعجب ما في حياة الإنسان أنها ليست حياة واحدة ، إنها سلسلة حيوات تتابع في حلقات العمر الطويل . نخلة الطفولة لها حياتها المستقلة بجوها السحري واتجاهها الملائكي وحلقة الصبا والشباب لها حياتها المستقلة بجوها الشعري واتجاهها المثالي .

وحلقة الرجولة لها حياتها المستقلة بجوها التأملی واتجاهها الواقعي وحلقة الكهولة والشيخوخة لها حياتها المستقلة باتجاهها الفاسفي . وهذه الحلقات منفصلة في أكثر الأحيان عن الأخرى . انفصالا ملحوظاً فإن ما كنت تعيشه في حلقة لا يصلح لك في حلقة أخرى ، فالجمال الذي كان يفتك في الشباب لا يؤثر فيك وأنت في الرجولة . والكتاب الذي يثقل عليك في الصبا قد يسحرك في الكهولة (١) ..

هذا رأى « توفيق الحكيم » في أطوار حياته ، .. « إنه (٢) لم يلق كثيراً بشخصه في غمرة الناس . ولكنه كان يلقى إليهم دائماً بفكرة يسعى بينهم ويؤثر في نفوسهم . كان شأنة شأن ذلك الجالس على الشط يلقى الفتات إلى السمك وينظر إليها يجتمع عليه ويفترق .. »

* * *

توفيق الحكيم فنان يؤمن « بأن الفنان خلق ليخلق ومهما تكن الأسباب فان السبب الأكبر هو أن قبساً حل فيه من صفة الخالق .. »
ولكنه يرى أن الأدب قد فشل تماماً في توجيه الناس والأمم والأجيال وأن أثره لم يعد أكثر من أثر السيجارة .. فان كانت أفادت أحداً فقد أفادت هو .. إن الأدب لم يحول الإنسانية عن الشر ولم يدفعها إلى الخير .. »

(١) عصا الحكيم (٢) الرباط المقدس .

عباس محمود العقاد



بدأ حياته بالصراع ، فهاجم شوقي وحافظ واشترك مع المازني في إنشاء « الديوان » ، ثم مضى يصارع في السياسة في عنف وقوة عشرين عاما ، كان قلبه أمضى الأقلام وأشدّها جراً وحماسة ، وكانت خصومته أقوى شماساً وعناداً وقسوة .

ويرى العقاد بعد مضي أكثر من ثلاثين عاما أن حملته الأولى على الأدب القديم كان لها أثرها القوي .. (١) وقد أنكرنا أصنام الأدب لأننا أنكرنا عملهم ، وطلبنا عملاً أصح منه وأوفى . فأصلحناهم هم أنفسهم ، وحوّلناهم إلى وجهة غير وجهتهم وجعلناهم يطرقون أبواب الفنون الحية بعد أن كان كلامهم كله أو أكثره مقصوراً على المديح والثناء وشكوى الزمان والأخوان ، وفتحنا أبواب النقد القديم بعد أن كان التعرض لشاعر كأمريء القيس أو أبي الطيب

(١) العقاد — الأساس — ١٩ — ١٠ — ١٩٥١

كفرا أو جنايه تعاب كما تعاب الجنايه على الشرائع والقوانين ..

إنه حين يتصور كيف كان منذ ثلاثين عاماً يعجب لهذه المسافات في عالم الفكر والروح ، لو تمثلت مكاناً منظوراً ، لأخذ المرأ رأسه بيديه من الدوار ، كم رأى ، كم مذهب . كم خاطر . كم وسواس . كم محنة . كم مراجعة . كم زلزال يتضعع له الكيان ، وتميد معه الدعائم والأركان .

استهل حياته الأدبية قارئاً : وقد اختار أساتذته بنفسه ولم يفرضهم عليه أحد ، لأنهم كانوا جميعاً مؤلفين مشهود لهم برسوخ القدم في صناعة التأليف أقر منها من أشاء وأعرض عن أشاء وأطلبهم حين أريد وحيث أريد ... وتحت سماء أسوان الصافية ، بدأت ناس العقاد تتفتح ، وإن كان المرض الذى ألم به فى مطلع الشباب قد أنشأ فيه طبيعة الاعتكاف وأفسح له المجال للدراسة والقراءة والتأمل ... وربما كان من أثره « أن (١) استقر فى قلب العقاد حب الحياة والتشيث بها والكفاح فى سبيلها ، فإذا واتاه الظفر فى عراك المرض ازداد تعلقاً بالحياة وغلبه فى التمتع بأطايها ... وكان من عقى ذلك الظفر أن أورثه زهواً وعزة وثقة بالنفس ورفاهه شعور بالكرامة وأزكى بين جنييه نزعة المغالبة والمصاولة والاصرار ...

وهو يقرأ ثلاث أنواع من الكتب « ما يبحث (٢) فى الأدب والوصف ، وما يتناول علم ما وراء الطبيعة والحياة الأخرى — إن كان هناك حياة أخرى ، وعلم الحيوان وما يتصل به فيما يختص بحياة الحشرات . والحيوان وطبائعها وغرائزها فهى بمثابة مسودة لحياة الانسان . وأنا أقرأ حوالى

(١) محمود تيسور « ملاح و غصون » (٢) الصور : فبراير ١٩٤٤

الساعتين يومياً . ومنذ سنوات كنت أقرأ سبع أو ثمان ساعات في كل يوم ، ويتراوح عدد الكتب التي أقرأها كل شهر بين خمسة وسبعة ، وقد لا أقرأ من الكتاب غير فصل واحد ، ثم أضعه في مكتبتى وربما عدت إليه فيما بعد ... »
وقد يقرأ العقاد كتباً كثيرة لا يقصد الكتابة في موضوعها على الإطلاق إذ أن القراءة هي التي تعطيه دون غيرها « أكثر (١) من حياة واحدة في مدى عمر الانسان الواحد لأنها تزيد هذه الحياة من ناحيه العمق ، وإن كانت لا تطيلها بمقادير الحساب . لا أحب الكتب لأنى زاهد في الحياة . ولكنى أحب الكتب لأن حياة واحدة لا تكفينى .. »

* * *

وفي الصبا الباكر ، رسم العقاد صورة حياته على أحد ثلاث شخصيات قائد عسكري أو ناسك صوفي ، أو عالم زراعى . ثم تبلورت هذه الصور الثلاث حين وجد القلم وبدأ يكتب ..

« ... كنت أقرأ كل ما يقع في يدي من الكتب الأدبية والدينية ومعظمها من الطبقات القديمة . وقرأت في مناقب الصالحين عن الأولياء الذين يمشون فوق الماء والأولياء الذين يسخرون الريح ولا يحترقون بالنار ، فأردت أن أكون مثلهم ، وترددت على المسجد في أوقات الصلاة وكان مؤذن المسجد القريب من بيتنا رجلاً جميل الصوت . أسمعته في الفجر أحياناً ، وأسمع القصائد التي كان ينشدها ... وكان شعر البرعى لا يعجبني ، فلماذا لا أنشد مع المؤذن قصيدة من نظمى ، ثم يقول « ... لا تزال صناعة القلم عندي شيء من صناعة السيف ولا يزال بحث الدين وما وراء الطبيعة عندي شاغلاً لا يعوقني عنه شاغل من شؤون السياسة أو شؤون المعيشة » .. وتمنى العقاد « الأدب » لأنه تمنى التعبير عن النفس « لأن التعبير عن النفس يجتمع فيه عندي تحقيق

وجودها واستكناه حقيقتها وحقيقة ما حولها . وليس فوق هذا المطلب من مطلب رفيع يتطلع إليه موجود شاعر بوجوده (١) .

واشتغل العقاد بالتدريس ، ثم بالصحافة ثم انصرف إلى الأدب الصرف وكتب المقالة والقصة والقصيدة . ولكنه يبلغ غاية قوته في النثر وأدب المقالة التحليلية على وجه أخص .

يقول زكي مبارك « هو كاتب أقوى منه شاعراً لأن ذهنه ارتاض على التعبير بالترسل أكثر مما ارتاض على التعبير بالقريض .

العقاد السياسي يرمي ويرمي ويظلم ويظلم في كل وقت فهو من أبناء السماء عند قوم ومن أبناء الأرض عند آخرين أما العقاد الكاتب الأدبي فهو من الطبقة الأولى بشهادة الجميع .

والعقاد الناقد لا ينحرف عن القصد إلا في حال واحد . حال الحكم على من يعاديه من المعاصرين . أما حكمة على المفكرين الذين بعد عهدهم في التاريخ فهو غاية في العدل والساد .. »

وقد وصف العقاد بأنه يحب العزلة ويحرص عليها ، وهو يرى أن فلسفة حياته تفرض عليه العزلة في بعض الأوقات « و (٢) ليس معنى العزلة أنني أحارب الناس أو أنني لا أباد لهم العاطفة والشعور فاني أحب مسألة الناس جهدي ولا أستبيح لنفسي أن أبادهم بما يسوء . ولكني لا أبيع لاحد أن يستخف بالاساءة إلى ولا سيما الاساءة التي على اعتزاز بقوة لا تدفع ، واعتزاز بطغيان تعنوله الجبابة فمثل هذا المسيء لا ادعه في طغيانه دون أن يندم عليه .. » وهو أحياناً لا يغادر داره أسبوعاً كاملاً « لست أنسى فزع أديب ذارني يوماً وعلم أنني لم أبرح الدار منذ أسبوع فيها له الأمر كأنه يسمع بخارقة من خوارق الطبيعة . فقلت له لا تعجب أنها ورائة من أبوين ، يؤكد لها الزمن الذي

(١) الرسالة - أميني - أول ديسمبر ١٩٤١ . (٢) الرسالة ١٣ يناير ١٩٤١ .

أقول اليوم أنتى لولا رياضة المشى التى تعودتها لما خطر لى أن أبرح المنزل أياماً بل أسابيع .

ولذلك سبب منى وسبب من أحوال العصر الذى نعيش فيه . أما السبب الذى منى فبعضه يرجع إلى حب العزلة التى نشأت عليها وورثتها من أبوى . وبعضها يرجع إلى شعورى بالقراءة التى تعيننى . فأنى أشعر بأننى لا أقرأ سطوراً على ورق ولكننى أحيا فى تلك الأوراق بين أحياء .

* * *

وبالرغم من أن العقاد كره كتابه «اليوميات» وقال أن أمرين يباعدان يده وبينهما كلاهما حقيقى بالاثبات لأنهما أيضاً من ظواهر النفسيات ، وظواهر الفترة التى عشت فيها أول الأمرين أنتى غير مطبوع على التوجه إلى محراب الاعتراف لأنه ضرب من ضروب الاستغفار لا أستريح إليه أو لأننى أدخر لنفسي خفاياها أو أنزهها عن البوح بها لآحد غير مستثن من ذلك إلا القليل .

أقول بالرغم من هذا فقد كتب العقاد اعترافاته على عدة صور وفصول يمكن أن تعطينا ملاحظة وسرائره واضحة إلى حد كبير .

« (١) أول ما أعترف به إننى مطبوع على الانطواء ، وإننى مع هذا خل بحمد الله من العقد النفسية الشائعة بين الأكثرين من اندادى فى السن ونظرائى فى العمل وشركائى فى العصر الذى نعيش فيه .

لقد ورثت طبيعة الانطواء من أبى وأمى . فلا أمل الوحدة وأن طالت بغير قراء ، ولا تسلية . ولا أزال اقضى الأيام على حده حيث يتعذر على الآخرين قضاء الساعات والحظات .

(١) الرسالة — ١٧ نوفمبر ١٩٤٧

ويغلب على المنطويين أنهم لا يألفون الناس بسهولة، وأعترف بأنى واحد من المنطويين فى هذه الحصلة . ونكتنى اعترف كذلك بأن الالفه التى تصح يبنى وبين أحد الاخوان لا تقطع ولا تعرض للقطيعة باختيارى وقد يتعدى الأمر ألفه الإخوان إلى ألفه غيرهم من الاحياء والاشياء .
وأعترف إلى جانب هذا بأننى لا أعرف التوسط بين الحب والكراهيه ولا أريد أن أعرفه .

وقد يبلغ من ضعف ارادتى أحيانا أن احتال على نفسى ، كأنها شخص آخر اطلعه على بعض مرادى واخفى عنه بعضه .

وأعترف بأنى من الزهدين فى البذخ والطعام . ولكنى اعترف بأنه زهد لا فاضل لى فيه لأنه يكلفنى مشقه المغالبه والمقاومه .

واعترف بأن عنان النفس يفلت من يدي فى حالات كثيره ولكنها حالات أراجعها أحيانا فلا نسف لافلاته ، بل أرى أن ضرر الإطلاق اخف من ضرر الشد والكظم وثنى العنان .

.. لا أطالب أحداً بحميل لأن جميلى لنفسى سابق لكل جميل ، ولكنى أعترف كذلك بأنى لا أطيق التواضع الكاذب الذى هو رياء من المتكلم وغفلة فى السامع .

وأعترف بأنى احب الشهرة والخلود . ولكنى أعترف كذلك بأنى لا أطلبهما بشئ يهبط من كرامتى^(١) .

.

اننى من أعجز الناس عن رفع حاجز واحد يقوم بينى وبين انسان ، ولا سيما حاجز الكلفة والأغراض فاذا تلقانى انسان ، بمثل هذا الحاجز فلا اقتراب بينى وبينه أبد الدهر . وليس أشق على نفسى من الزانى التى يزداف

(١) الهلال - يونيو ١٩٥١

بها بعضهم لكسب صداقة أو تمكين علاقة . . .

أننى أسى الظن بالناس لأننى أحسن الظن بهم .

العاده قوية السلطان على سليقتى وخلقى لا تعصمنى منها إلا الثورة النفسية .

هذه ملامح الصورة النفسية وخطوطها الرئيسية كما رسمها فى أكثر من موضع من كتاباته ، وهى فى مجموعها تعطى صورة رجل كونه تصارييف الأيام ، ومنحته الخبره الطويله ، وأتاح له الاتصال بمختلف البيئات الادبيه والسياسيه طبيعة متعددة الجوانب .

* * *

وهو معجب فى الأفراد الذين عاصرهم برجلين ، غاية الإعجاب أما أحدهما فهو محمد عبده . . . « أخق أن أعجبنى بهذا الرجل العظيم كان من أكبر المؤثرات فى توجيه حياتى العام وتزويدى بالقدوة الصالحة فى الاستقلال بالراى والمجاهره بالعقيدة ولو ذهب فى الأمر مذهب التحدى والمخاطره وقله المبالاه بما يكون . . . »

والثانى هو سعد زغلول .

* * *

ومذهبه فى الأدب ، ورأيه فى المراه ، كلاهما غاية فى الاستواء فهو يكره الأدب المكشوف ويحاربه . ولا يحامل المراه فى تملق رضاها بالموافقة على رأيها أو هواها .

رجع عن ترجمة حديقه ابيقور لانا تول فرانس « لأنه بدا له أن أدب الاستخفاف الذى يدور عليه ذلك الكتاب ايس بالأدب النافع » كما رفض ترجمة قصة « لادى شاترلى » لأنها من الأدب المكشوف « الذى نحاربه أشد المحاربة .. »

ويقول عن السكاتبه مى وكان بينه وبينها عاطفة كان لها أبعاد الأثر فى حياته

الأدبية ولعلها كانت مصدر الصراع بينه وبين مصطفى صادق الرافعي وغيره ..
« كنا تبادل الآراء كثيراً ، ونختلف كثيراً ، ولا نستغرب هذا الخلاف ، ولا
نكف عن تبادل الآراء ، لأن الخلاف بين كل أنثى وفيه لطبعها وكل رجل
وفي لطبعه أمر من البدهاة بمكان ، فهم ينظرون حواء إلى حقائق الدنيا وهو
ينظر بعين آدم وكلاهما مخلص في خلافه ومستفيد ، ويصور موقفه من المراه
في « مطالعات » .. أننا في عصر يميل إلى محاربة المراه فيما تكتب من آراء
فلسفية ، كانت أو اجتماعية لأن أداب الأنديّة توشك أن تبغى أداب الكتابة
ومباحث الفكر ، فيحبس الكاتب قلبه عن كل ما يغضب المراه ولا يوافق
هواها ، كما يحبس لسانه عن ذلك في أنديّه الانس ومجالس السمر . ويكتب
حين يبحث في مسائل الاجتماع بقلم السمر الطريف لا بقلم الناقد الأمين »

... وهذا غاية الاستقامة في الرأي ، والنزاهة الفكرية عن الجماله
ومبعث هذا أن العقاد يؤمن برايه ويقدر مكانة أدبه

« .. ولقد تعبت كثيراً في تحصيل الأدب والثقافة ، ولكنني اعترف
بعد هذا التعب كله بقصوري عن الغاية التي رسمتها أمامي في مستقبل صباي ، فلم
أبلغ بعد غايه ولا قريباً من غايته .. »
وتلك صورة الطموح ، في نفس الكاتب الذي وصل إلى ذروه الشهرة
والتبريز .

* * *

لعل ابرز حادثين في حياة العقاد : هما سجنه سنة ١٩٣٤ ويبدو أن
السجن عدل من اتجاهه السياسي وكان حافزه على الخطوه التي تلت ذلك حينما
تحرر من الحزبيه بعد سنوات

وأن كان أ كسبه مزيداً من الاعتماد والوقار ، يصور ذلك قوله :
لبثت جنين السجين تسعه أشهر وها أنا في ساحة المجد أولد

وفي كل يوم يولد المرأ ذو الحجا وفي كل يوم ذو الجهالة يلحد
والحادث الثاني البعيد الاثر في حياته ، وصول الألمان إلى العلين وهجرته
إلى السودان . وكان يحمل في أيام الحرب على الألمان حملات عنيفة وألف
عن هتلر كتابا تناوله فيه تناولا يتفق مع نزعته الديمقراطية .

لم تطل هجرة العقاد في السودان ولكنه خسر منها كثيرا . خسر الكثير
من ذخائره الأدبية الخالصة التي لم يكن بدمن اتلافها

« في هذا اليوم بعينه — أى عيد ميلاده — وصلت جيوش روميل
إلى العلين وأوشكت أن تعبرها إلى طريق العامرية فالقاهرة والاسكندرية
وهو الهوان على أيدي أناس هم أخبر الناس بالهوان ولا فرار من الموت أن
وجب . ولكن البقاء للهوان لإخلال بكل واجب يحرص عليه الانسان

وليس هذا افجع ما في الصفقة الفاجعة بل افجع منها الليلة التي قبلها .
أوهى ليلة المذبحة كما سمينها ، لأنها جرأة على الماضي تهون معها الجرأه على
المستقبل أو على المجهول .

كل ما أتركه بعدى لا أباليه . الكتب يصنع الله بها ما يشاء وما اكنتم
القارى اننى على خطوة من أحراقها في كثير من الأوقات غضبا على تكاليف
المعرفة حيث يسعد الجاهل بغير تكليف وماذا اترك غير الكتب مما أباليه
أن كنت اترك الكتب ولا أباليها . هباء أو كالهباء ، الاوراقا متفرقات
فيها ودائع العمر التي يموت عنها الانسان ولا تسخو نفسه بان تموت قبله .

وهى لا تنقل إلى حيث تفتح وتقرأ في مدخل كل أرض مطروقة ، وهى
لا تودع عند احد كائنا من كان . فلا موئل أكرم من التزيق ثم نار الحريق ..
وانقضت ساعتان قبل تمزيق الورقة الأولى ولم تنقض الا دقائق قبل تمزيق
الورقة الأخيرة .

وانجلت الثورة عن كومه من الورق كل قطعه منها موصوله بعرق ممزق
وشعل من النار لم تكن من قديم عهدها الاشعلا من النار ولكنها عادت
إلى رماد.

وبصور العقاد نفسه على قفة الخسین فيقول « من المحقق أو الراجح في
جميع الأعمار أن الخسین نهاية السكسب أو التحصيل من الحياة ، ليس بعدها
ما ياخذ الانسان من الدنيا ويضيفه إلى تكوين عقله أو جسمه . ولكنه
لا يزال بعدها يعطى الكثير ويفقد الكثير . . . »

فاذا بلغ قفه الستين صور مدى التحول الذى أكسبه هذا السن (١)
.. زادت قدرتي على البحث والدراسة . ونقصت قدرتي على مواصلة الكتابه
والقراءة . ولكنني عوضت هذا النقص بازدياد المراه على الكتابه وازدياد
الخبرة بالتقاط أصعب الفوائد من ايسر القراءات .

زادت حماستي لما أعتقد من الآراء ، ونقصت حدتي في المخاصمة عليها لقلة
المبالاة باقناع من لا يذعن للرأى والدليل .

لم تنقض رغبتى في طيبات الحياة ولكنني اكتسبت صبراً على ترك
ما لا بد من تركه .

وارتفع عندي مقياس الجمال . كان ما يعجبني قبل عشر سنين ، لا يعجبني
الآن . فلست أشتهي منه أكثر مما أطيق .

وكنيت قبل عشرين سنة كما أنا الآن قليل الرجاء في خير بنى الإنسان .
ولكن فلسفة الشعور هنا قد تحولت إلى فلسفة العمل .

كنت أحب الحياة كعشيقه تخدعني بزيتها الصادقة وزيتها الكاذبة
فأصبحت أحبا كزوجة أعرف عيوبها وتعرف عيوبى . ولا أجهل ما تبديه
من زينة وما تخفيه من قبح ودماة .

(١) — المصور : اغسطس ١٩٤٩ .

فاذا أردنا أن نتعرف سرائر حياة العقاد الوجدانية تيسر لنا ذلك على أوسع نطاق وأوفاه .

« .. إن الإنسان لا يجد نفسه في شيء كما يجدها في الحب (١) . وأنه لا يعرف ما فيها من قسوة وضعف ومن عطف وجود ومن رحمة وقسوة ومن خفايا وظواهر ، ومن فجعة وضحك . ومن حكمة وحمافة ومن إنسانية وحيوانية ، كما يعرف ذلك جميعه في الحب . فالحب ومعرفة الناس صنوان .. » وهو يصور الحب تصوير العارف الخبير « .. إن الرجل يعشق الأثني في مبدأ الأمر لأنها امرأة بعينها . امرأة بصفات الشخصية ، وخلالها التي تتميز بها بين سائر النساء ، ولكنه إذا أوغل في عشقها ، وانغمس فيه ، أحبا لأنها المرأة التي تمثل فيها الأنوثة بحذافيرها ، ويجمع فيها صفات حواء وجميع بناتها . فهي تثير فيه كل ما تثيره الأنوثة من شعور الحياة .

إن الأنوثة تثير فيه شعور القوة وشعور الجلال وشعور الإنسان كله وشعور الحيوان كله ، بل تثير فيه حتى الشعور بما وراء الطبيعة من آراء موهوبة ، ومن أغوار لا يسبر مداها في النور والظلام (٢) .. »



ويصور فلسفة الحب في قوله « يجمع الحب بين اثنين لا يخطر على البال أنهما يجتمعان . ويتكرر الحب في حياة الإنسان الواحد حتى ليكون المحبوب اليوم على نقيض المحبوب بالأمس في معظم المزايا ومعظم الصفات . ويتقارب البعيدان ويتباعد القريبان ، ويتجدد القلبان بين آونة وأخرى كأنهما من طبيعة الجان .

وخلاصة التجارب كلها في الحب : إنك لا تحب حين تختار ، ولا تختار

(١) ويصف الحب في صورة أخرى (الحب شاغل يلهم النفس بأحد من الناس فيبدأ الحب متى امتلأت النفس بهذا الشاغل وإن لم تقع المشاهدة بالعيان) .
(٢) هذه الشجرة

حين تحب . وأنتا مع القضاء والقدر حين نولد وحين نحب وحين نموت .. »



وقصة سارة تعطينا صورة للعقاد العاشق المحب في مختلف صور رضاه وغضبه ، وقوته وضعفه ، .. هذه الصورة تبدو في أنه « قليل المرح فيروقه من المرأة أن تكون مرحة بغير تكلف ولا مبالغة . ويسمى المرح الذي يزين المرأة ويشوق الرجل مرحاً موقعاً تشبهاً له بالغناء الذي ينطلق انطلاقاً ويقبض انبعثاً ولكنه يقف حينما يحسن الوقوف ويسكن حينما يطيب منه السكون .

وهو يحب من المرأة الزينة التي تغرى من يبصرها إغراء لا يخفى . وهو يحب المرأة التي تدرك الفساحة ويكره أن تتخذ من فساحتها صناعة . وهو يحب ربة البيت التي تكون أول خادمة فيه لأنها سيدهته الوحيدة ، ويحتقر المرأة التي تأنف من تلويث يديها في مطبخها .. »

ويقتهى من ذلك إلى أنه « إذا ميز الرجل المرأة بين جميع النساء فذلك هو الحب . وإذا أصبح النساء جميعاً لا يفرق بين الرجل ما تعنيه امرأة واحدة فذلك هو الحب . وإذا ميز الرجل المرأة لأنها أجمل النساء ، ولا لأنها أزكى النساء ، ولا لأنها أوفى النساء ، ولا لأنها أولى النساء بالحب ولكن لأنها هي التي يحاسنها ويعيوبها فذلك هو الحب ... »

وفي حياة العقاد أكثر من حب وأكثر من ساره ... حتى بعد أن ارتفع السن .

ففي سنة ١٩٤٢ عند ما عاد من السودان ، نشر قصيدة في الرسالة^(١) راعى عنوانها « عدنا والتقينا »

(١) أغسطس ١٩٤٢

يا فتاتي يا حياتي .

لا تراعى بعد هذا من فراق وافوت .

قدر الله كفيف لك في ماضى وات .

كلما فرق شملينا دعانا فالتقينا ،

ومع ذلك فإن العقد قد عاش حتى بلغ هذا السن دون أن يتزوج ، وله في ذلك رأى أعلنه منذ عشرين عاماً^(١) . ولا زال مقبلاً عليه لو كنت في الريف ، أو كانت صناعتى غير الأدب لتزوجت . ولكننى الآن لا أستطيع الزواج لأنى أوطن نفسى دائماً على أن أواجه كل نوع من أنواع المعيشة واجازف بكل شيء . ولا أبالى بالمستقبل . . .

* * *

وبعد فالعقد تاريخ طويل يمتد في الأدب العربى المعاصر منذ ١٩١١ إلى اليوم وهو يمثل للخلود في فترته الأخيرة (سنة ١٩٣٩) بعد ما سكن الصراع الحزائى وبدا العقد يدخل باب الأدب الخالص . على أن هذا لا يعنى أنكار أثاره من قبل ، ولكن الاتجاه الاخير الذى أخذ صورة الاستقرار يمثل العقد بعدما تبلورت أفكاره واستقر هدفه وتوضح منهجه . لقد تحول العقد وتنقل في هذه الفترة ، بين الكتابه السياسيه والكتابه الأدبيه والنقد والتراجم وتلخيص الكتب ودارسه شخصيات سياسيه كسعد وشاعره كابن الرومى والمتمى ، ثم بدأ يتصل بالتراث الاسلامى فكتب عبقريات محمد وعمر وأبو بكر وعلى والحسين وبلال ، وكتب « الله » « وفلسفة القرآن » .

(١) مجلة كل شيء : أغسطس ١٩٢٥

وهنا استقر العقاد على طابعه الاصيل « كتابه التراجم النفسية » ،
ثقف العقاد نفسه ، وقدمته السياسية إلى الجماهير في صورة ضخمة ، وظل
فترة طويلة دعامة من دعائم الكتابات الصحفية الحزبية ، ولم يحل هذا التبرير
في ميدان السياسة ، من أنه يزاول العقاد الأدب فيكتب فيه يوما كل
أسبوع ، ويصدر بين حين وحين كتاب من مؤلفاته ، أو مجموعه من
مقالاته (١) .

حتى إذا توقف الصراع السياسي الداخلي أبان الحرب العالمية الثانية ،
انتج أجود آيات أدبه . . . كان النشاط السياسي يحول بيني وبين الفراغ
للتأليف والتدوين . فلما حيل بيني وبين هذا النشاط في وقت من الأوقات
كانت النعمة أبرك من النعمة ، فوجدت فراغا من الوقت لتأليف الكتب
لم يكن ميسورا في أبان العراك . وظهر لي نحو عشرين كتابا في شتى
الموضوعات .

* * *

وحين يتصل بتاريخ العقاد الأدبي بالسياسة يبدو في صورة « السياسة »
نفسها ، وهي صراع وخصومة ونقد وهجاء . . قد يصل غاية الشوط في
العنف والشهاس . وقد تبدو في صورته المتناقضات .

أما حين يخلص للأدب للصرف فإنه يبدو غاية في القوة والاستقامة
والوضوح .

وختام لقول أنه ولد في ٢٨ يونيو ١٨٨٩ في أسوان وكتب أول مقال

(١) ساعات بين الكتب ، مطالعات ، مراجعات

له ١٩٠٤ في جريدة الظاهر واشتغل بالتدريس مع المازني وفريد
أبو حديد عام ١٩١٥

وقد وصف أمانيه (١٩٥٤) وهو في سن الخامسة والستين بقوله :
« أما كل ما أطلبه فلم أبلغه ولا اعتقد أن أحداً بلغ كل ما طلب .
كان هدفي في الحياة أن أتولى القيادة العسكرية ثم تحولت إلى طلب العلوم
الزراعية ثم تبين لي من مراجعته نفس مراجعته دقيقة أن وراء الطموح
إلى القيادة العسكرية وإلى العلوم باعثاً واحداً هو حب الأدب » .

مجلد حسین هیگل



هذا كاتب وأديب اختطفته السياسة منذ عشر سنوات ولم يسترده الأدب مرة أخرى ، سوى أنه أذاع مذكراته « السياسية » في خلال هذه الفترة (١) . وكاد أن ينطوى في تاريخ الأدب المعاصر الأديب الذي عرف بالاسهاب والمقالات المطولة في صدر « السياسة الأسبوعية » زمنا .

فقد بدأ حياته بالمحاماة ثم أحب الأدب واتجه إلى الصحافة حينما فاستقر بها طويلا ، وأنتج خلال هذه الفترة آثاره الأدبية المعروفة الآن ، ثم انصرف إلى التاريخ ، وأغرم بالتاريخ الاسلامي بوجه خاص ، واتيح له خلال هذه الفترة أن يجلي تاريخ « الرسول » وأن يوغل في دراسة الدولة الاسلامية وأبطالها .

ورجاء توقف ، فقد انتقل من الصحافة إلى السياسة ، واتيح له أن يرأس مجلس الشيوخ بعد أن كان يرأس تحرير صحيفة يومية . . .

(١) وقد أصدر في الشهر الماضي قصة جديدة (هكذا خلقت) .

واستنزفت السياسة بصراعها ومناوراتها ومتاعها قواه كلها ، فتوقفت آثاره التي كان قد بدأها ، عن الاتمام ، فلم يكتب ولم يكمل « الشرق الجديد » ولا تاريخ السيرة .

ولكن « هيكلم » يريد أن يقول لنا في أكثر من مناسبة أنه لم يكن أديباً ولذلك فلا ضير عليه أن ينصرف عن الأدب يوماً .

« ثم ماذا (١) تراني يا صديق أنتجت ، دعك من فصول يومية تكتب في الصحف فأنت أعرف الناس بتفاهة ما ينطق من مجهود في هذه الفصول . دعك من العمل في حزب سياسي فأنت أدرى بالسياسة المصرية . ماهي وما مبلغ الجهد فيها . دعك من هذين وانظر وإياي فيما أنتجت انه لا شيء أو لا يكاد يكون شيئاً . وأنا رجل بيني وبين الخامسة والأربعين شهور .

... وما أضيق بأسلوبى ولم أتخذ الأدب يوماً صناعة ولا أنا توفرت على دراسة الأدب . إنما أنا رجل درس القانون ودرس الاقتصاد والسياسة ومال إلى قراءة الفلسفة والأدب لا إلى دراستهما دراسة انقطاع وتمحيض . وقد كان هذا ارهاصاً بأن هيكلم يعود مرة أخرى إلى فنه الأول : الاقتصاد والقانون ... وقد كان !

ولكن هيكلم قد ترك آثاراً قوية في الأدب العربي المعاصر ، لا يمكن أن ننسى وكان أبرز تحول في تاريخه الأدب هو دراسة السيرة والتاريخ الاسلامى كان هيكلم « حفيماً » بالتاريخ منذ بدأ حياته ، فقد تناول الكثير من رجال مصر ، كما تناول جان جاك روسو ، وبعض كتاب أوربا ... بالبحث والدرس ثم تبلور هذا الاتجاه في دراسة للتاريخ الاسلامى كان « فتاحها كتاب » أميل درمنجم ، عن محمد فقد لفت نظره هذا الكتاب ، فاذا به لجأة يواجه قراءه في السياسة الاسبوعية في شتاء سنة ١٩٣٢ . بفصول جعل عنوانها « حياة محمد

(١) ملحق السياسة (يونية ١٩٣٣) .

لأميل درمنجم : عرض وتعليق : محمد حسين هيكل ، وقد وصف هذا الاتجاه في مقدمة كتاب « حياة محمد » بقوله « بدأت أراجع تاريخ محمد ، وأعيد النظر في سيرة ابن هشام ومعاذى الواقدي ، وعدت إلى كتاب سيدامير علي « روح الاسلام » ثم حرصت على أن أقرأ ما كتب بعض المستشرقين ، فقرأت كتاب درمنجم وكتاب واشنطن أرفنج . ثم انتهزت فرصه وجودي في الاقصر شتاء ١٩٣٢ وبدأت أكتب . ولقد ترددت يومئذ أن أجعل البحث الذي أطلع به قرائي من وضعي أنا خيفه ماقد يقوم به أنصار الجود والمؤمنون بالخرافات من ضجة تفسد على ما أريد » .

ولا شك أن كتاب هيكل عن حياة محمد ، كان تحولاً واضحاً في تاريخه الأدبي بل في تاريخ الأدب العربي المعاصر كله فالرجل الذي عكف منذ شبابه على دراسة آثار الأدب الأوربي ، والذي كان يدعو بقوة إلى الحضارة الأوربية وآثارها ، يتحول إلى الشرق وإلى التراث العربي فيقرأه ويمعن فيه ويتناوله على هذه الطريقة التاريخية الحديثة .

أى العوامل ذلك الذى دعا « هيكل » إلى أن يمسى في هذا الاتجاه ؟ هل يمكن أن يقال أن كتابنا الذين كانوا يتزعمون المدرسة الحديثة ويدعون إلى الحضارة والثقافة الأوربيتين ، قد داخلهم الشك في تقدير هذا الأدب حينما انهزمت المبادئ الفكرية الأوربية أمام المطامع الاستعمارية ، أم أحس كاتبنا أن الانسانية أصبحت في حاجة إلى غذاء روحى يرد عنها ذلك الظلم الذى فرضته الحضارة المادية المسلحة بأسلحة العلم والفكر لتحطم وتدمر وتستعمر ؟

أم اكتشف أن الكتاب والمستشرقين الأوربيين إنما يعملون لحساب الاستعمار وتغريب الشرق ، عند ذلك عاد إلى التراث العربى محاولاً أن يستخرج منه صوره نقيه من صور البعث الروحي .

إن هيكل لا يحدثننا عن ذلك بأكثر من أنه تأثر بحملات المبشرين التي

كانت قد استشيت في هذه الفترة فدفعه ذلك إلى دراسة السيرة للدفاع عن صاحبها ورد عدوانهم . ولعل هذا يدفع عنه ما وصف به ، من أن اشتغاله بالسياسة قد أثر في فهمه الأشياء ، فلا شك أن عمله السياسي هو الذي دفعه في هذا الاتجاه الجديد الحصب إذا كان اشتغالي المتصل بالسياسة قد أثر في تصوري للأشياء وفي حكمي عليها ، فأنما كان أثره أن زادني تقلييا للأشياء ، وامتحانا لها ، وتعمقا في بحث ما تنطوى عليه وما ترمى إليه .

ولكننا نعلم « هيكل » إذا جعلناه من رواد الأدب الاسلامي الحديث دون أن نذكر له أثرا آخر كان به رائداً من رواد القصة ذلك هو قصة « زينب » فقد وضع هيكل با كورة القصة المصرية ١٩١٧ ولكنه لم يواصل السير في هذا الطريق ، وإن كان قد أنشأ بعض القصص بعد (١) ذلك .

وهيكل كاتب جزل العبارة ، واضح الأداء ، مستفيض . يقرب الفكرة على جوانبها ، ويبحثها من جميع أطرافها ، ويعرض لها عرضاً فيه يشمل وفيه أناة ... وفيه دقة وهو يصف أسلوبه بأنه أسلوب قانوني « وطبيعي أن يكون أسلوبني أسلوب الذين درسوا القانون والذين يرون أن تؤدي المعاني بالافاظ لا تزيد عليها ولا تضيق بها ، وأن الذين لا يعينهم لذلك بهرجة اللفظ للفظ ، وقد زادني حرصاً على هذا الأسلوب أني رأيت مثله موضع الاطراء من طائفة من كبار الكتاب والفلاسفة » .

ولكن هيكل لا يلبث أن يتهم كتاب العصر بأنهم لا يعرفون اللغة العربية نحن مع احترامنا للغة العربية ، لا نعرف اللغة العربية ، نعم نحن لا نعرف « عربي » ، ولست إذ أقول هذا أقوله عن تواضع كما اعتاد البعض ، ولكنني أقوله لأنه يعبر عن الحقيقة في أمر الأكبرين منا . فنحن قل أن

(١) ثورة الأدب .

(٢) السياسة الأسبوعية ٣ مايو ١٩٣٥

تقرأ كتاباً باللغة العربية غير ما قرأنا بدى صبا، ولا يزال حتى اليوم هو الأساس الذى يصدر عنه فى كتابتنا وتعبيرنا عن عواطفنا ومشاعرنا ،

* * *

سافر هيكل إلى أوروبا فى مطلع الشباب فالى أى مدى كان أثر ذلك فى أدبه وإنتاجه ؟ .

يقول « سافرت إلى باريس وجعلت أدرس اللغة الفرنسية واتصل بأدبها فأخذ إليه من هواى كأشد ما أخذ حسناء إليها هواى مخرم بها ، ودفعنى هذه المطامعات المتصلة وما فتحت عليه عينائى من جمال البيئة المحيطة بى إلى الإعجاب بالحضارة الغربية التى تنتج مثل هذه الثمار العذبة الشهية » .

غير أن هيكل لم يلبث حين عاد إلى مصر أن بدأ أقرب إلى الاعتدال فهو لم يسرف فى الاندفاع وراء الأدب الأوربى ، وآية ذلك دعوته إلى الفرعونية وربط الحاضر بالماضى ، ومهما يكن من أمر هذه الدعوة وصداها ومصيرها فإنها قد تبلورت بعد فى نفس هيكل على صورة أخرى حين بدأ يكتب عن « الإسلام » . فقد اتسع المعنى القومى الذى كان يدعو إليه إلى صورة أشد قوة وعمقاً حين ربط تاريخ الشرق الحديث بالإسلام ودعوته ومدنيته وإمبراطوريته ..

والحق أن هيكل كان فى حياته الفكرية أقرب إلى الاعتدال من زملائه زعماء المدرسة الحديثة ، كان أشد رفقاً ، وأكثر اعتدالاً ، حتى أسلوبه فى الكتابة السياسية كان مثلاً للرفق والأناة ، وإن لم يخل من قوة ورغبة فى الصراع .

فهو لم يعرف بالخصومات الجريئة التى عرف بها طه والعقاد ، ولم يعلن ثورته على القدماء ثورة واضحة ، وهو فى الأدب يؤمن بالملائمة بين العلم والأدب وبين تراث الشرق وحضارة الغرب وبين الإحياء والبعث من ناحية والنقل والترجمة من ناحية أخرى .

اتصل منذ شبابه بالباكر بالجريدة وتلذذ على خاله لطفى السيد ، وعاش في هذا الجو الجديد ، فلما عاد من أوروبا ، ونشأت الأحزاب ، كانت «السياسة» هي مدرسة التجديد التي جمعت طه وهيكل وعزمى وعبد الرزاق .

وكان لونها الواضح وثقافتها الظاهرة : الفرنسية في أبرز معالمها وكان منهاجها مخالفاً للمنهاج المدرسة الأخرى التي أطلقت على نفسها المذهب الجديد والتي كانت أشد ثورة وهدماً ، وأكثر اتصالاً بالثقافة الإنجليزية ، وأكثر حرباً لحافظ وشوقي وهي مدرسة «الديوان» وعلى رأسها العقاد والمازني وشكري . .. ولكن هل كان طريق المدرسة الحديثة واضحاً ، .. وأن كان كذلك فماذا

يعنى هيكل حين كتب في مقدمة «ثورة الأدب» (١) ، .. ومهما يكن من أمر فإن ثورة التجديد في الأدب قد طفرت بالقديم وجرت إلى ناحيتها حراس حصونه ، حتى كادوا يسلبون المجددين مفاتيحها ، ولكن ما أنفق من الجهود التي هيأت للفوز فتح عيون أصحاب الجديد وأسعة وجعلهم يتساءلون : أيان نذهب وماذا إليه من جديد نقصد .. »

والحق أن هذا التساؤل له معناه ، وأنت حين تدرس طه وهيكل والعقاد والمازني ، تستطيع أن تعرف في يسر أن هدف هذه المدارس الجديدة إنما كان نقل الإنتاج الغربي إلى بنا في صورة أو بأخرى . وتأتي الإجابة الواضحة على سؤال هيكل بعد فترة طويلة من حياة هؤلاء الكتاب .. بعد أكثر من عشرين عاماً عندما يبدأ طه في كتابة هامش السيرة ودعاء الكروان وهيكل في كتابه «حياة محمد» والعقاد في كتابه «العبقريات»

° ° °

لم يغير هيكل لونه السياسي ، منذ بدء حياته الفكرية والسياسية مع الأحرار الدستوريين حتى رأس هذا الحزب وانصرف عن الأدب كلية وارتبط

طه وهيكل فترة من الزمن في ميدان «السياسة» ارتباطاً قوياً كان له أثره في النهضة الأدبية ، فكم من مساجلات دارت بين الكاتبين حول مؤلفاتهما . كان أبرزها نقد طه حسين لكتاب «جان جاك روسو» وخطاب «من هيكل إلى طه» عندما أصدر «ثوره الأدب» ..

ومن هذين الخطابين يمكن للباحث أن يرسم صورة واضحة لمدرسة «السياسة» ولا يعدو الحق أو يبعد عن الواقع إذا قال أنها كانت أصرح المدارس الأدبية وأجراها في النقد . حتى أن كاتباً من كتاب السياسة ينقد رئيس تحريرها في صحيفته .. على هذه الصورة .

«يجب أن يكون هيكل شديد الالتواء على النقد ، مسرفاً في ازدراء القراء وغالياً في الاقتناع بأنه وحده موفق للخير حين يفكر وحين يعمل .. لا أعرف كتاباً علمياً أو أدبياً أردأ طبعاً من كتاب الدكتور هيكل بل لا أعرف كتاباً علمياً أو أدبياً بلغ فيه الإهمال والفتور ما بلغاه في كتاب هيكل .

طبع ردىء مغم بالأغلاط 'المنكرة' ، وورق ردىء . يصرف القارئ عن أن ينظر في الكتاب . ثم يصف طه هذه الجراءة من نفسه فيقول :

«ما رأيك في محرر السياسة الأدبي يتناول بهذا النقد العنيف رئيس تحرير السياسة ثم لا يستحي أن يثير هذا النقد العنيف في جريده السياسة .. أليس هذا إسرافاً أو شيناً فوق الإسراف .

كلا ، ليس إسرافاً وإنما هو القصد كل القصد ، والاعتدال كل الاعتدال فهيكل تليد لطفي السيد ، ولقد أذكر أن لطفي السيد علمنا حين كان مدير الجريدة أن ننقد أصحاب الصحف في صحفهم ، وعودنا أن ننشر نقدنا راضياً به مبتهجاً له . ونحن قوم يجب بعضنا بعضاً ، ولكننا نتحاب في الحق والعلم والأدب وحرية الرأي قبل كل شيء .

أستغفر الله بل لو علمت أن في هذا النقد ما يفضض صاحبي أو يفيضه
لشرته ووضحيته بصحبة هيكل في سبيل ما أدتد أنه حق . . .

. . . وفي الواقع أنه مما يحمد هيكل أن يتقبل هذا ، وأن يرضى به ، بل
إنه ليذهب إلى أبعد من ذلك حين ينشر كتاب ثورة الأدب ويتناول طه
بالنقد ما يلبث أن يقول له « . . . وهذا البحث الذي يشعرني بما لك من أثر
في مجهودي وإنتاجي يجعلك صاحب فضل فيه كبير »

. . . ثم يمضي هيكل فيسجل صفحة مشرقة من الإنصاف فيقول (. . . ولست
أخفيك أني مدين في حياتي ككتاب لأشخاص كثيرين شجعوني وأزروني .
ولكنك كنت وما تزال يا صديقي في مقدمتهم . كنت وما تزال كذلك حين
الفاك وأتحدث إليك . وحين أقرؤك وأستمع بجمال ما تكتب وعظيم لذته .
وحين أفكر فيك وفيما أثرت في الأدب وفي تاريخ الأدب من تأثيرات لما
تهدا . والحق أنه إذا كانت ثورة الأدب مدينة في العهد الأخير لعدد غير قليل
من الكتاب والأدباء فهي مدينة لك بأعنف ما فيها . مدينة لك بأشد ما فيها
طرافة) .

وإذا كان لنا أن نتساءل عن هذه الصداقة الأدبية الضخمة أين ذهبت . .
فاننا نستطيع أن نتلقى إجابتنا من السياسة الحزبية !

* * *

يقول (جب) أن هيكل (يعمل الروية والفطنة في تدريج الرأي العام
المصري إلى مستوى الثقافة الأوربية) وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من وصفه
بالاعتدال . فهو لم يشترك في معارك أدبية جريئة ، ولم يدخل في نقد صارم ،
إلا حين اختلف مع شوقي وكان قد كتب مقدمة الشوقيات عام ١٩٢٥ ، ثم هاجمه
عام ١٩٢٧ بمقالات جعل عنوانها (أخلاق شاعر الأخلاق) .

بل أن هيكل كان هادئاً في ميدان الصراع السياسي . فبينما كانت الصحف

الحزبية تدوى بالآراء الجريئة ، كان يكتب في هدوء ، فلا تحس أنه يتعصب أو يثير النقع ..

وفنه الرئيسي المقالة المطولة ، وله مقالات ذات وهج أذكر منها على سبيل المثال (الاجتهاد والتقليد) و (أزمة العالم : أزمة خلق وعقيدة^(١))

وبعد فهل نستطيع أن نجد « حياة » الكاتب في أدبه ، أو هل تتيح لنا أثاره أن ندرس نفسيته وشخصيته ... ؟

ما أظن أن ذلك يسيرا فلم يكن هيكل حريصا على أن يجلو هذا الجانب إذا استثنينا الجانب السياسي من حياته الذي كشف عنه في كتابه « مذكرات في السياسة المصرية » .

.. نعم نحن لا نستطيع أن نعرف الشيء الكثير عن نفسه « هيكل » وحياته .. غير أن الدلائل كلها تقطع بأنه ينطوى على « شاعرية » لاشك فيها ، فهو لم يقف أمام مرأى من مرآتي الجمال ، ولا منظر من مناظر الطبيعة في خلال أسفاره ورحلاته المتعددة إلى أوروبا إلا وصفه في قوه وافاض في تصويره .. ورسم صورة واضحة لاحتاسيه ومشاعره إزاءه

سافر هيكل إلى أوروبا في مطلع شبابه ، ثم سافر مرات متعددة بعد ذلك ، عند ما قضى أبنه ممدوح ، وغشيت حياته الزوجية غاشية ! فأراد أن يدفع عوامل الألم والحزن التي فرضت نفسها على حياته بتلك الرحلات التي قام بها صيف ثلاثة أعوام متوالية مع زوجته إلى عوالم الشرق والغرب .

... ووفاه ممدوح ، حادث بعيد الأثر في حياة الدكتور هيكل وفي حياة الأدب ، فقد أصاب نفس والده بذلك اللون الحزين الذي صورته في مقدمه كتاب « ولدي » ، والذي كان هذا الكتاب ثمره من ثماره .. وفي

(١) السياسة — أبريل ١٩٣٤ .

تاريخ الأدب المعاصر ، صورتان أخريان لولدى ، أحدهما للزيات والآخرى
لمحمود تيمور .. وليست الصورة التي رسمها هيكمل باقى هذه الصور ..

وسافر هيكمل مرات إلى لبنان وسوريا والحجاز والسودان ..

وارتبطت رحلاته هذه كلها بأثار فى الأدب والرحله .. كان أبرزها
« منزل الوحي » الذى جاء أثر اتصال هيكمل بسيره الرسول والتراث الإسلامى .

وحين أراد أن يمشى فى أثر الرسول ويشهد أماكن الغزوات والمواقع !

ولاشك أن « الاعتدال » الذى يبدو واضحاً فى إنتاج الكاتب وحياته
الفكرية هو صدى لاعتدال فى محيط النفس والأسرة والحياة الخاصة ...
فهو زوج منذ صدر حياته ، وقد مضى فى حياته ، على طبيعته ، يقرأ ويكتب
وينشئ ... دون ما ارتظام أو اضطراب ...

ويبدو أن ما وصل إليه الكاتب من التبريز والشهرة ، يرجع إلى
عاملين هما طبيعته الخاصة واستعداده ، وطبيعة الوضع الذى أوجده فيه
اتجاهه السياسى .

ويبدو هيكمل فى حياته الخاصة « رجل ليست له بدوات ، وأنه من ذلك
الصنف الذى يغلب الاتجاه العقلى .. عنده على اللون الوجدانى ..

* * *

أما فيما يتعلق بصلته بالمرأة ... فيبدو أن هيكمل قد أحب فى فجر شبابه ،
وكان ثمرة حبه هذا قصة « زينب » ...

ثم لا تبدو المرأة فى إنتاجه الأعلى فترات متباعدة ... وفى صورة غامضة
غير واضحة .

هل كان له حب عظيم فى باريس ؟ ..

ذلك ما نشك فيه ... فلم يرد في آثاره ما يدل على غلبه هذا اللون ، وإنما يبدو أنه كانت هناك رؤى ... كان لها أثرها في الالهام ...

« عرفت (١) بياريس في ربيع ١٩١٠ فتاة من كندا نزلت وأما بالمنزل الذي كنت فيه ، وأقامت فيه أسبوعين ثم غادرته وأما إلى ألمانيا في رحلة من هاته الرحلات التي يعكف أبناء أمريكا عليها حتى لاحسبهم يعتبرونها بعض واجبات الحياة ، وكنا أهل المنزل جميعاً نقضى ما بعد العشاء في صالون متصل بغرفة المائدة نتحدث أو تعزف صاحبة المنزل لنا بعض قطع على البيانو اذ كانت تجيد هذا العزف إلى حد البراعة فيه . وقد وثقت هذه السويغات بيني وبين الفتاة الكندية إذ كنت أقدر الحاضرين على التحدث إليها بالانجليزية لأنها لاتجيد الفرنسية . وكنت يؤمئذ أكتب « زينب » وكانت لي يؤمئذ في الأدب وما أرجو أن أجدد فيه من أثار أو هام طويله عريضة . فلما كانت الليلة التي أعزمت مغادرة باريس فيها وجعلنا نتحدث بعد العشاء خاطبتني في ذلك المستقبل الذي كنت أرجو لنفسى ككاتب قصصى . فقالت :

كم أود لو استطعت أن تكتب تاريخ مصر في صورة قصصية كما صنع سير والتر سكوت بتاريخ إنجلترا . إتنى وأن لم أعرف مصر أشعر بأن فيها شيئاً كثيراً جميلاً . وأن تاريخها وأثارها جديران بالكشف عنها وتقريبها للناس في الصورة القصصية المحببة للنفس ، ولعلك أن فعلت تجعل أهداء أولى هذه الروايات التاريخية إلى ،

.. هذه المراه الملهمة لهيكل ... لاتعطي صورة وجدانية واضحة ، بقدر ما تعطي صورة عقلية محدده ! .

ومرة أخرى ... تحدث « هيكل عن المراه وأثرها في الإلهام (١) »

« .. لو اننى خاوات استقصاء نواحي الضعف في الهام المراه الفن لطال الحديث ... »

واجب المراه في الهام الفن فرض محتوم عليها لأن الطبيعة لا تستطيع أن تقوم بهذا الإلهام وحدها على الوجه الأكمل . واشترك المراه والطبيعة في هذا الإلهام هو السكفيل بكال الفن .

... وليس كاتب أو شاعر أو مصور أو ممثل أو موسيقار ، لا يتحدثك عن حظ من الإلهام قل أو كثير ، كان لامرأة فيه نصيب هو الذى أوحى إليه بخير ماله في الفن وقد يصدر هذا الإلهام عن تمليق تلك المراه لرب الفن أو عن دلها عليه أو صدها عنه أو تعذيبها إياه . وقد يصدر عن اشتراك في الفكرة الفنية التى يموج بها خاطره فتغذى الشراره التى تلهب شعلة الفن المقدسة في نفس رب الفن فيضىء جوانب روحه فيندفع إلى وضع الاثر الفنى متلاً به فؤاده .

ليس بين سيداتنا المستنيرات من تشعر بهذا الواجب . أو تحس في نفسها موهبة الإيحاء لرب الفن موهبه لا يستطيع مغالبتها ، فسا بالهن إذن ينصرفن عن القيام بهذا الواجب المقدس ولا يقتضيهن شيئاً يخالف طبيعتهم النسوية الرقيقة التى صاغها الله فناً جميلاً .. »

ولا يستطيع هذا القول الا أن يعطينا صورة واضحة لنفس هيكل وهى تحس بالحرمان من أثر المراه في الهام الفن أو الادب ...

(١) السياسة الاسبوعية - ٢٦ مايو ١٩٢٤ .

وبعد فقد كان الأدب أبرز مظاهر حياة « هيكل » وقد ترك فيه أثراً
باقية ، هي جزء من الإدب العربي المعاصر ، لاشك في جودته وقوته ،
وأن كان قد انصرف بعد عن الأدب إلى الحياة التي أحباها واوغل فيها ،
حياة السياسة والقانون . وضرب فيهما بسهم وافر فإن مراحل حياة
« هيكل » ما تزال متشابكة مترابطة وهي في مجموعها صورة واضحة لحياة
مفكر . . .

ولست أدري هل يود هيكل بعد أن فرغ من أعباء السياسة أن يعود
الآن إلى ورد الأدب مرة أخرى وأن يوغل فيه . إن مقالاته التي تنشرها
« أخبار اليوم » لا تعطينا هذا الدليل فهي في مجموعها ذكريات يغلب عليها
الطابع السياسي والاجتماعي ولعل قصته « هكذا خلقت » مقدمة لصحوة قد
تكون بعيدة الأثر في تجديد الاتجاه الأدبي والسير فيه بخطوات واسعة .

فريد أبو حديد



اقرأ أى كتاب من كتبه ، أو استعرض ان شئت أسماء مؤلفاته ،
فانك سرعان ما تضع يدك على مفتاح شخصيته وتعرف سر نفسه ...

اقرأ « زينوبيا » ، أو « الملك الضليل » ، أو « أبو الفوارس عنتره » ،
أو « آلام جحا » أو « سيف بن دى يزن » .

تجد نفسك أمام شخصية هذا الكاتب الشاعر القصصى ... الشغوف بأن
يعيش مع التاريخ البعيد ، مع الشخصيات المجهولة التى أضفت عليها الأساطير
والقصص والحرافات ... جواً من الغموض ، فعاشت بين السحب والغيوم .
عاشت ملفعة بالحجب والضباب .

إنها القصص ، من حيوات أمثال زينوبيا ، أو امرئ القيس أو جحا ،
والتي ليست فى مصدرها وفى أصلها إلا سطوراً معدودة من كلام مدفون
فى بطون الكتب القديمة ، وإذا بالكاتب يأخذها ويضفى عليها من ثقافته
وخياله وفنه ما يكسوها بشراً سوياً ، ويبعث فيها حياة جديدة ، ويخلق حولها جواً
لا تشك لحظة وأنت تقرأها أنه قريب من الجوالذى كانت تعيش فيه هذه الشخصيات .

وليس أمامنا لكي ندرس شخصية « فريد أبو حديد » إلا مؤلفاته هذه
بالإضافة إلى كتابه « عمر مكرم » .

إنه من الكتاب الذين لا يتحدثون عن أنفسهم ، ولا تبدو معالم حياتهم
واضحة في كتاباتهم . إن هناك هالة من الغموض تحيط بنا من كل جانب ونحن
ندرس هذه الشخصية .

كثير من الكتاب هم كذلك ، لا تعطيك آثارهم صورتهم النفسية واضحة ،
لأسيما أولئك الذين لا يتصلون بالصحافة اتصالاً دائماً مستمراً ، فإن هؤلاء
يظلون في حدود حياتهم الأدبية الخاصة التي يعكفون فيها على الإنتاج
الأدبي المجرد . لا يعطون الباحث تلك المادة التي تعينه على الكشف عن حياتهم
الوجدانية في سر .

وكتاب كزنوبيا أو الوعاء المرمرى ، ماذا يمكن أن يعطيك عن كاتبه
إلا صورة عقلية محضة ، هو أنه أديب شغوف بهذا اللون من الأدب ، محب
للإغفال في أعماق التاريخ والماضي ، والذهاب بعيداً بعيداً إلى أعماق الجزيرة
العربية ، وإلى الشخصيات البعيدة الغامضة ، هذه نفس شاعرة ، تندفع وراء
الغوامض من اجراء التاريخ لتحاول أن تعيش فيها وتجذ لذتها في أن تبحث
وراءها ، وتدرس كل ما يتصل بها .

ولكن مهلاً ، فإن دراسة مثل هذه الشخصيات ، ليس يسيراً وليس هيناً
وليس من البساطة في شيء ، ودراسة مثل يدرس حياة جحا أو سيف
ابن زى يزن أو الملك الضليل ، يتطلب دراسة تاريخية ضخمة لعصره ،
والحياة في عهده ، والتقاليد والملابس والمجتمع والناس في خلال هذه الفترات
حتى يمكن أن يتم بناء هذه الصورة على أساس صادق من الواقع . فإذا توافرت
هذه الأسس ، جاء الفن الأدبي نفسه فوضع الصورة الكاملة الواضحة ، للشخصية
النابضة بالحياة ، الذاهبة إلى مداها في الحركة والحياة .

وفريد أبو حديد حريص على أن يطوى شخصيته عن القراء ، وأن يطوى

حياته الخاصة عن الناس فلا يدعها لإيهم ، وهو يقول في أحد أبحاثه (١) « ليغفر لي القارىء أن أتحدث عن نفسي على كراهية في طبعي للتحدث عن النفس » .

وهو لا يريد أن يقول لنا إلا أنه أحب ذلك التراث العربى الذاهر من التاريخ ، وملك عليه نفسه منذ تعلق بالادب . فاستغرق وقته ووقف عليه اهتمامه

« كان التاريخ يبدو لى إذا قرأته غير تلك السير التى يقرؤها الناس عادة ليستخرجوا منها علما أو عظة ، كنت اقرأ التاريخ ، فإذا بى أحياء مع من اقرأ سيرتهم ، وأعاشر أهل العصور الغابرة كأنما أنا من بعضهم ، أكاد أشعر بأنفسهم وأحس بأحاسيسهم ، واهتز لما يهزهم ، وأغضب لما يغضبون له ، وأسر لما يسرهم ، وأتألم معهم فى محنتهم . وكنت إذا قرأت فى كتب الأدب أشعر بنشوة عجيبة لما فيها من آيات تسطع فى الذهن كما يسطع النور على صفحات الجوهر الصافى ، وكنت أرى دائماً أن تلك الكنوز أثمن من أن تبقى فى مخابئها ، وأن تلك العصور أكرم وأنبل من أن تبقى طريحة فى جمل الزمن الذى انطوى ، وما أكثر ما كان لتلك السير من آثار فى نفسى وفى عقلى » .

فأدبنا بحب للتاريخ ، كلف به ، صرف فى دراسته ومطالعتة شبابه كله ، واستهوتة الشخصيات القوية الأثر فى التاريخ ؛ ومن ذا الذى ينسى أنه أنصف « عمر مكرم » فى وقت كانت كتابة تاريخه على وجه من الانصاف لا ترضى الحاكمين ، غير أن هذا الاتجاه لم يطل أمره ، إذ تحول سريعاً إلى الفن الذى يملأ عليه قلبه ، تلك الصورة التى تتصل بالأساطير والقصص الغامض « وودت لو تواتبنى القوة ويطاوعنى الطبع على أن أبلغ ما تصبو إليه نفسى فأخرج للناس صورة الحياة التى يمتلىء بها قلبى فى ثوب محتلس من تلك الكنوز

(١) مقدمة قصة « زنبوبيا » .

الثينة فأكون كالصائغ إذا استعار رسماً قديماً فأبرزه في حلية جديدة يرفرف عليها روح القديم فوق هيكل حى جديد . . .

* * *

غير أن هذا الاتجاه الذى استقر عليه كاتبنا بعد أن ارتفعت به السن ، وجعله مذهبه الأدبى ، ولونه الواضح الصريح ، يمكن أن يردنا إلى صباه ويلقى ضوءاً على ماضيه فندرس شخصيته فى وضوح .

هذا الاغراق قصص حرب البسوس وسيف بن زى يزن وامرى القيس والزباء وعنترة يرسم صورته الكلف الواضح فى الشباب إلى ذلك الشاعر الذى كان يجلس فى المقاهى فى العهد لهاضى فيروى قصص هذه الحروب .

كان « فريد » معجباً بهذا اللون من الرواه ، وكان فيما يبدو يتعقب هؤلاء من مكان إلى مكان ، ومن مقهى إلى مقهى ، ليسمع وليطبل السماع ، وليقضى الليالى مرهفاً سمعه وحسه إلى هذا الفيض من القصص ثم أذابه تنكفاً بعد ذلك إلى كتب التاريخ ليقرأ ويقرأ ! .

وهو لا يلبث أن يحدثنا عن هذا الاتجاه حيث يقول « ... (١) وبلغنا ميدان الحسينية ، قبل منتصف الليل ، وكان النسيم ما يزال يهب وديعاً والبدر الباهر يتوسط السماء الصافية والأنوار الساطعة تنبعث من الحوانيت والمتنديات الشعبية التى تحف بالميدان .

ولاحت لنا حلقة فى منتدى كان قائماً عند مدخل الطريق الضيق المؤدى إلى المدينة ، وكان فى وسط الحلقة شاعر ينشد على ربابته ويقص على الجمع الحاشد قصته . وكان فى رنين انشاده من بعيد ما يواثم نبضات قلوبنا المضطربة .

وكان الشاعر شيخاً لا أذكر أن عيني وقعت على مثل صورته ، كان

(١) مقدمة : الوعاء المرمرى .

تحيفاً معروق الوجه له لحية خفيفة وخظها الشيب ، ولكن عينيه الكليلتين
كانتا تذبضان بنور لامع يخالطه سيال وديع يشعر بشجن دفين . وكان
يلبس عمامة بيضاء ذات عذبة تضطرب على كتفه إذا تحمس في انشاده بصوت
متهدج تتم نبراته عن حركة نفسه وحراره وجدانه . وكانت ربابته تصاحب
انشاده بلحن عميق يملأ جو المنتدى بأصدائه وهو يعلو حيناً ويخفت حيناً
ويرق في مواضع ويعنف في أخرى .

« .. منذ تلك الليلة صرنا من قصاد ذلك المنتدى البلدى نذهب إليه إذا
اجتمعنا أو وحدانا إذا لم ندبر اجتماعاً حتى أصبح لنا بعد قليل ملقى
مختاراً » .

« .. ثم يصف « فريد » أثر هذه النشوة في نفوس الشباب .. وفي الكفاح
من أجل الحرية » .. كنا نجتمع هناك كل ليلة في المنتدى ندبر مع أصحابنا
خطط الجهاد في سبيلها ، الحرية . وكان لهذه الصداقة الجديدة أثرها العظيم عندما
شبت الثورة الكبرى في مارس من ذلك العام ، و.. لا يذكر أحد أن أناشيده
القوية الوثابة (يقصد الشاعر) كانت تحرك قلوب طلاب الحرية نحو عزمات
الغد الطالع في ضمير الغيب » .

وتستطيع هذه العبارات أن تعطينا صورة انفس فريد حديد فهو
محب للبطولة ، مغرم بها ، وقد ترصد لها في القصص ، كما اتصل بها في الحياة
فشاولك في ثورة ١٩١٩ ، وقرأ حيوات الأبطال العرب الذين استفاضت
بالحرب والكفاح والدماء والبطولات ..

وهو مغرم بالأقطاب الذين تركوا في أوطانهم وفي التاريخ آثاراً ما تزال
رغم مرور الزمن قوية واضحة ، لا يمكن نسيانها أو تجاهلها ، بل هي مازالت
حتى الآن تبعث في النفس الشوق إلى التضحية والكفاح ..

وأنت تلح من صفحات آثاره الصرامة والوضوح والرغبة إلى أن
يكون صريحاً جريئاً ، تفيض نفسه بالحق ، كأنما هو من أولئك الذين

يكرهون المداورات والمناورات ويغضون أساليب السياسة مما يطلقون عليه اللباقة أو تحميل الألفاظ مالا يحتمل . أو ما يطلقون عليه أسم الأسلوب الذي يجرح ولايسيل الدماء فهو على طبيعته واضح صريح ، صارم حاد ، لايعرف ميلا ولازيفا ، ولايرى في الحق مجاملة ، إنما يقول كل شيء ويمضى ..

ويأتى هذا متسقاً مع حبه للبطولة وإعجابه بها ، وهى طبيعة الفرسان ورجال الوغى الذين عاش معهم فهم لايمرفون تلك الألوان الرقيقة اللينة ولا تلك الأساليب التى توصف بأداب الصالونات . . ولعل مرجع هذا فيما نعتقد تلك الحياة الريفية البدوية التى عاشها الكاتب فى فجر حياته .

* * *

« فريد أبو حديد » واحد من هؤلاء الرواد الذين بدأوا حياتهم الأدبية مع ثورة ١٩١٩ أو قبلها بقليل ، تأثر فى فجر شبابه بالأدب الإنجليزى وأوغل فيه فقرأ نكتاب القرن التاسع عشر من مارلو إلى والتر سكوت إلى دكنز . وأحب شكسبير وتأثر كثيراً بسكوت فى عمل القصة التاريخية .

واشترك فى تحرير السفور وكتب فى السياسة الأسبوعية تابلهوات قصيرة لعلها كانت أول اتجاهه القصصى .

ومضى « فريد » على طبيعته هادئاً متنداً ، لا يتصل بالصحافة ولا يشارك فى السياسة ، ويخلص افنه وأدبه وتركزت قرائته « لآلام فرتر » أثرا يختلف عما تركت فى نفس الزيات من أثر فقد كره هذا الضعف والتخاذل ، فأنشأ قصته « مذكرات المرحوم محمد » سنة ١٩١٣ .

وابتدع « فريد أبو حديد » الشعر المرسل ، حين ترجم أجزاء من قصة انطونيو وكليوباتره بهذا الأسلوب . ثم ترجم سهراب رستم ومضى فى اتجاهه هذا فكتب بهذه الطريقة قصة عثمان بن عفان ، وخسرو وشيرين .

* * *

وظل فريد أبو حديد تتنازعه طبيعتين مختلفتين وإن كانتا قريبتين .. هى طبيعة المؤرخ ، وطبيعة القصاص . كان قرأ كل أمهات الكتب التاريخية

ولمخ فيها صوراً غاية في الروعة والقوة لو أنها كتبت على الطريقة الحديثة ،
لو أدخل إليها فن من فن والترسكوت وشكسبير . .

لقد كانت « ربابة الشاعر » الكاهنة في أعماق فريد أبو حديد تصارع فيه
« المؤرخ » ... وأخيراً غلبت عليه طبيعته فأخرج تلك الآثار الرائعة التي
تقدم نفسها للخلود

« الملك الضليل — زينوبيا — الوعاء المرمرى — المهلهل سيد ربعة » .



فاذا ذهبنا نستقصى صلة أدب الكاتب بشخصيته ، وجدنا وثيقاً قوياً ،
فهو من ذوى الطباع الزقية الصريحة ، يبدو هكذا حين تتحدث معه ، وحين
تقرأ له .

في نفسه ذلك الإحساس الحاد المتدفق بالوطنية الذي صورته في قصته الوعاء
المرمرى ، وفي كتابه عمر مكرم الذي ألفه بعد معاهدة ١٩٣٦ وفي كتابه
عن ثورة ٢٣ يولييه « أنا الشعب »

فاذا ذهبنا نستشف شخصيته وجدناها واضحة في بطل قصة أزهار الشوك
« فؤاد » . . الشاب المحب للريف ، الكلف بجماله وأصباحه وأمسائه وأصائله
المتفتح القلب ، الجياش العاطفة ، يصف أباه معجباً به . . وكان كلما وقف
هناك خطرت له خطرات من ريف النجيلة ، ومن أيامه فيها وأماسيه في أشهر
الصيف ، ثم تمثل له صور من هناك . . وكل هؤلاء الذين ملأوا عليه الحياة
في تلك الشهور ، ثم تمثل له صورة أبيه محالقة فوق هذا الخلق كله كما يخلق النسر
فوق قمم الجبال . لقد عرف أباه قبل ذلك الصيف ، ولكنه عرفه في تلك
الشهور كما لم يعرفه من قبل . ففتح عينيه آخر الأمر فرآه رجلاً وإنساناً كان
يعيش في ريف النجيلة البعيد أمة وحده وسط أمة أخرى يعرف أنه غريب
عنها . ولكنه كان يمد يده إليها كما يمد السابح الماهر يده إلى الغريق الذي

يكافح الموج إلى جانبه (١) . . . »

ويبدو فهم « فريد أبو حديد » للحياة على هذه الصورة الواضحة القوية . . . رأى يوماً في بعض وقفاته عوداً ضئيلاً تتقاذفه الأمواج على سطح الماء تعلو به ثم تنحدر ، وتتجه به إلى اليمين تارة ثم تلقيه إلى اليسار . ثم إذا دوامة شديدة تجذب العود إليها فتدور به لحظة ثم تبعث به إلى الأعماق .

وكان هذا المنظر يشبه حياً هبط عليه . فبداه أن البشر ليسوا في الوجود سوى هنة مثل ذلك العود الضئيل . والقضاء يقذف بهم حيث يريد ، فهم يأتون إلى الحياة بغير أن يريدوا حياة وهم يمضون فيها حتى يخرجوا عنها ، سواء طالت أيامهم أو قصرت ، فاذا حان ذهابهم عنها ذهبوا كما جاءوا إليها قسراً وأمرأ بغير أن يكون لهم إرادة .

ويعصور شخصيته في شورة نقية . . . لقد تعود في حياته بساطة الريف ، فهو لا يميل إلى مفاتن المدنية وملاهيها ، ولا يرتاح إلى مجامعها الصاخبة ولا إلى أنوارها التي تكاد تغشى العيون . كان نور القمر الخافت أحب إليه من أضواء المسارح الوهاجة ، وكانت أنفاس الشاطئ أروح ل صدره من جو الأبهاء المزدهمة ، وكانت أغاني « قوية » الساذجة ورقصة « تعويضة » الوحشية أدعى إلى مسرته من النغمات الناشزة التي تبعثها الموسيقى الصاخبة في حلقات الرقص الماجنة (٣) . . . »

* * *

يقول الأستاذ « فريد أبو حديد » أن أعظم حادث في مجرى حياته هو دخول مدرسة المعلمين ، فقد دخلها وهو كاره وكان يجب أن يدرس الحقوق . . . ولذلك لم يلبث أن حصل بعد على أجازة الحقوق وإن لم ينصرف عن التدريس

(٢) نفس المصدر .

(١) أزهار الشوك

(٣) نفس المصدر

وكان ذلك (مفتاح) اتجاهه الأدبي الذي رسم حياته الفكرية في المستقبل.

ويقول أن مثله الأعلى في الحياة أن يعطى ما عنده . وهو يفضل في الناس
العدالة مع العفو . ويفضل في النساء الكرامة مع الرحمة . وأحب الفضائل
إليه عظمة القلب . وهو يرى البطولة في الاستشهاد بمبادئ الحياة من أجل
فكرة وهو يحب في الزهور الوردة البوری ، وفي الطيور الحمامة . وأفضل
هبات الطبيعة عنده القلب الكبير .
ولكن إلى أي حد يمكن الموازنة بين الصورة وبين الحياة نفسها . ذلك
ما ندعه للتاريخ نفسه .

سلامه موسى



« ... ليس مما يتفق لسكل كاتب أن تكون أولى مقالاته وبأكوره حياتي الأدبية عن فلسفة نائرة بل هائية مثل فلسفة نيتشه . ولكن هكذا قضى القضاء أن أكتب أول ما اكتب في حياتي ، وأنا قتي لم أبلغ العشرين مقالا في المقتطف ١٩٠٨ عنوانه « نيتشه وابن الانسان » ولشد ما كان اغتباطي عندهما رأيت الدكتور صروف يعلق على المقال في العدد التالي بالاستغراب لهذه الفلسفة الجديدة التي تنقض بلا حياء ولا موارد الاخلاق المسيحية والفضائل الشائعة . واني أرجع الآن بالذاكره إلى هذا المقال فاجد فيه رمزا لهذا المركز الذي اتبواه الآن بين الرجعين حيث اقف منهم موقف الهادم لما تصدع من العقائد الممزق لما يلي وتهتك من العادات والشرائع .. »

هكذا بدا سلامه موسى حياته كما صورها بقلبه ، الكاتب الثائر المتمرد الذي ما زال حتى الان حرباً على قديم اللغة والتاريخ والاديان والشرق .

وسلامه موسى من الكتاب الذين يؤمنون بالغرب ايماناً كاملاً ، كل

ما في الغرب من خير وشر . ومن هوى وضلال . وهو يرى أن الشرق لا يمكن أن يصل إلى المكانه الرمويه الا إذا « استغرب » استغرابا كاملا .

وسلامه موسى هو أشد كتاب مصر تطرفا في الرأي . حتى أنهم في وقت من الأوقات بأنه يروج رأي الملاحدة والمتحللين ودعاة المذاهب المتطرفة .

ولكن ، هناك جوانب تشرف سلامة موسى وتكتب له في تاريخ الأدب المعاصر صفحات مشرقة : تلك هي ترجمته لنظرية التطور والتفسير المادي للتاريخ . ونظريه السيكلولوجيه الحديثه بين فرويد وادلر ويونج . . فقد نقل هذه العلوم الى العربيه في أسلوب واضح دقيق ، لم يصل إليه غيره من المشتغلين بهذه العلوم والدراسات . .

* * *

يقول المستشرق^(١) جب . . « على أن الجناح الايسر المتطرف من المجددين المصريين قوامه فريق أكثره من المسيحيين المصريين . وابرزهم سلامه موسى ، محرر الهلال الشهري . وقد ظهر سلامه موسى في أول الأمر بكتابه في الدفاع عن نظريتي التطور والاشتراكية اللتين درهما أثناء اقامته بانجلترا .

وهو يؤثر بحبه برناردشو وولز ، وهو مثلهما يتكلم بلا خوف بل يستثير سخط الناس بمواضيع لا يتناولها أشد المجددين تطرفا الا بحذر .

ولعل خير مثال لذلك مقالته عن التوحيد التي يرده فيها إلى أصل طبيعي . وموقفه حيال الأدب العربي والاسلوب الأدبي فيه جرأة ونشاط . وهو يرى في كل من الأدب القديم والحديث نقصا في المعرفة الصحيحة . وفي الاتصاف بحقائق الحياة

ولكنه مع تميزه عن زملائه بتطرف أرائه ، الا أنه يتوخى في كتابته الرنه العربيه المألوفه . وهو يشبه سلفه جرحي زيدان في أسلوبه العلي أكثر

عما هو أدبي . ولكنه يمكن أن يقال أنه خير خلف لزيدان في أحوال مصر الجديدة . . .



لقد كان الانقلاب التركي — عام ١٩٢٤ — أثره في نفس سلامة موسى فحمله مادة للكلام القبيحة والطربوش .. وعن إلغاء مادة الدين في المدارس وعن الكتابة بالعامية وعن العودة إلى الفرعونية . وكان لاثارة كل قضية من هذه القضايا صدى ودوى ، وقد جرى السجال فيها بين المجددين والمحافظين طويلا ..

يقول في مقال له بالهلل — نوفمبر ١٩٢٢ : ليس هناك حد يجب أن نقف عنده في اقتباسنا من الحضارة الاوربية . يجب أن نفرغ نحو أوربا . ونفتح أبوابنا على مصراعها للحضارة الأوربية . وننقل مبادئ الديمقراطية والبرلمانية والاشتراكية ، وهي مبادئ لم تعرفها آسيا أيام الاستبداد الاتواقرطى في الحكومة والدين والادب العلم .

وهو واجب كتاب الصحف والمجلات أن يؤسسوا نوعا من الرقابة الزهيدة لمنع الرجعيين ذوي الثقافة الأسيوية من نشر آرائهم في صحفهم أو طبعها للجمهور فلا ينبغي مثلا لصاحب المجلة أو الجريدة أن ينشر دفاعا عن الحجاب أو ما يشابه ذلك ..

وهو جرىء في آرائه عن الحضارة .. يجب أن نذكر أن الحضارة العصرية هي حضارة الصناعة . ويجب أن نذكر أن أوربا تختلف عن الأمم الشرقية بالصناعة وترتقي عليها بها وليس هناك سبب آخر لارتقائها وتفوقها علينا . وكل ما يقال عن روحية الشرق ومادية الغرب هو لباب البلاء وخرافات الرجعيين أعداء النور والرقى ، فإذا تحدث عن الشرق كان رأيه غاية في الظلم .. كلما ازدادت معرفة بالشرق ازدادت كراهية له ، وشعرت

أنه غريب بالنسبة لي وكلما ازدادت معرفة بالغرب ، كلما ازدادت حباله
واقترابا منه واحسست بأنه يمت إلى وانا امت إليه .. ،

سافر إلى أوروبا عام ١٩٠٨ وعاد ١٩١٣ وامضى هذه الفترة بين باريس
ولندن ، وغلب الادب الانجليزى فى نفسه على الفرنسى إذ رآه متمقا مع طبعه ..
« ومع أن اللغة الفرنسية هى لغة الافصح ، ولغة الادب الحر . ومع أن
باريس بؤرة الادب الاوربيه بل مشعلة الثقافة التى تعشوا الى ضوئها عيون
الأوربيين . ومع أن فرنسا لاتزال فى وجدانى فكره أكثر مما هى قطر . فاني
لاتجاهى العلى وحديثى فى مستقبل أيامى أميل إلى قراءه الكتب الانجليزية ،
واثرها على الفرنسيه لأن الانجليزية تعبر عن نزعه علمية تحقيقية كثيرا
مانجدها بعيده أوغائيه عن المزاج الدهنى الفرنسى . ولذلك اعزوت تربيتى الثقافية
إلى الانجليزية أكثر مما أغروها إلى الفرنسيه .. »

وفى لندن عرف ابسن ونيثشه . وتأثر كثيرا بهرناردشو وولز واندرجين
وغاندى وكارل ماركس وجيته ودستوفسكى وفولتير . ولما عاد إلى مصر
اشتغل بالصحافة وكتب فى الهلال والبلاغ وكل شيء . وأنشأ المجلة الجديدة
سنة ١٩٢٩ .

وهو يرى « أن المؤلف بالمقارنه إلى الصحفي يعدنا سكا ، فن المؤلف
ينزوى فى غرفته باحثا منقبا . ولكن الصحفي يخرج ويختلط بالمجتمع . ومع
أن أكثر جهودى فى الصحافة كان ثقافيا فى بحث العلوم والاداب فاني قد
مسست السياسة أيضا . وأحيانا اقتحمت غبارها حتى عصفت بى فى كثير
من الاوقات .. »

لذا أردنا أن نعرف شيئا عن حياة سلامة موسى الوجدانية لم نجد
فى مؤلفاته — ولا فى كتابه تربية سلامه موسى — ما يهديننا إلى هذا الهدف

وحياته في أوروبا في الأغلب لم تترك عنده أثر أو وجدانيا واضحاً إلا في حدود عباراته
... كانت شهواتي الملتزمة في تلك السنين ذهنية أكثر مما كانت جنسية .
كانت المرأة الفرنسية أعظم ما حرك وجداني الاجتماعي . بل كذلك كانت
حرية المرأة في أوروبا الغربية : فإن هذه الحرية كانت لهباً يلسع ويحركني
في كرامتي الوطنية كلما ذكرت المرأة المصرية وإلى هذه السنوات وإلى هذا
الوجدان عودتورتي بعد ذلك على التقاليد المصرية التي لم أعد أطيق صبراً عليها .

وهو يرى أن العزوبة تخدم الأدب أكثر مما يخدمه الزواج يقول « في هذا
العصر (١) الذي نعيش فيه حيث تتغير الأوزان والقيم الاجتماعية يحتاج الأديب إلى
الحرية حتى يفكر مخلصاً ويكتب مخلصاً . فإن كان أعزب استطاع ذلك . أما إذا
كان متزوجاً فإنه يلتزم الصمت حيث يحسب النطق ويرضى بالقيود حين
يحتاج إلى الحرية ويمندح التقاليد التي يدرك مدى خطرها ،

ولا تعطينا آثاره ما يمكننا من معرفة هذا الجانب الوجداني في حياته
وهو لم يتحدث عن الحب في الحياة إلا على طريقته العلمية الخالصة .

يقول « الواقع أن الحياة أكبر من الحب . وأن الإنسان يستطيع أن
يرصد حياته لعمل عظيم يستغرق كل عقله وكل قلبه وكل مجهوده . كأن
يتوخى تحقيق مذهب أو اختراع آلة أو توجيه شعب .

ولكن الحب هو السعادة أو أقرب إلى السعادة . وفيه تبلور أخلاقنا
وتبدو في جوهرها الأصيل . وهو يربطنا ويستنبط منا أسمى ما في أخلاقنا .

ولكنه يبدو مستقيم الرأي حين يتناول حب العاطفة وحب الجنس
فيقول « هناك خطأ شائع هو أن الحب بين محبين إنما يرجع إلى الغريزة الجنسية
لا أكثر . وهذا التباس يحتاج إلى بعض التحليل . فإن الاشتاء يرافق الحب

(١) كتب هذا سنة ١٩٤٢ .

ولكنه ليس أصله ، بل يحدث أحياناً أننا عندما نحب امرأة حباً عظيماً فإننا نرفعها إلى مرتبة من الطهارة ونسمو بحماها إلى معاني من القداسة بحيث تتقهقر الغريزة أمام هذه الاعتبارات .

ولكن الحب ينتمى إلى أصل آخر هو ذلك التعلق الذى نما فى طفولتنا وربطنا بالأم . وهذا هو الذى يجعل فى الحب حناناً ورقة ورحمة . ونحن حين نحب امرأة إنما فى الواقع نحب صورة الأم فى وجهها وقامتها وصوتها . لأننا قد نشأنا على أن نكبر من شأن الصفات التى تتحلّى بها أمهاتنا .

هذا ما يعطينا سلامه موسى من حديث عن الحب . فلا نستطيع أن نذهب بعيداً إلا حين يقول « أن حب الرجل يكاد يقتصر على المرأة ، أى على زوجته ، وكاتبنا فى هذا يصور الطبيعة المسيحية السوية التى تعيش على الزوجة الواحدة ، وتتأقلم فى محيط الأسرة وحدها .



يمكن القول بأن سلامه موسى انجليزى الثقافة ، تغزى فى الأسلوب ، عالم النزعة ، وقد استطاع فى خلال هذه الحقبة الطويلة أن ينقل إلى العربية عشرات من الآراء والأفكار والمذاهب الحديثة ، كان فى مقدمتها دعوته إلى الاشتراكية وقد بسطها فى الصحف وقربها إلى أذهان المثقفين والمتوسطين .

ولكنه شغف بكتابة القصة القصيرة فى السنوات الأخيرة مع أنه لم يعالجها فى شبابه ، ونحنا فيه المنحى العلى الذى يعالج مشاكل المجتمع أو مشاكل الحضارة .

يقول « كامفير » عنه « . . . وهو بالرغم مما اشتهر به من دفاعه عن الأسلوب البرقى وعدائه لتنميق العربية الكلاسيكية يكتب غالباً بأسلوب أنيق لا يخلو من بعض التنميق » .

وهو يفهم مهمة الكاتب وفق مذهب العلي وعلى ضوءه . . . « أسوأ (١) الناس هو ذلك الكاتب أو المؤلف الذي ينكب على الورق والحبر والقلم لا يعرف غيرها . فان شخصيته انسانية هزيلة . ذلك أننا يجب أن نكتب لكي نحيا ونحيا لكي نكتب وإذن يجب أن نختلط بالمجتمع ، ونشتغل بالسياسة العالمية ، ونكافح من أجل المبادئ الاجتماعية . ونحب جمال المرأة وبهجة الزهر ونضرة الحقل . يجب أن نشتغل بالسوق والبورصة والمصنع المزرعة . نسأل عن نظمها وأجور العمال فيها ومساكنهم وثقافتهم . »

وبعد فان سلامه موسى لا يزال على ارتفاع السن ، حاد القلم فوار العاطفة فيما آمن به من آراء . ولعل طبيعته العقلية الخالصة هي التي حفظت عليه شبابه فهو يمشي منصوب القامة سريع الخطا وهو لا يلبث أن يشتبك في معارك في الأدب أو الاجتماع يؤكد فيها ذلك المعنى الذي يذهب إليه دائما وهو أنه يسبق الجيل ! .

الدكتور أحمد زكي

بدأ حياته في محيط العلم والكيمياء والبحث عن الميكروب . ومقالاته الأولى في الرسالة سنة ١٩٣٢ — وهي أول ما قرأت له — لبست إلا موضوعات من العلم مكتوبة بأسلوب أديب ... وكان يطلق عليها قصة الميكروب ... ثم سلطة عليية ، وبين المسموع والمقروء .

ثم بدأ يكتب في الهلال ولم تكن أبحاثه ولا تزال أدبية خالصة ، إنه رجل يتصل بعواطف الناس وتجاربهم وأحاسيسهم وينفذ إلى أعماق المعاني النفسية والاجتماعية فيصورها في أسلوب فريد تخصص فيه وعرف به .

ولكنه في فجر حياته ترجم قصة « غادة الكاميليا » ليضع في معاني الكاتب روحه وعاطفته وأشواقه ... كما فعل الزيات في آلام فرتر .

وكنيت أحب فيه أن الأدب عنده يأخذ أسلوب العلم . وأنه يمزج العلم بالأدب مزحاً يجعله أقرب إلى السهل الممتنع . فلا نرى فيه جفاف العلم ولا ميوعه الأدب .

وفي خلال هذه الفترة كتب الدكتور أحمد زكي كثيراً . وملاً الدنيا بآثاره

وانتاجه . وإن لم يصدر له إلا كتابين اثنين : أحدهما « ساعات السحر »
والثاني « مع الناس » .

وبعد فما موضع الدكتور أحمد زكي في هذا الكتاب ! .

أنه يمثل في نظري الأديب العالم . حقاً . أنه لم يبدأ مع طه حسين وهيكल
والمازني وزكي مبارك وتأخر عنهم قليلاً .

أنه كان هناك يعيش في المعامل الكيميائية ولكنه لم يلبث أن خرج من
معمله ونزى إلى الميدان لينقل لنا العلم بلغة الأدب . ثم مضى في طريقه إلى
آخر الشوط .

وأما الدكتور أحمد زكي فجر شبابه في أوروبا حيث تعلم في إنجلترا والنمسا
يقول « تعلمت في أربع جامعات في إنجلترا ثم خامسة في أحضان الجبال . جبال
التيرويل بالنمسا وقضيت فيها أجمع عشرين سنوات أو نحوها استغرقت عنفوان شبابي
والجانب الأزهر من عمري . كنت في أول أمري بادی الحس مرهفة . ثم تعلمت
من القوم انثلامه وتعودت أن أسير في طرقات الحياة هادئاً بارداً لا أبالي وإن
تأججت في قلبي مما ألقى ومن ألقى جمرات . وتنقلت بن الأسر انزل بها . فارة
أحمد وناره أزم . وأسره لفتاه معنا في الجامعة نزلت بها وأقمت طويلاً .
وامتزج الليمون بالسكر في شراب بكوب . وشربت المر من هذا الكوب .
ثم قطعت الوشائج على العيون الدامعة . وكانت تلك العيون عيني » .

هذه تجربة الحياة في أوروبا . الرحلة والبحث وراء المجهول والمحب ...
والغربة والحرمان تظهر النفس الانسانية وتمدها بالضياء في كوب من الألم
وهناك تجربة الحياة الباكورة .

كنت صديقاً ذا حياء بالغ والحياء خوف ولوعده الآباء والأمهات
جميلاً وهكذا كانوا يعدونه ونحن صبية . والخوف لا يشحذ عليه مقلب أو ناب
والأذى يهدى إلى الناس لا يكون إلا مقلب أو ناب .

وأدركتني الرجولة فاصابني بنوبات من زهد في الحياة . تأتني ثم تزول
واضحك وراءه نظرات إلى أصول الحياة ثاقبة . تغرى الناظر بالحزن والكآبه
فاذا جاء هذا الرجل يتحيف لي حقاً ، أو يوقد النار في طرف ردائي خلعت
ردائي ودست النار بحذائي ثم ذهبت سبيلي وأنا أقول لا بد في الحياة من عنث
وهذا بعض عنثها .

وقد أغضب فادمدم وأفقد وعي فهلح الناس من خشيه ومن الغضب
المجنون ثم ينحسر السحاب ويعود الصفاء وأرى الشمس يهيج ساطعة وفي
ضوء الشمس السافرة أعود فأرى شئون الحياة على حقيقتها قليلة الخطر
قصيرة العمر وأرى الناس على حقيقتهم من ضال ومهتد ، وليس على الضال
تبعه ضلاله . وليس المهتدي فضل اهتدائه .

هذه كلمات فليسوف وهي مزية الدكتور أحمد زكي . إنه رجل خبر
الحياة وليست أبحاثه ودراساته إلا هذه الخلاصات من التجربة .
لقد بدأ حياته مثالياً . ولكن هل مضى هكذا أم اضطرت له الدنيا
إلى شيء من الملاينة ومواجهة الأمور بالواقعية .

« غلبتني في الشباب فكرة المجد . وفكرة السمو على المادة . وهي فكرة تتصل
بالأهداف العليا من الحياة . ومن شأن هذه الأهداف أن تبعد عن الأسباب
التي تؤدي إلى الكسب والكسب الكثير . فكثيراً ما صادفت في حياتي
كسباً كثيراً أو باباً يؤهل داخله للكسب الكثير فاشحت عنه .
... ترك مصر على أثر عرض سخي ، عمل وزيجه غنيه ، قال لا ...
في آخر لحظة . وأصبح على الباخرة إلى الحرية .

« وتماديت في التقليل من أمر المال حتى اتخذت زوجتي من لفظه المجد
موطناً للتهكم على . عندما تريد أن تمزح . وإذا بي أقرب من الكهولة ،
ويبدو أنه ندم على هذا الاتجاه عندما تبين له أن كل شيء يشتري بالمال
حتى الآخرة والجنه .

« وأول درس تعلمته أن نطلب المال لننفقه في سبيل الله ولنحرق به أنفسنا وفكرنا وعرضنا .

وفي الصداقة تحول أيضاً « مرني زمان آمنت فيه بالصداقة وبقوتها واعتمدت عليها . ثم جرت الحياة فإذا بالصداقات تقف وإذا بالاخلاص يضعف فتقلب الصداقة خصومة . ووجدت في آخر الحياة أن خير ما يفعل المرء ألا يعتمد على أحد وأن يعتمد على نفسه فرداً ، وحتى الأبناء لا يغنون ، ومن هنا تبدو حياة الدكتور أحمد زكي حافلة بالتجربة والرحلة . فأى ألوان الأدب إليه : كل ألوان الأدب حبيبة إلى ، ولكن ، لعل أحبا ذلك الأدب الذي أجلس إلى كتابه فيحدثني كأنما هو جليس يقول لي وأقول له ... الأدب الذي لا يخرج عن إحدى اثنتين . إما عقل جباراً أو عاطفة جارفة . الأدب الذي يتفق به الذهن تفقق البراعم في الزهر . والربيع في ابانه .

وأكره ما أكره في الأدب ذلك الشيء المائع . والذي ليس به صلابة الرجل ولا نعومة الأثني ، وشئ آخر في الأدب صغر عن أن يكون أدبا . تلك الألفاظ المروسة التي لا تحمل معنى .

وفي حياة الدكتور أحمد زكي أكثر من رجل تأثر بهم وأفاد منهم . ولكن والده هو الرجل الأول . عليه الإيمان ، وعلمه الأدب « وادب المتنبي خاصة ، ثم مصطفى كامل تأثر به في نعومة اظفاره ، وتأثر بعبد العزيز فهمي ولطفي السيد ، وتأثر بالأموات أكثر مما تأثر بالاحياء

ولكن هل في حياة الدكتور أحمد زكي امرأه . . انه يجيب بقوله « وای رجل لم تلعب المرأة في حياته دوراً . إن الحياة حافز من حوافز الحياة الكبرى ، والمدرسة والكلية والجامعة ان علمت الشباب ماعلمت ، ووسعت من عقله ما وسعت ، فليس معلما للقلب وموسعا لآفاقه ، كالمرآة ، بالمرآة تنبت في قلب الرجل كل حس بالحسن جميل ، وكل عاطفة بالخير مشبعة ، والرحل يغامر ولكنه أكثر مغامرة إذا وقفت وراءه امرأه .

والمرأة التي كانت في حياتي زوجتي ،

* * *

وفي ميدان الشعر للدكتور احمد زكي جوله . كان في شبابه الباكر ينظم الشعر . بدأ ذلك عندما بدأ قلبه تدخله اول احساس الحب . وكان ذلك في الثامنة عشرة .

ولكنه لم يذهب مذهب الشعراء ، وليس له ديوان . وإنما احب شعر المتنبي والبحرّى وابن رومي وتأثر بهم .

ويقرأ الدكتور احمد زكي كثيراً ولكن هو للعلم قبل الأدب ، وإن المائدة الأولى في حياته طبقها الأول والأصيل والأخطر هو العلم وما الأدب عنده إلا فاكهة تأتي في آخر المطاف وهو يحتّم بالأدب عندما يستخف العلماء ويحتّم بالأدب عندما يستخف العلماء .

وأنسب وقت عنده للكتابة هو السحر . بعد انتصاف الليل إلى أن يصبح عند الفجر الديك « وكثيراً ما أرى شقشقة الصباح فاقف عند النافذة اتنعم نسائم الصباح الباردة قبل أن أعود إلى الفراش أستكمل نوما . وبعد فما كان الدكتور أحمد زكي في الأدب المعاصر .

الحق أنني أعدّه من كتاب التأمل والغوص إلى أعماق النفوس ، والبحث عن السرائر والشائتل في حياة الناس ولأسلوبه الذي يترج فيه العلم بالأدب أثر في طرافه هذا الفن الذي استحدثه بعرض خبرته وتجاربه وقرائه في هذه الأبحاث الاجتماعية ، وهو في هذا الجانب البارز من إنتاجه فيلسوف .

ولاشك إن كان لرحلاته وأسفاره أثرها في تكوين هذا الطابع الواضح المميز في إنتاجه وعرضه للمسائل وهو وإن لم يكن من أوائك المصاردين الذين يرغبون في دخول جلبة السجال والنقاش . وإنى لأراه من أوائك المسامين

الراغبين في الجنوح عن الناس والسكنه يدفع هذا الرأى حين يقول : وعلمتى
الحياة شيئاً من عناد هو عناد الفكرة ، أثبت عليها ما اقتنعت بها . ولو قام
الخمس الرجال والعشرة من حول المائدة يدللون على بطلانها وقد تزعزعت
المعارضة القوية فأكد اتهم بصيرتى ، ثم أعود إلى نفسى أقوى ما أكون
إيماناً بها .

والدكتور أحمد زكى فى الحديث والإلقاء طريقة كنت أظنها تكلفاً غير أننى
حين جلست أتحدث معه رأيتها طبيعة فيه وهى تعطى ذلك المعنى الروحى الجميل .
معنى القلب الخافق والنفس الجياشه التى حد العلم من جيشانها وأعطاها هذا
اللون الوقور من الآناة والاثاد .

كامل كيلاني

بدأ كامل كيلاني حياته الادبية على أسلوب يوحى بأنه سيأخذ مكانه الطبيعي ، بين صفوف الادباء والمؤرخين .
بل أن اتجاهه التاريخي كان غالبا على اتجاهه الادبي ، تشهد بذلك مؤلفاته . ملوك الطوائف ومصارع الخلفاء ، ومصارع الأعيان ثم برز اتجاهه إلى الشعر ، فهو شاعر يحنى أثاره الشعرية ويحتفظ بها لنفسه ثم بدأ يراجع ابن زيدون ، وابن الرومي
ثم اتصل بالادب الاندلسي ، وترجم كتاب نظرات في تاريخ الاسلامي لدوزي ، واتجه بعد ذلك بعنف إلى المعري ، وعاش طويلا معه ، وأخرج رساله الغفران ، إلى هنا ، كان كامل كيلاني قد أنفق صدرا من حياته في هذا الجو الأدبي التاريخي الشعري . فكيف قفز بعد ذلك إلى القصة فعاش لها وحشد لها جهوده كلها حتى اخرج قصصا تربو على المائة والخمسين . . ؟

الواقع أن هذا الاتجاه القصصي عند كامل كيلاني إنما كان نتيجة طبيعيه لطابع شخصيته ومعالم نفسه ، ولو أنه لم يكتب القصة لعق فئارته ولظل

في عداد « الأدباء » ، ولم يقف إلى صفوف « الرواد » ،

أن كل أثر من آثار كامل كيلاني في مستهل حياته الأدبية يعطينا
خيطة من خيوط شخصيته القصصية كما جاءت بعد ذلك قوة خلاقه عندما
ابدعت هذا اللون الجديد في الأدب العربي . وهو قصص الاطفال .
فان التاريخ والشعر والأدب كلها نوافذ على الفن القصصي واعداد له .
وهو « النواه » التي تخلق الرواية . .

فاذا عدنا إلى الوراق ، إلى حياه كامل كيلاني وجدناها قد رسمت وفق
أسلوب قصصي ، فقد تفتحت روحه على الاسطورة العربية ، فاندفع يقرأ
كل اسطورة في كل أدب

قرا ذات ذات الهمة ، وعنتره ، وسيف بن زى يزن ، وفيزوز شاه ،
وحمة الهلوان ، والظاهر بيبرس وهى فى مجموعها تبلغ ١٧٠ كتاباً ولكن هذا
الرصيد الضخم لم يكنى القارئ الطلعة ، الذى اندفع يقرأ الاساطير فى الأدب
الأوربي ، روبنسن لروز ، وجفلى ، وغيرها من اساطير الهند واليونان فانشأ
بهذه القراءات فى أعماقه منطقة سحرية عجيبة ، ظل يعيش فيها حتى انفجر
حاجزها عندما بلغ غاية قوته ، على هذه الصورة الرائعة .

وأمدته التاريخ بالمادة الخام ، فقد قرأ إلى هذه القصص ، أمهات كتب
التاريخ ، وأمدته الشعر باللوحات الفنية ، وهو فيما يروى — قرأ كل مخطوط
ومطبوع من شعر العرب ، ثم أمدته الأدب الانجليزى والفرنسى بالوضوح
والبساطة والدقة . .

* * *

احب كامل الكيلاني شخصيتان فى الأدب العربى ، وكلف بهما كلفاً
عجيباً : هما « المعرى » و « جحا »
وهو يقول فى ذلك أنهما يجمعان فى نفسه أهواءه وآرائه وأصداء نفسه

فهو جماع بين « المعرى » العابس المتجهم و « جحا » الباسم الساخر .
ولعله انشأ فن قصص الأطفال لأنه لم يجد في شبابه قصة عربية صالحة .
تسد هذا الفراغ ، فلما أحس التفوق أقبل عليه بفهم ومقدرة ، وهو أيضاً قد ضاق
بما أولى الأدب الانجليزي شخصيه « نصر الدين خوجه » جحا التركي ، هذا
التقدير ، في حين أن جحا العربي « الغصن دجين بن ثابت » أقدم منه تاريخاً ،
وان أغلب ما نسب إلى نصر الدين هو في الحق - على حد قول الكيلاني - من
آثار أبو الغصن ..

وجحا أبو الغصن يمثل الشخصية المصرية المرحية الفكاهية .. وتقوم فلسفة
فكاهته على قاعدة : عامل الناس بما اختاروا أن يعاملوك به
ومثل ذلك أن أصحاب جحا قالوا له وقد وجدوا عنده « خروفاً » سمينا ، أن
القيامة ستقوم بكره ، ولذلك فإن الحروف لا بقاء له وذبحوه ، وأوقدوا النار
لشيء ، فجاء جحا وألقى بملابسهم في النار . . فلما سألوه دهشين لماذا فعل
هذا : قال ألم تقولوا أن القيامة ستقوم بكره ، إذن فلا حاجة إلى هذه
الملابس . . .

* * *

يقول الاستاذ الكيلاني أن « الاسطورة » دعامة حياته .. لقد كان الابن
الرابع عشر لأمه بعد أن مات أخوته ... فنشأ في جو سحري يعبق بالاساطير
والآغاني . . .

فلما بدأ يقرأ تلقى أولى دروس الأدب على يد بائع بسبوسة وشاعر على
الربابة وعربجي . فلما بدأت صور الاساطير تتبلور في نفسه كتب أول قصة « سيرة
للأمير صفوان وما جرى له بالتمام والكمال والحمد لله على كل حال . . »
وكان الحاج مصطفى الحلبي بائع البسوسة .. هو أولى من كون ملكته
الادبية ، وهو غير الحلبي الناشر ، وكان هذا البائع يحفظ عن ظهر قلب
قصائد الشاعر الصوفي عبد الغنى النابلسي .

ثم تلقى دروساً أخرى ، على يد الشيخ محمود الملاح الشاعر الذى كان يغنى على الربابة فى القهوة المواجهة لحارتهم وكانت صداقته الأسطى محمد الشيخ العربى من امتع الصداقات الأدبية .

ويروى الأستاذ الكيلانى قصة طبع سيره الامير صفوان فيقول أنه أرسلها إلى حد الكتبيه فى شارع الازهر ، فاعجب بها وطلب مقابلته المؤلف ، فلما ذهب إليه ، وكان يلبس جلباباً فقيراً وفيقاباً وسننه إذ ذاك خمسة عشر عاماً . . وكان يبدو أقل من ذلك ، نظراً لنحافة قوامه وقصر قامته مما حمل الشاعر شوقى على أن يسميه « عقرب الثوانى » (١) . .

فلما رآه الكتبي قال : ابنه .. أى أنت ابن المؤلف ، فقال له بل هو انا المؤلف نفسه ، فنظر إليه فى شراسه وقال : اذهب وعندما تكبر عد ..

ومضى الكيلانى حزينا ضيق الصدر ، تدور به الدنيا ، فقد فشل فى المعركة الأولى .

...

وكامل الكيلانى لا يفضل أدب على أدب ولا كاتب على كاتب آخر ولا قصيدة على قصيدة أخرى إذ أن « آية الجمال أنك تعيش مع كل عظيم فتراه أشبه بالحسناء التى تنسيك جميع الحسان . »

أما أبا العلاء فيختلف ويميزه عند الكيلانى أنه يعبر عن كل أفكاره . فهو يرى نفسه شبيهاً به « انسى الولادة وحشى الغريزة » ويرجع هذا إلى أنه ولد فى احضان جبل المقطم ، فالف منذ طفولته العزلة الباكه وفلسفته فى هذا أنه لا يرتبط مع العالم إلا فى أضيق الحدود ، وقد كان هذا مما اتاح له أن يقرأ ويستوعب ويحفظ أكثر من عشرين ألف بيت من الشعر

(١) الكيلانى كمقرب الثوانى قصير ولكن له سريع الخطى منتج يأتي بدقائق الامور

وأهم حادث أثر في مجرى حياته ، وهو أن طائفة من أصدقاء ماتوا سنة ١٩١٤ بالهيمضه ، فقد هم فجأه ، وكان بعضهم أقوى منه صحة ... فأحس بأن القدر قد تخطاه خطئا ، وإن ما بقي من عمره إنما هو زيادة ورسم الحادث له فلسفة عميقة في الإيمان بالقدر ، والاستهانة بالحياة . . . وسأل مرة لو بقي يوم من عمره ماذا بفعل ، فاجاب : أأكمل آخر ملازمه من كتابي .

... واصيب مرة بازمة قلبية ، فلم يميزه خلالها الا انه لم يقرأ كتاب « برودكستر » وهو من ابعد الكتب التي قراها اثرا في حياته وقد توفر على قرائته بعد ان ابل من ازمته ... حتى لا يندم عليه لو المت به ازمه اخرى



هذا الشاعر ، هذا الرجل الذي عاش في الاساطير ، والقصص والروئى بين الف ليلة وبين حروب سيف بن ذى يزن الذي يحبه كثيرا . . . هل له قلب . هل أحب . . . ، ماذا كان أثر الحب في أدبه وحياته . . .

أن قصة قلب الكيلاني لم تكتب على الصورة المروعة التي يحتفظ بها في أعماقه ، .. أنه لا يريد أن يطلع أحداً على هذا السر في هذا السن ، ولكن قصة « سنيه » في مجموعته القصصية « مختار القصص » تعطي صورة قريبه لفرتر الذي أوشك أن ينتحر فعلا ، لولا خاطر شعري كان سببا في انقاذه ، هو أنه لم يودع فراشه الذي امضى حياته في احضانه ، وهو ودود الوف . . . بالطبع !

هذا الحب دفعه إلى أن يحفظ ديوان العباس بن الأحنف ، ويسترجعه ، وتراءى له في خلال شطراته ، احلامه وأماله ومشاعره . . .

لقد أحب العباس بن الأحنف حباً صادقاً نقيماً ، وكذلك أحب
الكيلانى ..

* * *

ولا تكتمل شخصية « كامل الكيلانى » إلا إذا تحدثنا عن ندوته ، فهى
جزء من شخصية . أن فصولاً كامله من تاريخ الأدب المعاصر يجب أن
تكتب فى ندوه الكيلانى ، فإن أحاديث شوقى ومطران وداود بركات
وأحمد زكى شيخ العروبه وشهبندر وصادق عنبى التى جرت فى هذه الندوه
هى عصاره هذا التاريخ الحى ..

* * *

زوجات في الادب العربي المعاصر

كثيرا ما تكون الحياة الزوجية أشبه بالزهرة المونقة ، الرائعة المظهر ، العطرية الشذى . في مظهرها وطابعها ، وكثيراً أيضاً ما تكون أشبه بالزهرة في سرعة ذبولها .

... وهم كتاب أربعة ، عرفوا الحب ، وجمعهم الزواج بمن أحبوا ، ثم شامت يد الموت ، أن تفرق بينهم وبين من أحبوا فكان « موت الزوجة » فاجعة بعيدة الأثر في حياة هؤلاء الكتاب والشعراء ، فأطلقت أفلامهم ، وأسالت على شباتها شعراً وثرأ . غاية في الروعة والقوة ، تفي الأجيال ويظل هو خالداً ، يصور ذلك الحزن المقدس الذي انطوت عليه نفوس أحببت ووقدت ، وعاشت على ذكرى من تحب .. لم يكن رثاء الزوجة معروفاً من قبل في الأدب العربي ، فهو « فن مستحدث » وتعد قصيدة البارودي - الشاعر الذي يضعه النقد علماً على أولى مراحل النهضة الشعرية في الأدب العربي الحديث باكورة هذا الفن .

أيدي المنون

كان البارودي قد نفي إلى جزيرة سرنديب مع العراقيين ، وهناك في منفاه وبعد أكثر من عشرة أعوام جاءه البناء ب وفاة زوجته في مصر .. فتلقاء الرجل الأسير في جزع وحزن بالغين . إذ كانت سنة قد علت ، وكان النفي قد هدقواه ...

وهذه أبيات من قصيدته الحزينة :

وأطرت أي شعلة بفوادي	أيد المنون قدحت أي زناد
وحطمت عودي وهو رمح طراد	أوهنت عزمي وهو حملة فيلق
حتى منيت به فأوهن أدى	ماكنت أحسبني أروع لحادث
تقوى على رد الحبيب الغادى	لا لوعتي تدع الفؤاد ولا يدي

يا دهر فيم لجعتني بخليلة
 إن كنت لم ترحم ضناى لبعدها
 أفردتهن فلم ينمن توجعاً
 ألقين در عقودهن وصغن من
 يسكين من وله فراق أحبة
 هيهات بعدك أن تقر جوانحي
 ولهى عليك مصاحب لمسيرتي
 فاذا انتهيت فأنت أول ذكرتي
 سر يا نسيم فبلغ القبر الذى
 كل امرئ يوماً يلاقى ربه
 كانت خلاصة عدتي وعتادى
 أفلا رحمت من الضنى أولادى
 قرحى العيون رواجف الأكباد
 در الدموع فلائد الأجياد
 كانت لهن كثرة الاسعاد
 أسفاً لبعذك أو يلين مهادى
 والدمع فيك ملازم لوسادى
 وإذا أتهيت فأنت آخر زادى
 بحمى الامام تحيتى وودادى
 والناس فى الدنيا على ميعاد
 ومهما يكن من سذاجة التعبير وبساطته فان القصيدة تنطوى على «لوعة»
 حزن صادقة ، وتصور الازمة النفسية العاتية التى ألمت بالبارودى حين انبىء
 بوفاة زوجه وهو فى منفاه وأن بدا عليه التجميل والاعتصام بالصبر والايمان
 أنات حائرة

فجع الشاعر «عزيز أباظه» فى زوجه ، فأخرج ديواناً كاملاً من قصائد
 الرثاء لها ، فكان بذلك أول عمل أدبى كامل عن رثاء الزوجة فى الأدب
 العربى المعاصر ويبدو (عزيز أباظه) فى شعره مثال المحب الوفى ، الذى ترفع
 حبه عن الدنيا وتبرأ من الاثم ، فلما فقد من أحب صار عته أهوال الحياة ،
 فذهبت به إلى كل مكان .

ولما أن ضاق صدره ذهب إلى أرض النبوة وطاف بالكعبة .. عليه يجد
 لأزمته الروحية فرحاً ، ولكن دون جدوى !
 وهذا نموذج من شعره عنها فى الحرم :

وقفت أناجى الله عند المشاعر وقد خشعت نفسى وجاشت خواطرى
 فقلت له قد شفها فاذا بها ضنى دب حال من العمر ناضر

وحاقت بها الأحداث شتى شكولها
أخ فأخ ثان فثالث
تلقت على ضعف مصيبات فقدم
وزالت كطل الفجر لم تخل ورضة
وقلت له يارب أقم صادقاً
فما برمت يوماً بداء ولا شككت
ويقول في قصيدة أخرى :

يذكرنيك كل جليل أمر
إذا سكب الصباح فأنت همي
جمعت على الهوى طرفي نهاري
رعاك الله ما فارقت روعي
ذكر القصر ذا الإبهاء تلو
يرف رفاهه وسنى ويشرا
فما زالت صروف الدهر تجري
فماثوا كالنجوم الزهو خمسا
حملت مصيرهم فعميت حزناً
وكل يسيره فتدوب نفسي
وإذا وقب المساء فأنت أنسى
كأنى لم أرع بنواك أمسى
وإن فارقت بعض الوقت حسي
قواعد على كرم وترسى
كما زفت عروسي يوم عروسي
بمكروه من الأقدار نحسي
وما كانوا وحقك غير خمس
فرحت شهيدة تفديك نفسي

من وحي المرأة

لاشك أن حباً عظيماً ذلك الذي استطاع أن يخرج للأدب العربي هذه
الآيات الخالدة من الشعر والنثر ، فهذه القصائد والصور التي أخرجها بالشعر
عزيز أباطه وعبد الرحمن صدق وبالنثر سعيد العريان لجديرة بأن توحى إلى
النفس الثقة بوجود المرأة الملهمة في مصر .

... لم يكن عبد الرحمن صدق بالشاعر المنتج ، وإن كانت له قبل
الفاجعة بعض مقطوعات وقصائد كان يقولها بين آن وآخر .

ولكنك تعجب ، حين ترى صدق يسرف في إبداع الشعر ، إسرافاً عجيباً ، بعد هذه الفاجعة ويكتب بضعاً وسبعين قصيدة في فترة لا تتجاوز العام .

وهي قصائد جيدة ممتعة رائعة — كقصائد عزيز أباظه — وهي جيدة السبك ، دقيقة الأداء ، مشرقة الديباجة ، واضحة الملامح تصدر عن نفس صادقة في المأ وجزعها .

وتسأل صدق عن سر ذلك فيقول لك : إن النثر لم يشأ أن يطاوعه في الأداء بعد هذه الفاجعة ، واستجاب له الشعر .

كان يرى صدق في زوجه حاجة العقل والحس والنفس والروح ، ورفيق الرحلة وخير سمير للحديث ينضد ، ويجلسان الأشعار يدرسانها معا . ويمتاز شعر صدق بأنه يصور آلام نفس صادقة الحس ، وأحزان روح مفعمة باللوعة ، ولكنه يتعالى عن الصراخ .

وقد تسامى صدق بالحزن حتى جعله مادة فنه ، ونفس عن الألم بالصورة الرفيعة ، يقول في وصف زوجه :

تأملتها زوجي فنظرها الغض
بدائع خلق قد تآلف نظمها
لقد دنت بالحب الذي انتظم الدنى
إلى أن دعا داعي المنون بزوجتي
وعنى على هذى الكمالات كلها
توليت كالمجنون أعول منكراً
مضى العام لأقضى التعجب مذققت
ويقول في قصيدة أخرى :

أيا غرفة مرموقة لصق غرقى
مطفأة الأنوار رهناً بظلمه

رى بابك المطروق بالأمس موصداً ومخدع زوجى أنت بل أنت جنتى
فأدعو بزوجى وهى جد سميعه لا بمعرى ولكن الصدى رجع دعوتى
لقد كنت يا زوجى لدى الصبح موقظى وكنت حسبي فى خروجى وأوبى
فما لى لا ألقاك يومى وليلى وبابك من باني على قيد خطوتى

تحت الرماد

ثم يجيء دور الرثاء فى النشر ، هذا الرثاء الرائع الذى كتبه سعيد
الغريبان ونشر منه فصولاً فى الصحف سنة ١٩٤٠ ، سنة (١) ١٩٤١ .
يتمثل فى هذا الرثاء الإيمان والصبر والحنين والحب الدافق العميق ، فقد
كانت مأساة الأستاذ الغريبان — تتمثل له فى كل لحظة فى صورة الطفلة التى
تركبتها أمها فى يومها الأول .. استمع إليه فى يوم الذكرى الأولى لوفاتها :
« هذه الشعاعات المنبعثة من شتى جهات المدينة ، وضواحيها صاعدة إلى
السماء ، تلتقى وتنفرد .. وتألف وتختلف . اكأني رأيتها قبل الليلة .. وفى
مثل هذه الليلة ، عم تبحث فى حواشى الأفق وتبعتها عيناي ..
إن لى فى السماء ضالة أشدها .

... وأغمضت عيني فرأيت حفيف الشجر فى الحديقة حفيفاً أعجم ليس
له جرس ولا معنى ، كان « شيئاً » .. يتخذ طريقه من خلال العصور المتشابكة ،
واستروحت عطراً الفته منذ سنوات ، واسكرني الشذى فضرب على عيني
وايقظ وجداني ... أيها الطيف الذى أنعم بالوداد فى أول ليلة من ليالي
رمضان ، ليتنى وليتك ... ليتنى وإياك لم يكن لنا فى هذه الحياة تاريخ ..
لا .. بل سيخلد هذا التاريخ ويبقى .. إننى لأضن به على النسيان ..
وفى قطعة أخرى يصور قصة تاريخية لطفل يتيم فيقول :
وقف عزرائيل يوماً بين يدي ربه فسأله الله سبحانه وتعالى . ألم تأخذك الشفقة
يوماً بمخلوق أمرت أن تقبضه ..

قال . لك الحكمة يارب .. سألتني مرة أن أقبض امرأة ، جاء أجلها وأنها
على الطريق في مغارة موحشة ليس فيها صوت ولا صدى وبين يديها جنين قد
وضعت له ساعتها ، لم يفتح عينيه على نور الحياة بعد ، ولم يلقم ثدي أمه ، ليس
بينه وبين الأحياء سبب إلا هذه المريضة النفساء .. قد حان أجلها ...
فداخلى يارب بما رأيت رأفه ووجد .. وأوشكت — ولك العصمة — إن
أعترض ولكنى صدعت بأمرك ..

وخلقت في الصحراء حيا على صدر جسد هامد ...
وبعد فهذه قصاصات مما كتب العريان في موضوعه ، في أزمتة النفسية ،
أزمة فقدته لزوجته ولكن ماذا نعمل وسعيد لا يزال يضمن على الأدب
العربي بكتابته « تحت الرماد » الذي صور فيه مأساته ، ويقيني أنه من أروع
الكتب في فنه وبابه وموضوعه .

أشترك عزيز أباطة ، وعبد الرحمن صدقي ، وسعيد العريان في مأساة
الزوجية المحبة الصادقة الود التي ملأت فراغ نفس صاحبها الكبير النفس ،
ثم عاشت معه .. أياما أو سنوات كانت من أيام الفردوس ، ثم مضت إلى
ربها .. وخلقت في قلب الشاعر أزمة عاصفة .. نفس عنها قلبه البارع بفن
رفيع سيخلد على الأجيال .

اضواء على نفسيات الالباء

أردت بهذا الكتاب في اجزائه الثلاثة — وهذا أحدها — أن ألقى بعض الأضواء على حياة الأباء المعاصرين وأن أتناول هذه الحياة وفق أسلوب الدراسة النفسية الحديثة وأن أربط بين الأدب والأديب ، وبين الكاتب والانسان .

وان أبحث عن نفسية الكاتب في أدبه . وأجعل من هذه الدراسة مقدمه لدراسة أخرى أكثر استيعاباً وشمولاً . وأكثر موضوعية وتركيزاً : هي دراسة « نزعات التجديد في الأدب العربي المعاصر » ،

وأشهد أنني منذ عام ١٩٣٠ على وجه التحديد ، بدأت أجمع مواد هذه الدراسة وجذاذتها وكل ما يتصل بها حتى بلغت الآن أكثر من ثلاثة آلاف جذاذه ، وما أراها أوفت على ما أريد أن أصل بها إليه وأنى لأرجو أن أتابع هذا البحث حتى يصدر شاملاً يراه القارئ والأديب والباحث في تاريخ الأدب العربي المعاصر دعامة لاسبيل إلى تجاهلها أو تجاوزها أو إنكارها .

وقد كان على أن اتصل بادبائنا الأحياء وأن أجرى معهم الكثير من الأحاديث لأربط بين الأسانيد التي بين يدي وبين الأشخاص أنفسهم . وأن أكمل ما قد يكون هناك من نقص فيما عندي من أبحاث . وقد أتاح لي هذا اللقاء فهمًا عميقًا وألقى الكثير من الأضواء على هذه النفسيات وأمدني بفيض من المعرفة الحققة للانسان الكامن وراء الأديب

لقيت العقاد مرات ودارت بيني وبينه أحاديث واستمعت إليه في صالونه يوم الجمعة وقابلت سلامه موسى مصادفه في الترام وتحدثت معه عن آثاره . واتيح لي أن أمضي مع الاستاذ الزيات لقاء خاطفاً في الأزهر يوم كان يحرق مجلته .

أما تيمور فقد صاحبه طويلا والممت لديه بهذه النفسية العذبة الهادئة
الرفيقة .

وأضيت مع فريد أبو حديد سهرات في داره الريفية في الزيتون وحدثني
طويلا عن حياته وأدبه وأقيت توفيق الحكيم في دار الكتب ومضى يحدثني
ساعات .

أما طه حسين فقد عشت معه أمسيات حلوه عاطره في صالونه الأدبي في
الزمالك وصادفت هيكلمره في دار الاتحاد النسائي وحدثته عن ما كانت
تروى الصحف اللبنانية عن تهريب بعض مؤلفاته الإسلامية إلى حدود
تركيا ولقيت غير هؤلاء من أدبائنا الشباب وكتابنا الأحياء
وقد كان حبيبا إلى نفسي أن اتناول بالدرس شخصيات أخرى لمعت في
محيط الأدب فتره ثم أنطوت أوهي تحولت من ميدانه إلى ميادين أخرى
كالدكتور منصور فهمي . كما فرقت في هذه الدراسة بين الأدب والصحن بالرغم
من أن هناك صحفيون لهم أسلوب أدبي . وبالرغم من أن أدبائنا كانوا صحفيين
في الأغلب .

ولقد أتيج لي أن اسجل بعض المذكرات عن بعض هذه المقابلات .
ومنها مقابلات (١) الدكتور طه حسين الذي حدثني عن أساتذته من اتصل
بهم في أول الشباب في محيط البحث العلمي ، أنه يرى لهم عليه فضلا
كبيرا لا يقدر ، من هؤلاء لطفى السيد والشيخ سيد المرصني وأحمد
زكي باشا . وقد دله لطفى السيد عن « قيمة الأشياء » وفتح له باب
التفكير الأوربي الحديث . وفتح له سيد المرصني باب انشاء « الذوق الأدبي
الكلاسيكي » . وهيا له أحمد زكي باشا الترن على البحث العلمي وتحقيق
النصوص . ولم ينس فضل الشيخ الحضري وحفي ناصف والشيخ محمد المهدي

وفي مقدمة من اتصل بهم من المستشرقين الاجانب وأولهم وأهمهم
« نالينو » الايطالى « وجويدى » الكبير فى أول العهد بالجامعة . « مليونى »
الذى عرفه بالتاريخ القديم للبابليين والاشوريين ولم يكن قبل ذلك معروفا .
و « ساتلانا » الذى درس له الفلسفة الإسلامية .

أما فى أوروبا فقد درس تاريخ الرومان على جسوستاف بلوك وتاريخ
اليونان على جلوتى وعلم الاجتماع على دركاين
ولقد سألت عميد الأدب رأيه فى الأدباء المعاصرين فرفض أن يتحدث
عن الأدباء الاحياء ولما عرضت عليه أسماء بعض من افضوا إلى رحمة الله قال :
أن أقربهم إلى نفسى : مصطفى عبد الرزاق

.. لم نكن فى الشباب زملاء ، ولكن المودة وحدث بيننا على اختلاف
السن ، ثم أصبحنا زملاء لاسما عندما قدمت استقالاتى من الجامعة . . وهو
صاحب ذوق فى الأدب ممتاز . ومتأثر بالقديم بحكم تعليمه وتربيته وتأثير والده .
وهو من أشد الناس حبا للبهاء زهير . وقد ألف فيه كتابا . وله شعر يغنيه
أهل مدينة المنيا .

وهو يحب الأدب المصرى القديم . ثم أحب الأدب الكلاسيكى بعد عودته
من أوروبا ، وانشأ له أسلوبا خاصا فى الكتابة .

وهو مقل بطل . يكتب على مهل . ويعاود كتابة بالصقل والتهذيب
حتى يصح أن يوصف بأنه كاتب صناع . ويرجع هذا إلى حكم المهنة باعتباره
من أساتذة الفلسفة الإسلامية ولم تخرجه الابحاث الأوروبية عن التأثر بالقديم ،
ويكسب الأدب المصرى كثيرا لو أن أسرته نشرت مذكراته فقد كان لا ينأى
قبل أن يكتب مذكرات وافية عن يومه كله . .

فلما سألته عن الدكتور زكى مبارك . قال كان يذكرنى دائما بابى حيان

التوحيدى . فقد كان أبى حيان عالماً ممتازاً وكان رائع العبارة . ولكنه كان لا يبالى الحق ولا يبالى الباطل وقد أنهى أبى حيان حياته بأن أحرق كتبه كلها . وغاية القول فى زكى مبارك أنه فلاح أزهرى سافر إلى أوروبا ولم يستطع مقاومة الحضارة الحديثة ، واندفع وراء اللذات البسيطة السهلة . وكان قد بدأ حياته الأدبية بمقالات يتهم فيها بأننى سرقت محاضراته وقد كان تلميذى فى الجامعة المصرية القديمة . وكانت سنة أكبر من سنى . وكان يكتب إلى « حضرة والدنا الدكتور طه حسين » وسألت الدكتور طه عن قصة « أحمد الله إليك » التى كتب عنها الدكتور مبارك فصلا فى الرسالة سنة ١٩٣٨ فنفاها وقال إنها من أكاذيبه .

* * *

وسأله عن المازنى فقال : أن العلاقة بينهما لم تكن على صفاء كبير وكانت كل كتاباته تصدر عن طبيعته ونفسيته ، وما كان يبنى ويده أنه عندما صدرت جريدة الاتحاد وكنت رئيس تحريرها كان يعمل معى . وكان يكتب فى الاتحاد نهاراً ويشتمنى ليلاً فى جريدة الأخبار . وكانت آخر مناوشة ببنى ويده حول شعر عزيز أباظه .

وما رشح المازنى للمجمع . كنت أول من انتخبه . ولكنه على طريقته لم يصدق . وتكلفت كثيراً حتى أقنعتة .

وهو كاتب ممتاز يجمع بين الأسلوب القديم والسخرية اللاذعة . يكتب بأسلوب عبد القاهر ويمثل العقلية القاهرية . وشخصية ابن البساط . وقد احتفظ بالمزاج المصرى تماماً . . وكان يحب ابن الرومى .

* * *

وحدثته عن عبد العزيز البشرى فقال أنه كان مرحاً متفائلاً دائماً . وكان لا يرى إلا ومعه حافظ إبراهيم . . عرفته فى خان الخليلى وفى ربح السلحدار بالذات . مع على عبد الرازق ، وكان طالباً معى فى الأزهر . وكان على

عبد الرازق يخرج من بيتهم في عابدين فيحضر دروس الصباح ، وكنا أنا وهو
نحضر دروسنا معاً . لا سيما البلاغة ودروس السكامل على الشيخ المرصفي .
ودروس الأصول والمنطق .

ولم يصبر عبد العزيز علينا . ولم ينتظر معنا أكثر من ثلاثة أيام ، فقد
اجهدته « الفتيلة » والفتيلة اصطلاح عن الأبواب التي تبدأ بكلمة « فان
قيل قلت » .

وكان عبد العزيز يغشى صالون آل عبد الرازق ويملا الجو بنسكاته
وحكاياته . وعبد العزيز ممتاز في كتابته جداً وأهم ما اعجبني منه مقالته
« في الطائفة .. »

* * *

وسألته عن الرافعي . وكنت أحس كأنما أسبب له حرجاً لما كان يدينه
وبين الرافعي من خصومات . . ولكنه أجاب مبتسماً . أنه قابله في حياته
مرتين : أولها عند ما انتقد — أي الدكتور طه — كتاب حديث القمر .
وكان قد أرسل إليه برقية يقول فيها « أن الكتاب ظهر منذ أسبوعين فلا
تطل انتظاري » فكتبت له أنني لم أفهم الكتاب . وكان الأستاذ سعيد
الريان جالساً فأخذ يحدثني عن الفصل الذي قدمه الدكتور . . غير أن الدكتور
منع سعيداً من أن يتم الحديث ! .

وختمت حديثي مع الدكتور طه بأن سأله عن نقطة التحول في حياته
فقال : إنها ثلاث نقط لا نقطة واحدة : الأولى هي السفر إلى أوروبا لأنه
حولني من التقليد إلى التجديد والثانية هي الزواج لأنه أخرجني من وحدتي
وأسعدني بنعمة الحب والثالثة هي إنجاب الأبناء لأنه جعلني أشعر بالحنان
وبقسوة الحياة وتبعاتها .

* * *

وهذه ساعة مع توفيق الحكيم سجلتها في مذكراتي (١).

أبرز ما لفت نظري في هذا السكاتب الفنان براءته وبساطته . وطبيعته الهادئة الرقيقة . وعند ما تحدث عن نفسه كنت أعرف سلفاً كل ما قال إذ كان قد دونه في كتابه « فن الأدب » الذي قرأته منجماً في « أخبار اليوم » . وكان أهم ما سأله عنه : هذه القصص التي كتبها . وهل لها صلة بشخصيته فقال : أن الفنان لا يستطيع أن يكتب دون أن يكون لقصته أو لأبطالها صدى في نفسه . وهو ليس كالمؤرخ أو الباحث الذي يستطيع أن يكتب في كل موضوع . إنه يبحث عن أوعية وعن قوالب . يصب فيها أفكاره وآرائه ورغباته . ولذلك فهو يلجأ إلى الأساطير لأن شخصياتها « منفسحة » وتستطيع أن تطوى تحتها ما يشاء الفنان أن تطويه من آراء .

وقال عن كتاب الرباط المقدس أنه قصة واقعية حقاً .. ولكنها لا تتصل به شخصياً وأنه سمعها من بعض أبطالها . وكنت قد قلت له : أن البعض يرى أن هذه أول تجربة وجدانية للمؤلف .

وحدثني عن الخلق الفني فقال : أن الخلق لا يكون من غير أصل قديم . وأن الله سبحانه خلق آدم من الطين . ثم نفخ فيه من روحه . ففهمه الفنان هي أن يعطي هذه المادة الجامدة .. الحياة من روحه هو . ولذلك فإن أسطورة ما .. قد تتناولها عشرات الكتاب فيختلفون في تصويرها وإبرازها باختلاف تأثيرهم بها . وبحسب قدرة كل منهم على استلهاها أو منحها من فيض ارواحهم .

* * *

ومما قاله لي أنه بدأ يكتب عام ١٩١٦ غير أنه لم ينشر مؤلفاته إلا بعد عام ١٩٣٢ . وقد أتاح له اتصاله بالبيئات النيابية إجادة الحوار وأنه كتب قصة « الضيف الثقيل » عام ١٩١٨ .

وقال أنه متهم بأنه من أصحاب البرج العاجي ومعنى هذا أنه يسكن في « عش » مرتفع عن الناس ، فلا يتصل بهم . والواقع أن هذا محض افتراء وأن من قرأ مقدمة كتابه « البرج العاجي » يعلم أنه كان يقصد البرج العاجي السياسي .

وأنه شخصياً قد اتصل بالبيئات المختلفة . أيام كان محققاً . كان يعيش في قضايا الناس ومشاكلهم وجرائمهم . وكان يحقق معهم ويعرف ما تضره نفسياتهم .

وقال أنه يعتبر الأدب هوايته فكما يلعب بعض الناس البلياردوا مثلاً يلعب هو بالأدب ويرى أن الأدب قد فشل تماماً عن توجيه الناس والأمم ، فنذ عهد بعيد ورجال الفن والأدب يبدعون للإنسانية روائع آياتها . وما زالت الأمم تقرأ هذه الآثار فلا تفيد منها شيئاً يحولها من الشر أو يدفعها إلى الخير وقال : « إنني أو من بأن الأدب لم يستطع أن يكون موجهاً . وأنه اكتفى بأن يكون مجرد لوحات تعجب الناس فيقرأونها .

أما محمود تيمور فقد حدثني في جلساته المتعددة عن حياته وفنه . حدثني طويلاً وإني لأذكر بما قال أن استئثار الإلهام تحمله على أن يجعل أربعة أشياء قريبة منه حين يتناول القلم لتكون خط دفاع يعين الخواطر والأخطار على أن تمضي طليقة في تحويمها آمنة في سربها ، لا تفرعها الطواري وهذه الأشياء هي : قدح قهوة ولغافة تبغ وسبحة وزجاجة نشادر .

* * *

وبعد فليس مكان هذا الحديث في الواقع هذا الجزء من كتابنا عن الحياة الوجدانية والنفسية لأدبائنا المعاصرين . وإنما مكانه في الجزء المقبل (١) الذي تضمن الحديث عن الأدباء الذين أفضوا إلى رحمة الله وهم : إبراهيم

(١) نساء في حياة أدبائنا .

عبد القادر المازني . وزكي مبارك ، ومصطفى صادق الرافعي ، وأحمد أمين
ومصطفى لطفى المنفلوطي ، وعبد العزيز البشري ، ومحمد السباعي ، ومصطفى
عبد الرازق ، وجرجي زيدان ، وجبران خليل جبران ، وأحمد شوقي ، وحافظ
إبراهيم وجميل صدق الزهادي ، ومحمد إقبال والسكراتيه « سي »

ولقد عرضنا حياة هؤلاء الكتاب وفق الأسلوب الذي سرنا عليه في
هذا الجزء . ولكننا أردنا أن نجعل من كل كتاب وحده مستقلة .

واتماما لهذه الدراسة سنقدم مجموعة ثالثة (١) قد اكتملت فعلا بإبحاثها
وأصبحت صالحة للنشر عن الأدباء الذين جاءوا بعد هؤلاء الرواد والذين
كانوا ثمرة النهضة الأدبية الجديدة والذين بدأت آثارهم تظهر في الصحف فيما
بين سنة ١٩٣٠ وما بعدها وهم : علي أدهم وإبراهيم ناجي وزكي عبد القادر
وفتحى رضوان وسعيد العريان وعلي الطنطاوي وعبد الرحمن صدق والساوي
وفكري أباطة ومحمود كامل وزكي أبو شادي وأمير بقطر وأبو القاسم الشابي
وصديق شيبوب وإبراهيم المصري ومن السكراتيات والشاعرات جميلة أنعلايلي
وبنت الشاطيء وأمينه السعيد وفدوى طوقان وجليلة رضا .

وأمامنا بعد هذا ثبت طويل من السكراتيات والسكراتيات نرجو أن يتاح لنا
التوافر على الدراسات النفسية والوجدانية الخاصة بهم حتى نقدمهم في هذه
السلسلة ونتمنى لو اعانونا على هذا وفي مقدمة هؤلاء : خليل شيبوب ومحمد
عبد الغني حسن وسعيد عبده ومحمود محمد شاكر ووداد سكاكيني وجاذبية
صدق وسهير القلماوي وغيرهم .

وإننا نرجو أن يتاح لنا إتمام هذه الموسوعة على الوجه الذي يرضى
الأدب والفن والتاريخ .

(١) وراء النوافذ المغلقة في حياة الأدباء .

المنفلوطى



لاشك أن كبار الرواد، الذين أقاموا صرح الأدب العربى المعاصر ،
قد فتحوا عيونهم فى مطلع الشباب على أدب هذا الكاتب . . .
هذا اللون الجديد الذى ابتدعه فى مطلع القرن ، حتى كان الثالوث طه
حسين وأحمد حسن الزيات ، ومحمود زناقى ، يترقب المؤيد كل خميس ليقرأ
له فى إعجاب .

« اشرق (١) أسلوب المنفلوطى على وجه المؤيد أشراق البشاشة ، وسطع فى
أنديه الأدب سطوع العبير ، ورن فى اسماع الأدباء رنين النغم ، ورأى القراء
الأدباء فى هذا الفن الجديد مالم يرو فى فقرات الجاحظ وسجعات البديع وما
لا يرون من غثائفة الصحافة وركاكة الترجمة فاقبلوا عليه اقبال الهيم على المورد
الوحيد العذب ، ويبدو المنفلوطى فى رسائله وقصصه فى صورة قائمة ، حزينة ،
فهو قادر على أن يرسم صورة الألم الممض ، فيحول الأجواء كلها إلى عواصف
ودموع والآم وبكاء ونواح

ولا يزال أدب المنفلوطى — بعد ثلاثين عاما — قويا حيا يبعث فى
النفس أناره دون أن تقضى عليه الألوان الجديدة التى جاءت بعده

(١) أحمد حسن الزيات — وحى الرسالة ج ١ .

وإن لم يكن من أدب القوة إلا حين يتصل بالسياسة والوطنية فله فيها آيات من القوة والجرأة والحاسة .

بدأ حياته الأدبية ١٩٠٨ ناثراً وكاتباً ، وإن كان قد سبق فنظم الشعر وكانت له من بعد قصائد شهر فيها بالاحتلال وبجن من أجلها . وكان هذا الاتجاه الشعري الباكر مصدر تلك الثروة اللفظية ، واللون الوجداني في نثره . والمنفلوطي من المنشئين ، الذين تبدو عاطفتهم واضحة وراء انتاجهم ، فهو ليس من الكتاب العقليين ، أو أصحاب المذاهب الفكرية ، بقدر ما هو من كتاب المعاني التي تتصل بالحب والحرمان والألم والبؤس . .

وإن كان قد أخفق في دزاسته الأزهرية ، فقد فتح له ذلك - شأن من كانوا على شاكلة - باباً لقراءة متصلة واسعة في الأدب العربي القديم وروائع الشعر والنثر مما أتاح له أن يكون مجدداً في الأدب ، وأن يبدأ فجر النهضة الأدبية بهذا اللون الذي لم يسبقه به أحد من قبل .

ومهما يكن من رأى بعض كتابنا في المنفلوطي^(١) فإن أثر أسلوب المنفلوطي يبدو واضحاً في كتابات الرافعي وطه حسين والزيات وعبد العزيز البشري . وقد استطاع المنفلوطي أن يظفر من ناقديه بأنه ، أحد^(٢) أو تلك الأدباء القلائل الذين أدخلوا المعنى والقصد في الانشاء العربي . . ،

غير أن المنفلوطي وأن جدد في أسلوب التعبير ، إلا أنه ظل محافظاً في ميدان المعاني فقد تمسك بالقديم وحمل على قاسم أمين وكان يعلن أنه لا يثق بالأطباء وأنهم لا يغنون عن القدر ولا يرفعون نازله القضاء . .

فإذا أردنا أن نصل إلى جوهر نفسه أمكننا أن نعتمد في ذلك على مصدرين كانا وثيقا الاتصال به . أما أحدهما فهو الزيات . . . كان صحيح الفهم في بطنه . سليم الفكر في جهده . دقيق في سكوت ، هيبوب اللسان في

(٢) نفس المصدر .

(١) العقاد في مراجعات في الادب والحياة .

تحفظ ، ولذلك كان يتقى المجالس ويتجنب الجدل ويكره الخطابة ومرجع ذلك فيه إلى احتشام التربية التقليدية في الاسرة ونظام التعليم الصامت في الازهر وفرط الشعور المرهف بكرامة النفس ،

أما الجارم فيصفه قريبا من هذا حيث يقول « .. كثير الحفظ والرواية سريع الخاطر ، دقيق الحس ، نبيل العاطفة ، جذابا إلى اقصى حدود الجاذبية جم الأدب ، كان الحياء أبرز صفاته فلم تكن تفتح نفسه وتبدو على سجيته الا بعد معاشرة ومخالطة . وهو يحدث لبق يحسن اختيار لفظه ويجيد تصوير معناه »

واتصل المنفلوطى بالشيخ على يوسف .. وكتب بالمؤيد ، فصول النظرات التي اشتهر بها .. وأذاعت اسمه في كل مكان .. وابتدع بها هذا الفن الجديد في الكتابة العربية الجذلة السهلة الرائعة ..

واتصل بسعد زغلول ، ودافع عن مذهبه السياسى ، وكان صديقا لحافظ ابراهيم وامام العبد وأحمد نسيم وأحمد فؤاد .. يساهروهم فى قهوة افندية ولم يسلم المنفلوطى من متاعب الخصومة السياسية ، فقد هاجم فى فصول النظرات « عبد العزيز جاويز » فى مقال « طبقات الكتاب » .. اذ كان جاويز خصما للمؤيد واسعد ..

ولعل مما يذكر هنا ان طه حسين كان قد افتتح حياته الادبية بالهجوم على المنفلوطى ينقد « النظرات » ثم عاد فصيح رأيه فيه عام ١٩٤٩ ويرى طه حسين فى هذا أنه تحول من أسلوب فى النقد إلى أسلوب آخر فقد كان حريصاً فى مطلع الشباب على النقد الذى يتصل بالألفاظ والعبارات .. ثم اتجه إلى النقد الموضوعى بعد أن ارتفعت به السن .

كما اتصل المنفلوطى بالشيخ محمد عبده ، وقال فيه شعراً . وترجمت له بعض القصص الاوربيه ، فصاغها فى أسلوبه العربى البليغ فجاءت آية من آيات

الإبداع . ومن ذا الذى ينسى «ماجدولين» .. «والعبرات» وذلك الطابع الحزين الذى يغشى صحائفها . والحق أن آثار المنفلوطى تكشف عن نفسية تغلب عليها «العاطفة الحزينة» .. وهو يصف نفسه عندما بلغ الأربعين «.. الآن وصلت إلى قمة هرم الحياة. والآن بدأت أنحدر إلى جانبه الآخر ، ولا أعلم هل أستطيع أن أهبط بهدوء وسكون حتى أصل إلى السفح بسلام أو أعثر فى طريقي عشرة تهوى نى إلى المصرح الأخير هويا ..

سلام عليك أيها الماضى الجميل ، لقد كنت ميدانا فسيحاً للأمال والأحلام وكنا نظير فى أجوائك البديعة الطليقة غادين راثمين ، طيران الختام البيضاء فى آفاق السماء ، لانشكو ولا نتألم ، ولا نضجر ولا نسأم .

.. وما أنا بأسف على الموت يوم يأتينى ، فالموت غاية كل حى ، ولكنى أرى أمامى عالماً مجهولاً ، لا أعلم ما يكون حظى منه ، وأترك ورائى أطفالاً صغاراً (١) ،

.. ويتناول هذا الموضوع مرة أخرى «.. أما من ورائى فالله يتولى السائمة فى مرتعها ، والقطا فى أخوصتها ، والعصفور فى عشه ، والفرخ فى وكره ..

وداعاً أيها الشباب فقد ودعت بوداعك الحياة . وما الحياة الا تلك الخفقات التى يخفقها القلب فى مطلع العمر ..

هذه المعاني تعطى صورة الرجل المحب للحياة ، المشفق من الموت ، الذى يستقبل الغيب على نخورة من الخوف والتوجس .

وتبدو صورة المنفلوطى وهو يحب الحياة ويقبل عليها ويحرص على المتاع بها فى هذا الخطاب الذى ارسله إلى «الموسيقار» حسن أنور بعد عودته من راس البر .. وصلت إلى مصر وقد شعرت عند وصولى إليها بشئ من

الانقباض أشبه بما يجده الهارب من سجنه عند القاء القبض عليه واعادته اليه .
وسأظل زمنا طويلا متمثلا في ذهني جمال تلك الأيام التي تمتعت فيها بنعمة الحرية
والطلاقة — لا يقيدني مقيد ، ولا يسيطر على مسيطر من النظم والتقاليد
اجلس في كل أرض ، وافيء إلى كل ظل ، وأسير تحت كل سماء . وأحدث
بكل ما يحول في خاطري من جد وهزل ، وصواب وهزيان . كأنني أديش
في عزلة منعقدة لا تقع على فيها عين ، ولا يطرق سمعي صوت ، كما لا أنسى
ماحييت جمال ذلك المصيف البديع ومناظر كئيبانه ورماله وسمائه ، وبره
وبجره ومواقع غزلانه ومرايع جاذرة ، ومنظر لسانه العذب الرطيب وهو
يمتد ساعه الأصيل في غمار الماء ، ينهل منه النهل الباردات .

.. فليت ذلك دام لي ، ولكنه لا يدوم ، لأن السعادة في هذه الحياة
بوارق لامعة تحف في ظلمة الليل ثم تختفي (١) . . .

هذه صورة نفسية للمنفلوطي فيها صراحه ووضوح بعيدة عن التكلف
الذي تفرضه كتابات الصحف ، وهي أيضا تعطي صورة لأسلوب المنفلوطي
حين يكتب لاصدقائه ، ويرسل نفسه على طبيعتها يصور المعاني التي تزدهم
بها نفسه ، هذه النفس المحبة للحياة ، الحريصة على المتاع واللذة . . . الخائفة
المتوجسة في نفس الوقت من نهاية السعادة حين يرى أنها ليست الا بوارق
لامعة تحف في ظلمة الليل ثم تختفي . . .

وبعد فالمنفلوطي يأخذ مكانه هنا لأنه علم على رأس مرحلة من مراحل
الانشاء الأدبي وعلى رأس « طريقته » في الأدب وأسلوب في التعبير ومدرسة في
البؤس والحزن والحرمان والارجح أن يكون مرجع هذه الوجدانية التي نراها في
« ماجدولين » و « الشاعر » إلى أشواق نفسية في أعماق الكاتب نفسه وجدت
مكان الافضاء عنها في تلك الصور الشعرية التي رسمها بقلبه بعد أن ترجمت له .

ليس من شك أن المنفلوطى شاعر النفس ، وأنه أحب ، وهذا هو سر قوته الوجدانية ، ويبدو أن المنفلوطى لم يجد فى مقدوره الكشف عن صور حبه فى صراحة فاختار أن يصورها على هذه الطريقة . وجملة القول فيه أنه أدب الآلام والحزن والحرمان ، يصورها بأسلوبه البسيط فتجد لها فى كل نفس صدى ، وفى كل قلب أثر

خرج المنفلوطى عن الأسلوب التقليدى ، فادخل إلى الأدب المعانى والصور بعد إن كان الزخرف هو كل شيء . فهو مرحلة بين المويلحى من ناحية وبين الزيات والرافعى من ناحية أخرى . وهو وإن كان قد عاصر المدرسة المهجرية إلا أنه تحرر منها وظل محتفظاً بطابعه الخاص .

وهو يحرص أحيانا على أن يكون ضحائفا فى أسلوبه وقاسيا مؤثرا فى معانيه ، يبعث الألم والحزن ، حتى تضيق به أحيانا ، ولا تحتمل قسوته حين يصل بأبطاله إلى أبعد حدود الآلام المتخيلة ، فيجمع عليهم الفقر والبأساء والجوع والفرى والحرمان ، وهو إلى ذلك كاتب وطنى واجه الانجليز بقلبه فى عنف ، ومقالة فى الرد على روزفلت حين جاء مصر مشهور وقصيدته فى هجاء الحديو معروفه .

أحمد أمين



يمثل « أحمد أمين » مرحلة دقيقة من مراحل تاريخ الأدب المعاصر في مصر ،
فهو الأزهرى الذى تخرج فى الأزهر واتجه إلى دار العلوم والقضاء الشرعى ..
وانتقل من القضاء إلى التدريس فى الجامعة ، ثم انتقل إلى حياة التأليف
والكتابة ، وتعلم اللغة الإنجليزية بعد أن ارتفعت سنه ، وترجم منها ..
واستبدل العمامة بالطربوش ، وسافر إلى أوروبا وإلى الشرق ، وظل مع
ذلك « الإنسان » المحافظ فى آرائه وأفكاره وحياته ، والمنطوى على نفسه ..
لم يتصل أحمد أمين بالحياة .. ولم يجر فى تياراتها المختلفة ، بل ظل يعيش
فى حيوات الكتاب والمفكرين وأعمالهم . ومن ثم كان لأسلوبه ذلك الطابع
الجاف .. الذى ليس له سمت خاص يتميز به ، وخلا أدبه من العاطفة
والوجدان . وكما خلا من تلك الروح الفتية الجذابة ، التى تهز النفس وتأخذ
باللب واللى نجدها عند أزهرين آخرين كطه حسين والزيات وزكى مبارك ..
.. ويرجع هذا إلى أنه من الكتاب الموضوعيين العقليين ، وهو إلى
العلماء أقرب منه إلى الأدباء ، ويرجع هذا الاتجاه إلى الدراسات والدوافع
الأولى ..

فقد نشأ أحمد أمين في بيئة محافظة ، دينية ، كان لها أثرها في نشأته وكانت التربية الأزهرية بعيدة الأثر في أهدافه واتجاهاته . فلما أراد أن يندمج في الحياة الجديدة ، اندمج فيها على طبيعته وبكل مقوماته لم يدع منها شيئاً ، ولم يستطع أن يتحول أو ينتقل على الطريقة التي تحول إليها أو مبارك أو على طريقة الزيات ومصطفى عبد الرازق ، فهؤلاء يختلفون عنه لانهم سافروا إلى أوروبا وأمضوا مراحل دراسة طويلة هناك . . .
 وإنما ظل هو ، كما هو ، النفس المنطوية ، التي تزهد في الناس ، وتنجح إلى العزلة ، وتعكف على المطالعة والبحث والدراسة .

* * *

صحيح أن هذا الاتجاه قد مكن أحمد أمين من أن ينتج إنتاجاً عقلياً غاية في القوة والوفرة ، وهو ما لم يتح لغيره من كتابنا . . . فاذا اتصل بالمجتمع والحياة العامة ، غلبت عليه الأفكار المثالية وجعلته غريباً عن المجتمع إلى حد ما .

ويضيقنا أحمد أمين في تصوير اعتزاله للمجتمع حيث يقول « .. لقد كانت تربيتنا قاسية عنيفة ، فكان من أثرها الذي نشعر به خجل قبيح ، وضعف في الحرية الشخصية ، وقلة ابتهاج بالحياة ، وزهد في متعتها . وعدم تفتح النفس لمسراتها . . . وكان أبى يكثر من ذكر « الموت » وحقارة الدنيا ، فأكسبنا هذا لوناً من الحزن والقناعة في طلب المجد ، ولكن بجانب الجد في الحياة والصبر على المسكاره والترفع عن صغائر أمور الدنيا لأن كبارها قليلة القيمة .. »

* * *

ليس في أدب أحمد أمين شبح للراءة على الإطلاق ، وعلى أى صورة من الصور ، حتى ليخيل للباحث أنها لم تؤثر فيه مطلقاً . وقد ظل يتحاماها ، حتى التقى بالإنجليزية التي علمته اللغة ..

... وعشقت (١) مرة مدرسة لي إنجليزية ، كنت أتبادل معها الدروس العربية والإنجليزية ، وأحببتها حباً يائساً لأنها كانت متزوجة ، سعيدة بزواجها ، ولكن جمالها وجمال عينيها ، جعلني أتمنى يوم درسها وأعده عيداً ... ولولا أن الدين والعلم كبلاني لكنت أمام المحبين .

رأيتني شاباً في السابعة والعشرين ، أتحرك حركة الشيوخ ، وأمشي في جلال ووقار ، وازمت في حياتي ، فلا موسيقى ولا تمثيل ولا شيئاً حتى من اللهو البريء ، وأصرف حياتي بين دروس أحضرها ، ودروس ألقها ، ولغة أتعلها ، ورأيتني مكتئب النفس ، منقبض الصدر ، ينطوى قلبي على حزن عميق ، ورأيتني لا أبتهج بالحياة ، ولا يفتح صدري للسرور ، فوضعت لي مبدأ هو « تذكر أنك شاب » ، تقوله في كل مناسبة وتذكرني به من حين إلى حين .

والثاني أنها رأت لي عيناً مغمضة ، لا تلتفت إلى جمال زهره ولا جمال انسجام وترتيب ، فوضعت لي المبدأ الآخره يجب أن تكون لك عين فنية ... فكنت إذا دخلت عليها في حجرتها ، وبدأت آخذ الدرس وأنكلم في موضوعه صاحبة في « ألم تر في الحجرة أزهاراً جميلة تلفت نظرك ، وتثير إعجابك فتحدث عنها » .

ويقول أحمد أمين أنه لازمها أربع سنوات واستفاد كثيراً من عقلها وفنها ثم يعقب على ذلك ... ولكنني لا أظن أنني استفدت كثيراً من تكرارها على سمعي أن أتذكر دائماً أنني شاب .

* * *

ثم تزوج أحمد أمين ، وظل على طابعه المنفرد ، ذلك الطابع الذي يتمثل في الوحدة وفي الحياة بين الأسفار . وقد أنكر أهله منه هذا ، ولكنهم

(١) كتاب « حياتي » .

قنعوا به أخيراً .. « وقد صدمت زوجتي بعد قليل إذ رأتني هادئاً غير مرح ، قليل الكلام ، وقد تربت في بيت مرح .. فظنت أني لا أقدرها ، وإني نادم على الزواج بها . وأكدت لها أن هذا طبعى كسبته من يئس فلم تصدق ولم تظلمن .. إلا بعد طول العشرة ، ووثوقها من أني كذلك مع غيرها لا معها وحدها .

وهي تحتل الصباح وحدها لإعداد ما نأكل .. وتنظيف ما ينظف .. ولكن كيف تحتل المساء أيضاً وحدها ، وأنا في غرفة بجانبها أقرأ وأكتب والأيام هي الأيام الأولى لزواجنا .

ولعل هذه الأضواء على الحياة الاجتماعية لأحمد أمين تعطينا مفاتيح أدبه .. وترسم لنا صورة « مالك الحزين » التي رسمها له الأستاذ طاهر الطناحي حين وصفه بأنه يضع على عينيه منظاراً أسود .

يقول الأستاذ أحمد أمين في تصوير نفسه « رزقت عاطفة تهتز للجمال أيا كان ، سواء كان جمالاً طبيعياً ، أو جمالاً صناعياً ، أو جمالاً فنياً ، ولى حاسة قوية في سماع الموسيقى وخاصة النغمات الحزينة » .

« أحب الخير للناس وأفرح لنجاحهم ورفيقهم ، ولكنى مع هذا الحب غيور فبجانب هذا الفرح ، أغضب إذا أنا حرمت مثل ما نالوا ،

ولكن لماذا آثر أحمد أمين خطة الانطواء فلم يتصل بالأحزاب اتصالاً مباشراً ، ولم يغامر في السياسة مغامرة كبرى .. ، وظل بعيداً عنها ، فلم يبرز بروز كتابها . . .

هل رأى نفسه لا يصلح لها ، يقول : « أعرف أني جبان بقدر شجاعتي في قول الحق . أخاف التعذيب وأخاف السجن ، وأخاف الشنق . وربما كان هذا هو السبب في أننى أفضل العلم على السياسة . وربما كان هذا هو

السبب في أني تخلفت عن زملائي السياسيين حيث تقدموا إلى أن كانوا رؤساء وزارات . . .

* * *

سافر أحمد أمين إلى العراق وسوريا والأستانة والحجاز ، ثم جال في أوروبا جولة غير قصيرة . . . ، ولا شك أن هذه الرحلات قد أمدته بسعة الأفق ، ومزيد العلم والخبرة ، فقد عاشها على نفس الصورة التي يحيا فيها بين الكتب دراسة وبحث ، لا استمتاع بها ولا تطلع إلى خفاياها . . .
وليس في آثار أحمد أمين أي فصول عن هذه الرحلات إلا ما كتبه عنها في كتاب « حياتي » .

* * *

يصف أحمد أمين طبيعته في وضوح ، هذه الطبيعة الخزينة المنطوية حين يقول : « ما أحوجني إلى ضحكة تخرج من أعماق صدري فيدوى بها جوى . ضحكة حية صافية ، عالية .. ليست من جنس التبسم ، ولا من قبيل السخرية والاستهزاء .. ولا هي ضحكة صفراء ، لا تعبر عما في القلب ، وإنما أريدها ضحكة أمسك منها صدري . وألخص منها الأرض برجلي » .

هذه الطبيعة هي التي يرسمها أحمد أمين إلى العلم وإلى الدراسات العقلية التي تصل إلى ذروة قوتها في « فجر الإسلام » ، وهو « الكتاب الذي أتعبه لأنه الأول من نوعه » .

وقد بدأ أحمد أمين الكتابة باكراً ، كتب في السفور سنة ١٩١٨ وأيد مذهب السفور في قوة ، ودافع عن رأي قاسم أمين ، .. وقال عن الجامعة أنها أزهر بقبعة .. لقد كره الأزهر منذ رأى الطلاب وهم يعرضون الخبز للبيع ، وعاد إلى بيته والهم يملأ قلبه فقد كان هذا أول ما شاهده في الأزهر ولكن بالرغم من نفور أحمد أمين من الأزهر وكرهيته له واتجاهه إلى الثقافة

الأوربية ، هل استطاع حقاً أن ينتزع نفسه من الأزهر .. كلا ، وإن كل ما فيه من خير إنما مرده إلى الأزهر ، كما قال عنه الإمام المراغى .

لقد أكسبته طبيعته هذا المزيج من البيئة والأزهر : طابع البطىء فهو يحب أن يتحرك على مهل ويتذوق على مهل ويستطعم ما يأكل . وهو يحب النظام حباً شديداً .. ،

إنه لم يصنع نفسه ، على حد قوله ، .. ، لقد عمل على تكويني إلى حد كبير ما ورثت عن آبائي .. والحياة الاقتصادية ، والدين ، واللغة ، وأدبنا الشعبي ونوع التربية .. أن نفسى من صنع الله عن طريق ما سنه من قوانين الوراثة والبيئة . .

الرافعى



« وأنا على كل أحوالى إنما أنظر إلى الجمال كما أستنشى العطر يكون متضوعاً في الهواء ، لا أنا أستطيع أن أمسسه ولا أحد يستطيع أن يقول أخذت منى ثم لا يدفعنى إليه إلا فطرة الشعر والإحساس الروحانى . دون فطرة الشر والحيوانية . ومتى أحسست جمال المرأة أحسست فيه بمعنى أكبر من المرأة أكبر منها ، غير أنه هو منها .. »

إذا كان لشخصية كل كاتب مفتاح ، ولكل أديب عقدة تتمثل فيها حياته الفكرية في ذروتها وقوتها . فان ذروة أدب الرافعى ومفتاح شخصيته ، وعقدة حياته الفكرية والأدبية هى شىء واحد هو « الحب » . ففكرة واحدة ، أو حب واحد قام في حياته فلونها كلها وأحالتها إلى دنيا كاملة ممتدة في أدبه وكتابات وفنونه ..

ماذا كان الرافعى قبل هذا الحب ، وماذا كان أدبه ، .. هل كان يتأدب لهذا الحدث ، ويستعد لهذا الدور الذى لعبه القدر في حياة كاتب رصين العبارة ، بليغ الأداء ؟

أكد أقطع حين أضع يدي على قصة الحب التي عاشها الرافعي ، إن خصوماته الأدبية ، وكتاباته الفنية ومؤلفاته . . ومذاهبه في الإعجاب والخصومة . . وهذه الحلقات المترابطة الممتدة في كتبه « حديث القمر ، رسائل الأحرار ، أوراق انورد ، وحى القلم ، . . إنما هي حلقات من قصة واحدة . .

وأصدق ما يقال عن « الرافعي » أن نفسه ممثلة في أدبه ، وأن ملاحظه الروحية واضحة في آثاره وأن حياته مرسومة في فنه ، ببساطتها وتعقيدها ، ومرونتها والتواتر ، فهو يعيش في أفكاره وأحلامه ورؤياه ، ويبدو من وراء معانيه قائماً ، يعرف حين يغضب وحين يرضى . .

فإذا بدا هناك بعض الضباب ، فأنما هو نتيجة للعوامل النفسية التي تتصل برجل أصم ، لم يتصل بالناس إلا قليلاً ، ولم يصل لمكنون أعماقهم إلا في حدود محدودة ، ولم يلمس لغوهم إلا عن طريق قصاصات من الورق تكتب له . . وليس الدفاع عن الدين واللغة في ذاته إلا جزء من كيان هذه الشخصية وجانب من التعبير عن النفس فيها .

وآثار الرافعي كلها تكشف عن نفسية مضئنة مشرقة ، تفهم الحب فهماً دقيقاً ، وتصوره تصويراً قل أن يتاح إلا لمحبه عركه الحب ، ولمس أعماقه ، ومس شغاف قلبه .

* * *

ليس للرافعي تاريخ إلا قصة حبه . . فقد بدأ حياته شاعراً ثم تحول إلى النثر . . وكاد أن يقصره على « فلسفة الحب والجمال » يصور به عواطفه ويرسم مشاعره ، بل أننا لنذهب إلى أبعد من ذلك فنقول أنه في سبيل الحب ، أقام خصوماته الأدبية ، ولأجله أنشأ المعركة بين القديم والحديث فحمل لواءها وكان بطلها . وكان غنيداً في صراعه وفي خصومته .

ويبدو هذا الصراع قوياً حين يتصل بشخصين ، هما طه حسين والعقاد

ثم يتبلور الرافعى فى صورته النهائية القوية ، حين يتصل بالرسالة ويكتب
فصوله « وحى القلم » .

وللرافعى أسلوب يدل عليه ولو اختفى اسمه ، وهو ما لم يتوفر لكثيرين ،
ويتميز هذا الأسلوب بالعمق والغموض . . .

وقد تأتى له هذا الأسلوب البليغ العميق الغامض ، من بيئة العلم والفقه
والدين ، التى نشأ فيها حين فتحت حياته على كتب الأدب القديم ، إذ أتاحت له
آفته أن يعتكف ، فقرأ فنون البلاغة واللغة والفقه . . فانقادت له حتى
استطاع أن يصاول أقطابها وإذا به يرى مدافعاً عن القديم ، وهو الذى
تعلم فى مدارس الفريز ، على حين وقف بعض الأزهرين فى صفوف المجددين .

* * *

كان الرافعى يحس بالنقص الطبيعى فى حاسة سمعه فكان يعوض ذلك
بالتبريز فى ميدان الحياة بالحب وفى ميدان الأدب بالصراع .

يرسم الرافعى لنفسه فى رسائل الأحزان صورة واضحة . . أما هذا
الصديق فأعرفه أسلوباً فى السكر ، ولكن على نفسه ، ومن الشذوذ ولكن
على نفسه . كأنما فتحت أفواه عروقه حينئذ ، وملأتها الوراثة من دم ملك
كان فى أجداده . مستصعب شديد المراس اجتمع فيه تاريخه لإنسان بلغ الزمن
تحت عينيه نيفاً وأربعين سنة ، فهو تاريخ أحزان قد استفاضت مسائله فى فصول
وأبواب . جف القلم منها على نيف وأربعين جزءاً كلماتها فى حوادثها .
وأن السطر منها أيرعد فى صحيفة من الغيظ وأن الكلمة لتبكي وأن الحزن ليئن
أنيناً يسمع .

جئنا إلى هذه الحياة غير مخيرين . ونذهب غير مخيرين . إن طوعاً وإن
كرهاً . فديك بالرضا ، والمتابعة للأقدار أو انترعها إن شئت فانك على
الطاعة ما أنت على الكره ، وعلى الرضا ما أنت على الغضب ، ولن تعرف
فى مذاهب القدر . إذا أنت أقيمت أو أدبرت أى وجهك هو الوجه فقد

تكون مقبلا والمنفعة من وراءك . أو مديراً والمنفعة أمامك .. ،
ويرسم صورة حبه .. . بلغ من العمر أربعة عقود ، ولكنه يحس منذ
الصغر أنه رجل هرم أو كما يقول الفلاسفة في تعليل ذكاء الأذكىاء إنهم
يتذكرون ما يرونه ولا يتعلمونه ، لأن فهم نفوساً خرجت من الدنيا كاملة
ثم رجعت لتزداد كمالاً ، غير أن هذه الأربعين بما تعاورت عليه قد هدم
بعضها بعضاً ..

كانت حياة صديقي ليلاً طويلاً انبسط على فن من الظلام كأنه موزق
بالسحب والغمام السود لا ينقشع بعضها عن بعض . حتى كأن صباحه مات
فيها أربعين سنة ، ثم انبعث آخراً من وجه فتاة أحبا فأشرق له من غرتها
واستضاء على وجهها .

هي بروعتها ودلالها وسحرها ، وهو بأحزانه وقوته وفلسفته ، كانا
في الحب جزءين من تاريخ نشر منه ما نشر وطوى ما طوى . هدمت الأقدار
هذا الصديق فجاءت هي تبنيه وتشد منه وترمم بعض نواحيه المتداعية وتقويه
بسحرها بناءً جديداً .

فإذا تعرض لفلسفة الحب ، رسم صورة جبارة ، لا أدري كيف افلتت
من معارضيه دون سجال وصراع .

« .. وذو الفن لا يفيد من الحب فائدته الصحيحة إلا إذا جعله تحت
عقله ، فيكون في حبه عاقلاً بمنون لطيف ، ويترك العاطفة تدخل في التفكير
وتضع فيه جمالها وثورتها وقوتها ، ومن ثم ترى مجاهدة اللذة في الحب هي
اسمى لذاته . ويعرف بها في نفسه ضرباً آلهياً من السكينة تولية القدرة على أن
يقهر الطبيعة الانسانية ويعرفها ويدع فيها عمله الفني العجيب .

والرجل الكامل ، والمفكر المتخيل إذا كان زوجاً وعشيقاً ، أو كان
عشيقة وزوجاً بغير من يهواها ، استطاع أن يتدع لنفسه فناً جميلاً من أسرار

الفكر لا يجده العاشق ولا يناله المتزوج ، وانه ليرى زوجته من الحبيبة
كالتمثال جمد على هيئة واحدة . مثل هذا المفكر العاشق يحتاج إلى الزوجة ، كما
يحتاج إلى العشيقة فهو في قوته يجمع بين لزامه هذه وقديسيه تلك ، لأن
أحدهما توازن الأخرى وتعدها في الطبع . وتخفف من طغيانها على الغريزة
وتمسك القلب أن يتبدد في جوه الخيالي . . .

* * *

وللرافعي فلسفة في الحياة ، تحمل طابع التشاؤم ، كأنما ينظر صاحبها إلى
الحياة بمنظار أسود . .

« ما آتينا إلى هذه الدنيا إلا ليمثل كل منا فصلا من معاني الشقاء في تلك
التياب التي هي ملك لصاحب المسرح لانتخلعها ونلبسها . . بل يخلعنا بعضها
ليلبسنا بعضها الآخر ، والرواية موضوعة تامة قبل تمثيلها . . وضعها ذلك
القلم الأعلى . .

والمشكلة الإنسانية الكبرى أن كل إنسان يريد أن يكون بطل الرواية
وتمثلها البكر ، والقوم والقدر والموت كالشيء الواحد . . .

* * *

هذه الفلسفة منبعثة من أحساس بالحرمان من الحب . ومن ألم صاعد
مصدره ذلك الشقاء . . . الذي ظل الرافعي يحمله في أعماقه طوال حياته . .
منذ . . . ذلك اليوم الذي ذهب إلى صاحبه ، فرآها قد جلست إلى « شاعر »
تحدثه ويحدثها . .

فلما طال انتظاره ، مضى على وجهه وأرسل كتاب القطيعة .
وأرسلت صاحبه تعتذر له . ولكن الرافعي مضى في طريقه . . وأصر ،
شم أحس بعد أنه كان مسرفا . . . ومن يومها ، عاش الرافعي في غمره
من الشوق والألم والبغض لا تنجلي عنه .

وما (١) عرف إلا من بعد أنه يحبها حباً لا يطيق أن يتسع أكثر مما تتسع له نفس إنسان ، وما عرف إلا من بعد أنها كانت تجافيه لتطلب إليه أن يكون في الحب أجراً مما كان ، وعرف وعرفت ، ولكن العقدة لم تجد من يحلها وبينهما فلسفة الفيلسوف وكبرياء المتكبر . وظل وظلت . . وبينهما البعد البعيد ، على هوى وحنين ، حتى جاء الموت فحل العقدة التي استعصت على الأحياء . . .

ويصف هو هذا الحب .. « كان حبي إياها حريقاً في الحب فثل لعينك جسماً تناول جلده مس من لهب فتسلع هذا الجلد هنا وهناك من سلخ النار . وظهر فيه من آثار الحرق لهب يابس أحمر ، كأنه عروق من الجمر انتشرت في هذا الجسم .

والحب — إن كان حباً — لم يكن إلا عذاباً فما هو إلا تقديم البرهان من العاشق على قوة فعل الحقيقة التي في المعشوق . ليس حالة منه في عذابه إلا وهي دليل على شيء منها في جبروتها .

ولما رأيتها أول مرة ولمسني الحب لمسة ساحر ، جلست إليها أتأملها واحتسى من جمالها ذلك الضياء المسكر الذي تعربده له الروح عربدة كلها وقار ظاهر ، فرأيتني يومئذ في حالة كغشية الوحي فوقها الأدمية ساكنة وتحتها تيار الملائكة لعب ويجرى . . .

ويصف الأستاذ سعيد العريان حب الرافعي في أكثر من موضع في كتابه حياة الرافعي « أن الحب عند الناس هو حيلة لإيجاد النوع ولكنه عند الرافعي حيلة النفس إلى السمو والأشراق والوصول إلى الشاطئ المجهول . هو نافذة تطل منها البشرية إلى غايتها العليا وأهدافها البعيدة . . .

(١) سعيد العريان في حياة الرافعي

« كان يحبها حبا عنيفا جارفا لا يقف في سبيله شيء . ولكنه حب ليس من حب الناس . حب فوق الشهوات . وفوق الغابات الدنيا . لأنه ليس له مدى ولا غاية . لقد كان يلتمس مثل هذا الحب من زمان ليجد فيه ينبوع الشعر وصفاء الروح وقد وجدتهما ولكن في نفسه لافي لسانه وقلبه .

وأحس وشعر وتصورت نفسه الآفاق البعيدة ولكن ليثور بكل ذلك دمه وتصطرع عواطفه ولا يجد البيان الذي يصف نفسه ويبين عن خواطره .
لقد أحبها جهد الحب ومداده . حبا أضل نفسه وشرد فكره وسلبه القرار ولكنه حب عجيب ليس فيه حنين الدم ولكنه حنين الحكمة إلى الحكمة ، وهفوة الشعر إلى الشعر وخلوه الروح إلى الروح . .

و .. كان يحبها ليجد في حبا ينبوع الشعر ، فما وجد الحب وحده ، بل وجد الحب والألم وثورة النفس وقلق الحياة . . وجد في كل أولئك ينابيع من الشعر والحكمة تفيض بها نفسه وينفعل بها جنانه ويضيء بها فكره . وكان آخر حبه الألم . وكانت آلامه أول قدحة من شرار الشعر والحكمة . .

* * *

وظل الراجعي يحب صاحبه « أنه ليس معي إلا ظلالها . . ولكنها ظلال حية تروج وتحيى في ذاكرتي . وكل ما كان ومضى هو في هذه الظلال الحية كائن لا يفنى »

وكان يحس بلذع الحب بعد مضي ثلاثة عشر عاما طوالا .. فيقول « انها حماقتي وكبريائي .. ليتي لم أفعل .. ليت »

وأثناء الراجعي رسائل الأحزان وفي وقدة الحب وغمرته ، ثم أنشأ أوراق الورد بعد أن تحول الحب إلى حزن مقيم في أعماق النفس ، وكان حسبه من هذه الكتب أن تقرأها صاحبه ، ولعل من آثار هذا الحب هذه المعركة الضخمة التي اندلعت بينه وبين العقاد ، وامتدت آثارها إلى المدرسة الحديثة ..

« لقد (١) وضعك حسنك في طريقى موضع البدر ، يرى ويحب ولا تناله ولا تعلق بزره ظلمه نفس ، ولكن كبريائك نصبه الجبل الشاى كأنه ما خلق ذلك المنتشر الوعر إلا لتدق به قلوب المصعدين فيه »

« .. وحت (٢) صورتها من ماضيه كل ما كان فى أيامه وكل من عرف لتلا هى نفسه بروعتها ودلالها وسحرها ، وانتزعها هو من أيامها فما بقى لها من أصحابها وصواحبها غير « مصيف » مشغله فى الليل والنهار ونظر الرافعى إليها وإلى نفسه وراح يحلم .. وخيل إليه أنه يمكن أن يكون أسعد بما هو لو أنها .. كانت زوجته .. ثم عاد إلى نفسه يؤامرها فأطرق من حياء .

وقالت له نفسه وقال لنفسه ، فكأنما انكشفت له أشياء لم يكن يراها من قبل بعينى العاشق . وأوشكت القصة أن تبلغ نهايتها وتحل العقدة .. « ثم جاءت كبرياته لتخط الخاتمة » .

* * *

ولكن الرافعى بعد أن فقد صاحبه تفتح للحب ، فعاش له ، كان يحاول أن يملأ فراغ نفسه ، ولكنه فيما يبدو لم يستطع .. فقد أراد أكثر من مرة .. أن يعيش فى حب جديد ، ولكنه كان أبداً مشدوداً إلى حبه الأول عاش الرافعى حياته للحب ، كانت « مى » هى المنار القوى السامق الذى يبدو له من كل مكان ، وهو بين عواصف البحر ولججه .. « ورأى فى وجهها من النور والصفاء ما جعلها بين عينيه وبين تلك المعانى السامية كمرآة المرصد السماوى فكل ما فى رسائله من البيان والاشراق هو نفسها .. وكل ما فيها من ظلمات الحزن هو نفسه (٣) » .

* * *

(١) الرافعى (٢) سعيد العريان (٣) الرافعى

ولعل فشل الرافعى فى حبه .. هو الذى دفعه رأيه إلى أن يسوء فى المرأة .. والمرأة من هؤلاء لا يمشى أمرها فى الناس ولا يتصل عيشها إلا إذا كثرت ثيابها ، فهى تخالج وتلبس من هذه وتلك لكل يوم ولكل حالة ولكل رجل . فينبعث منها العصب .. وهى فى أنعم الرضى ، كما ينبعث منها الرضى وهى فى أشد الغيظ .

« فهى تبرز حين تخرج من بيتها لا إلى الطريق ولكن إلى نظرات الرجال وتظهر حين تظهر بصورة لا بتلون نفسها بما يجوز وما لايجوز ولكن بتلون مرآتها بما يعجب وما لا يعجب .. »

وقد أثير سجال فى « الرسالة » بين تلميذين من تلاميذ الرافعى حول حب الرافعى قال فيه الأستاذ حسنين مخلوف أن الرافعى أراد أن يحدث فى اللغة العربية لونا من الفن المزوج بالفلسفة الاجتماعية التى تقوم على إيجاد المرأة على النحو المستفيض فى الأدب العربى فطلب الحب لذلك .. أما الأستاذ كاما محمود حبيب فيرى أن الرافعى شعر بخفاف قلبه لشدة تدينه فطلب الحب ليندى به قلبه ويرفق أسلوبه . ويرى الأستاذ سعيد العريان أن الرافعى بكبريائه ودينه واعتداده بنفسه ، لم يخلق للحب . ولكنه أحب . فمن ذلك كان حبه سلسلة من الآلام وصراعا دائما . ومقطع القول فى كل هذا ما أوردناه فى أول هذا الفصل عن فلسفة الرافعى فى الحب وهى إيمانه فى الجمع بين الزوجة والحبيبة .

والرافعى إلى هذا رجل مستقيم الفكر يفرق بين الفن والدين . فهو إذا أتحدث عن الأديب أو المفكر الذى يصر على الغروبة قال أنه يكون رجلا قد طعت فيه الحياة طغيانها العصبى الشديد المحتاح ، ثم يكون الفن طاغيا فيه طغيانه الخيالى العنيف الترد . وهذا لا يصلح زوجا ولا تصلح الزوجة له . فانه إنما يريد المرأة المغلة ، كأنها ضيعة من الفن الحى ، تغل عليه من

ثمراتها . وقد أبى الشيطان لعنه الله إلا أن تكون المرأة المغلة في الفن امرأة
محرمة .. ومتى كان الشيطان في الأمر استطاع أن يجعل لكل امرأة فنا على
حده . ومن هنا فسوق الكتاب والكثرة من العباقرة . وهذا سر تعزيبهم
وانصرافهم عن الزواج أو انصراف الأزواج عنهم وهؤلاء بركة على الفن
ولكنهم بلاء على الدين وعلى الفضيلة . ومن سخرية الحياة بهم أن يكون العبقرى
فيهم هو من ناحية أخرى الحيوان العظيم ..



فاذا أردنا أن نرسم شخصية الرافعي على ضوء هذه الصورة وغيرها من
صور حياته وجدناه مثلا لعزة النفس وكبرياتها .. وقد عاش طوال حياته
في حدود دخله الضيق . ولم يفد من الإنتاج الأدبي فائدة تذكر . فقد كان أدبه
من ذلك النوع الذي لا يؤدي إلى الثراء ..

بل لعل لإنشاء هذا الأدب الجديدة الذي كتبه في الرسالة ، إنما جاء
نتيجة للاضطراب حين أراد أن ينفق على ابنه في بعثته في الخارج .

لم يسافر الرافعي إلى خارج مصر ، وإنما عرف بحبه للانتقال بين المدن
المصرية . وكان يجد في الانتقال لذة يعزى به عاطفة ويمد أدبه ..

وهو يؤمن برسائله الأدبية .. القبلة التي إتجه إليها في الأدب إنما هي
النفس الشرقية في دينها وفضائلها ، فلا أكتب إلا ما يبعثها حيه ويزيد من
حياتها وسمو غايتها ويمكن لفضائلها وخصائصها في الحياة . ولذا لا أؤس من
الآداب إلا نواحيها العليا . ثم أنه يخيل إلى دائما : إنى رسول لغوى للدفاع
عن القرآن ولغته وبيانه .

وقد قرأ الرافعي في فجر شبابة جمال الدين ومحمد عبده وصروف وغوستاف
لوبون وتأثر بهم . ويرى أن كتابه أوراق الورد هو خير كتبه ، لأنى لم أتعب
في شيء مثل تعبي فيه وربما ييضت الرسالة الواحدة في أربع ساعات لأن

الغرض هو إعطاء العربية هذا السكون الذى ليس فيها .. ،
وقول الرافعى أنه إنما يريد ابتداع لون جديد من فلسفة الحب والجمال
فى الأدب العربى إنما هو تبرير لنشر هذه الرسائل فى الوقت الذى كانت فيه
الكتابة عن الحب معدودة من المحرمات ، أو بما لا يليق بكتاب الدين والأدب
الرفيع .

وقد استطاع الرافعى تحت هذه الظلال أن ينفذ إلى غرضه وإن يترك
ثروة ضخمة من هذا اللون الذى تبرز من الكتابه فيه من كانوا فى نظر القراء
أقل محافظة وأكثر جرأه ..

وليس من شك أن الرافعى كان مخلصاً لاماته وفنه ، فقد كان يسكب روحه
على الورق . ويصدر عن نفس مؤمنه ، عميقة الإيمان والإقناع ، ولعل النقص
الطبيعى فى حاسة سمعه ، كان يدفعه إلى أن يداور المعنى ليسلس له أو ليضعه
أشد وقعاً فى إذن القارى وفى نفسه .

ولقد عرف « الرافعى » بالقسوة البالغة فى ميدان النقد حينما يتصل ذلك
بأدبه ، عرف ذلك فى موقفه من العقاد وطه حسين وزكى مبارك وقد داعبه
« الزبات » فى هذا حين كتب رده العنيف على « عفيفه السيد » إذ قال إنه حين
أراد أن يمسك قلم أوراق الورد ليكتب رده ، أخطأ فامسك قلم « على السفود » .
وإذا كان المؤرخون يأخذون على الرافعى شيئاً فانما يأخذون عليه
ترحمته فى كتابه « على السفود » .

ولكن يبدو أن « طاقة » الرافعى الناقدة كانت ضخمة جداً لوانه
أستطاع أن يجد المجال لها ، وفى خطاب منه إلى الأستاذ محمود أبو ريه (١) « كل
ما أتمناه من زمن بعيد هو أن نرفع لمقالات فى النقد نحو سنتين أو ثلاث تهدم
العصر كله من جميع نواحيه الضعيفة وتبنى عليه أدباً جديداً ،

وكان رايه في الصحف سيئاً .. « (١) لو عرفت يا أبا ريه الصحف وأهلها
لرأيت أن العمل فيها من أشق الأعمال على النفوس الكريمة فهذه ليست صحفاً
ولكنها حوانيت تجارة .

والرافعي سىء الرأي في المنفلوطي .. فان حياة هذا الرجل كانت كلها
موت له فصار موته كأنه حياة تبعث على الرغبة في قراءة ما كتب « ولكن الرافعي
على شماسه وعصبيته كان حريصاً وكان يعرف ما يطلعون عليه اسم الكياسة
والثبابة . يبدو هذا في خطاباتة إلى الأستاذ محمود أبو ريه :

« .. وأعلم إنى لو نظمت رثاء الشهيد فريد بك كما يجب أن ينظم وفي
المعاني التي تليق به لرأيت في الصحف خبر نقلي إلى قنا أو مادونها فترك الشر
ساكناً أجمل في .. »

وقوله : « دار الكل .. فان أتقاء الضرر كجلب المنفعة فاجعلها قاعدتك »

* * *

وغاية القول في « الرافعي » إنه كان على رأس مدرسة جديدة لا شك في
جدتها وقوتها ، في إنشاء هذا اللون الوجداني ، وجديدة في قوتها وصراحتها
وجراتها في النقد .

(١) نفس المصدر

جبران



عاش جبران خليل جبران حياة بلفها غموض وسحر وبريق ولهب وحب .. هذا النحيل الذي كان يرسم ويكتب. ويطوف ببلاد أوربا وأمريكا. ويكتب بالإنجليزية والعربية .. ويعيش في برج عاجي في قلب بلاد المهجر . ينشئ فناً جديداً من فنون الكتابة في الأدب العربي يتحرر به من قيود اللغة والأدب . ويضرب في سبيل جرى .

هذه الحياة القصيرة ، التي عاشها جبران ، ثمان وأربعين عاماً . كان الحب والآلم عنصراها الخالدان . ومنهما استمد الأدب عنده حياته وحرارته . وأحب أول ما أحب في هذه الدنيا « أمه » . أحبها بعنف وحرارة غير معهودة ..

« أمى . إن أعذب ما تنطق به الالاسنة هو لفظ الأم ، وأجمل مناداة في الوجود هي « يا أمى » كلمة صغيرة كبيرة . مملوءة بالآمل والحب والانعطاف . الأم هي كل شيء في هذه الحياة . هي التعزية في الحزن والرجاء في اليأس . والقوة في الضعف .. هي ينبوع الحنان والرافة . فالذى يفقد أمه ينمقد صدرأ يسند إليه رأسه ويدأ تباركه ، وعيناً تحرسه ، كل شيء في الطبيعة يرمز

ويتكلم عن الامومة ، فالشمس هي أم هذه الأرض ترضعها بحرارتها .
وتحضنها بنورها . ولا تغادرها في المساء إلا بعد أن تنومها على نغمة أمواج
البحر . وترنيمه العصفير والسواقي ، وهذه الأرض هي أم للأشجار والأزهار
تلدها وترضعها ثم تغطمها .

وعاش جبران للحب . وعرفه بكل ملذاته وآلامه .. « الحب كوثر تسكبه
عرانس الفجر في الأرواح القوية فتجعلها تتعالى متجمدة أمام كوكب الليل .
وتسبح مترنحة أمام شمس النهار » .
ولقي في حياته موكباً من النساء . في باريس . وبيروت . وبروكسل .
ولندن . وبوسطن ..

ولكن المرأة الأولى ظلت تقيم في أعماقه لا تبرحه .. « سلى كرامه »
المرأة التي أحبها في سن الثامنة عشرة .. المرأة التي علمته عبادة الجمال . وأرته
خفايا الحب .. وختمت قصتها بالمأساة . حين أرغمت على الزواج برجل آخر .
ومانت وهي تضع أول ثمرة من أحشائها .
« .. سلى كرامه » ، المرأة الأولى التي أيقظت روحى بمحاسنها .
وعلمتني عبادة الجمال . وأرغمت على الزواج برجل آخر .. »

كان في قلب جبران وعقله شيء واحد .. هو الفن : على صورة من الرسم
أو ورقة من الكتابة . كلاهما سيان عنده . ولما قصد إلى بيروت ليدخل
مدرسة الحكمة ويتعلم العربية .. وأحس بالفشل . ذهب إلى باريس ليدرس
الفن ..

شاب في العشرين من عمره . يرتاد متاحف اللوفر .. ويشاهد آثار
ميكلانجيلو وبرمبانت وروبنسن .. وفي العام التالي (١٩٠٤) عاد إلى بوسطن
حيث وجد أمه وأخوته في أشد حالات الألم . ومات بطرس ومانت الأم
بالسل . وبقيت أخته مريانا تنفق عليه من إرثها .

وتقاذفته عواصف الحياة . واندفع يعب من تيارها . « إننى أمتى
حواماً على هذه الشواطئ . بين الرمل والزبد . يحىء المد فيمحوا آثار قدمي
وتهب الريح فتثير الزبد هباء ولكن البحر والشاطئ باقيان إلى الأبد .. »

وعرف الحب فى صورة أخرى غير صورة سلى كرامه . وقال عنه « إنه
كوثر تسكبه عرائس الفجر فى الأرواح القوية فيجعلها تتعالى متجمدة أمام
كوكب الليل . وتسبح مترنحة أمام شمس النهار . »

عرف « مارى هاكس » .. ووجد فيها ذلك الملاك الذى كان يفتش عنه
منذ سنوات . وجد الصورة الحية فى أعماقه . أعجبه فيها ذوقها وفهمها للفن .
كانت تحبه متجردة للحب . لم تكن تمنى إلا أن تأخذ بيده إلى المجد . كانت
تؤمن أن لكل فنان ملهمة . فأرادت أن تكون ملهمته . يقول ميخائيل نعيمة
« ولم يخطر له ولا لمارى هاكسل أن الحائكة الأكبر قد التقط بمكوكه العظم
خطى حياتهما ، ليتابع حياكة النسيج الذى بدأ به منذ الأزل على منواله
السرمدى »

وعرف ميشلين . كانت فى عينه ملاكاً فى صورة امرأة . فى العشرين
من عمرها . فيها طهارة الطفل وابتسامة الزهر . « جميلة تمشى كان فى رجلها
أجنحة وفى قلبها سلطانها . لا عقلها . بلا ادعاء ولا كبرياء ، وربط الحب
بينه وبينها بالروح والجسد . ورمته بالأنانية لأنه رفض الزواج بها واتهمته
بأنه لا يعرف إلا نفسه . »

وظل حبها يصارع حب مارى هاكسل فى نفسه . وكان صراعاً طويلاً
جباراً وصفه بقوله : كان حبى للاثنتين خالصاً وفاقاً . أحببت مارى هاكسل
لتجردتها من الرذائل وكرم نفسها . وذوقها السليم فقد أحببتنى ولم تطلب منى
شيئاً . وأحببتها ولم أطلب منها شيئاً وأمدتني بالمال فى وقت حاجتى لها . ولم
تسكن لها أمنية إلا أن ترانى أرتقى مدارج الشهرة والمجد والكمال الفنى فى الرسم .

أما المرأة الثانية فقد أحبت بها لجمال روحها وجسدها . أحبت بها لوفائها وأنوثتها وطاعتها . كانت ماري أكبر مني ومثلين أصغر مني سنا .



وعرف أميلي .. كانت زميلته في المدرسة . كانت آية في الجمال والروعة لقد فتنه منها أنها قالت له عند ما رأت لوحته عن البحر : الفن هو أن تأتي بضمير البحر لا أن ترسم أمواجاً مزبدة أو مياهاً رزقاء هادئة . وكانت مثال البساطة والصرامة تغلب العقل ولا تعرف الشهوات .

وأحب « مي » دون أن يراها أو يعرفها . كان يحس أن روحها أخت روحه « سكب كل منا روحه في رسائله إلى الآخر .

وأرسلته ماري هاسكل إلى باريس على نفقتها . وعاش طالباً في البوزار في الحي اللاتيني .. يفكر في المرأتين اللتين تركهما وراءه .. وية قول يا ليت روح ماري كانت في جسد ميشلين ، وجاءته ميشلين .. من وراء المحيط . ولكنها سرعان ما تختلف معه وتهرب عند ما ترى أنه لا يريد لها الإحاطة له ..

وأضنى ثلاث سنوات زار خلالها رومه وبروكسل واندن ومتاحفها وآثارها الفنية وعاد إلى أمريكا ليبدأ حياة جديدة غير واضحة المعالم ، وكان خلال إقامته في باريس قد أنشأ كتابيه عرائس المروج والأرواح المنفردة ..

كان يطمح من أن يفتح الفن والأدب أمامه آفاق الحياة فيريخ مريانا من الإبرة . وكان ما يزال يحب ماري . وكانت هي تقدر مواهبه وتفهم أشواقه ومطامحه . ففكر في أن يتزوجها ليضع أحياته قاعدة تدفعه إلى التفرغ لعمله .. وقد وصف ميخائيل نعيمه حبها بقوله « كانت تحبه حتى لنحس بخمر جديدة تدب في أفكارها عند ما تجلس إليه » فلما عرض عليها رغبته في أن تتزوجه قالت له : وهل أنت نظيف .. « واقبل من حمل وديع إلى أسد جريح . كان يظن أن حبها له أرفع من محبة الذات » .. وتقاطعا وبدا أن

جهما قد تحطم .. واسكنها مع ذلك ظلت تبعث إليه بالحوالة ذات
الخسة وسبعين دولاراً .

وفي ضوء هذه الحياة المليئة بالحب والعواصف والآلام والمتاعب أنشأ
جبران أدبه . كانت قراءاته في الأدب الغربي ورحلاته المتعددة . وحياته
المضطربة ، هي التي صنعت أدبه المتمرد . المليء بالحرية والصراع والثورة ..
لقد أحب نيتشه وفتنه دعوته إلى الإنسان الأعلى . وكادت معرفته له
أن تغطي على معرفته لجميع الأدباء والشعراء . حتى لقد قال أن معرفته لنيتشه
قد جعلته يخجل من إثارة الأخرى التي قدمها قبل أن يعرفه .

وفي هذا الاتجاه يقول « أن الدموع إنما تليق بماقى النساء .. أما أنت
فدعك منها » واندفع يحرر نفسه وأدبه من الدين ، حتى رمى بالكفر ، لقد
أنكر الأديان واتجه إلى الإنسانية العليا ..

« لقد حررت عواطفى من عبودية الشرائع لأحيا بناموس المحبة، وحولت
وجهى نحو الشمس لئلا أرى جسدى بين الجماجم والأشواك . أن شرائع
الزواج كما يطبقها الناس هي من صنع الرجل . أما الحب الذى يريدون أن
يجعلوا الزوج تاجاً له واكليلاً . فهو من صنع الله . فالكاهن الذى يبارك لن
يطرد الحب من قلب يقيم فيه . ولن يدخله إلى قلب خلى » .

وهو منذ شبابه تأثر متمرد ، لا يحب الاعتدال « أحب من الناس المتطرفين .
أحب القادرين على الهبوط إلى لجج الحياة والصعود إلى أعاليها . أحب الذين
يميلون بكليتهم إلى وحدانية الأمور فلا يقفون مترددين بين تقيضين . أحب
النفوس الطامحة بمرام كاتب قوى ثابت . وأهوى الإرواح البسيطة .

« أحب المتطرفين المتحمسين الملتهمين . المستسلمين إلى عواطفهم المنصرفين
إلى مبدأ خاص . المتحولين عن اختلاط الأفكار إلى فكرة أولية مجردة .
ترتفع بهم إلى ما وراء الغيوم وتنحدر بهم إلى أعماق البحار » .

وهو فى الحب يبغي التطرف . « من يعتدل فى حبه لا يشرب من كأسات

الحب خلداً مبرداً ولا مراً حامياً . ومن يعتدل في دنياه يبقى حيث ولدته أمه .
فلا يراجع إلى الوراء ولا يخطو إلى الأمام . أحب الذين أحرقوا ورجعوا
وشنقوا وقضوا بحد السيف من أجل فكرة امتلكت عقولهم أو عاطفة
أشعلت قلوبهم .

وكان جبران بهذه النفس الثائرة العاصفة يحب العواصف والأعاصير
والأمطار المنهمرة والأشجار التي تتمايل وتضطرب أغصانها ،

وكان من جرأة رأيه أن حرمة الكنيسة من حقوقه وحكمت عليه
بالنفي لأنه كان إنسانياً في الدين فلا يراه في حدود الطقوس والمزامير .

وهو غال في رأيه ، يميل إلى الغرابة ، ويكره السهل واليسير والرأى
المطروق . وطبيعته لا ترضى بالطريق المسلوك ...

« أريد أن أنصب تمثالاً للجمال لا للحرية . لأن الحرية هي التي يشعلون
الحرب تحت قدميها . أما الجمال فهو الذي يمد الناس أيديهم إليه رمزاً للخلاص
والحب . »



ومضى جبران يشق طريقه . ويكتب رسائله . ومن أبرزها في هذه الفترة
كتاب « النبي » الذي صور فيه على هيئة « زرادشت » التي خلقها نيتشه . وإن
كانت شخصية النبي هي خلاصة أفكار جبران ذاته .

يقول مخائيل نعيمة أنه بعد سنة ١٩٢٠ أشرف على فجر حياة جديدة وأن
العواصف التي أثارها نيتشه كانت قد بدأت تهدأ . وإن جبران الذي انسلخ عن
نفسه المؤمنة بجمال الحياة وحكمتها قد عاد يبحث عن تلك النفس وينبشها من
لحدها ليجدد معها موثيقته .

وأخذت الشهرة وعلامات المجد يملأ حياة الفنان السكاتب . فتزايد زوار
صومعته وتكاثر المعجبون به ، وأكثرهم من الجنس الآخر . وبدأت علامات

الثراء تغمره وانطوى منه الأدب الجرىء وبدأ أدب المجاملة حيث يصفه
نعيمه بقوله « ولما أحس بالمجد والعظمة على السنة الناس لم يعد في استطاعته
أن يكوى تلك الآلسنة بنار نعمته وسخريته بل صار يبذل كل جهده ليكون عند
حسن ظن الناس . وكما ازداد توفيقاً في هذا القبيل اشتد عنف الحرب الناشئة
بين نفسه الظاهره التي يعرضها على الناس وروحه الباطنه التي كان يسترها
عنهم » .

وكان قبلاً « يصفع الناس بيد ويصالحهم بالآخرى . ويشور عليهم
عند ما تثوب إليه روحه المتألمة من كل شفاعة وقسوة وظلم . ويسالهم
عند ما تثور عليه نفسه الطاحه إلى المجد والعظمة وهكذا انقسمت نفسه
على نفسه » .

ومضى جبران يعمل وينتج . كانت روحه القوية تنازع الداء وتصارع
الآلم . . .

وظل الحب عنوان حياته وقوامها .. كان يحب ويدعو إلى الحب ويتسع
حبه للعالم كله وقد شرب كأس الحب حتى الثمالة .

يقول « عندما تتوثق عرى الصداقة بين رجل وامرأة فيذوقان معاً كأس
الحياة مترعة . تكون منهما ذاتية واحدة . وأصبحا كمن حمل وولد ولدأ ،
له أمل في البقاء والتناسل أو أنهما نظما قصيدة أو أنشودة لا تموت . هناك
في عالم الخالق شيء ان يموت لأننا صديقان » .

والحق أن المرأة كانت هي أروع فصل في حياة جبران . هي روح تلك
الحياة . ومنها استمد الضياء والفن والإلهام .

نقول برباره ينج صديقة جبران ومؤرخته : لم يشهد العالم كله أغرب
كجبران . شرب الكأس حتى الثمالة مره وشهده . وليس ثمة عاشق يعتد به
في الوجود يتحدث عن كأس الحب الذي شربه ..

كان هناك صنفان من المرأة في نظره . المرأة التي كانت تحبه وتخلص له
وتتفانى في ولائها ، لأن هذا الحب كان وليد الإقرار بالفضل والاعتراف
بالجميل .. كان حباً خالصاً ، لا يتطلب منه مجهوداً أو بذلاً . وهناك المرأة
التي كان يصف حبها بقوله « تعتقدين أنني أحسن بما أنا حقيقة . تحبينني
شاعراً ورساماً . وتصبونفسك إلى شيء مني كشاعر ورسام . أما أنا بلذات
فلست تعرفينني ولا تحبينني » .

* * *

وعاش جبران حياة البوهمية المطلقة . يحس أحياناً كأنه هبط إلى هذه
الدنيا من أحد الكواكب . وأنه إنسان يعيش على هذه الأرض بغير أمس .
وبغير ماض . وكأنما كل ما حوله من مظاهر البشر وأشكالهم وأهواتهم
غريبة عنه .

يقول « عند ما قدفتني أحشاء الغيب فكرة هيولية اجتمعت الكائنات
حولى لتخرجني هيكلًا ينبض بالحياة ، قبلتني النجوم بأشعتها فاستيقظت ،
ونفتت أزاهير الفصول الهاربة طيباً في فمي فتنفست . وأنشدت الحياة
والأعاصير أغنياتها في أذني فتحركت ، وسرت هينمة النسيم في مفاصلي
فاختلجت . وظلت موسيقى الكائنات تهدهدني بين أنغامها المنعشة إلى
أن تكونت » .

هذا هو أدب جبران يصوغ المعاني صوراً هائلة ، حاملة ، وقد عرف
بهذا اللون الابتداعي الخالص .

وفي كتاب « النبي » يصور المحبة على هذا النسق الموسيقي الحالم .
« جوهر الحياة واحد وهو المحبة . وهذا الجوهر يدفع ذاته لكل الناس
على السواء . ولكن بعضه لا يسمعه ولا يبصره . أما الذي طهر أذنيه من
جلبة الحواس الخارجية . ومنزق غشاوات الوهم عن بصيرته فليس يسمع

و ييصر من الحياة إلا جوهرها الصافي . وعندئذ فهو لا يحب بعضها ويكره بعضها . بل يحبها بكليتها .

الحياة وحدة شاملة تنكسر عليها كل المقاييس الجزيئية والفردية والزمانية والمكانية ، وهي قطرة الماء مثلها في الاقيانوس . وفي ذرة الرمل مثلها في الجبل .

* * *

ولما ارتوى جبران من الجمال والحب والمجد . . بدأ يحس بالانطواء ، وأخذ يكره الحضارة والمدنية الصاخبة العجاجة ، ويحلم بالجبال ، ولقد اتسعت دنياه ولكنه أحس بفقر أحد نأبا من الفقر القديم . ولوجده أقصى ملاس من تلك التي طالما ساورت أيامه ولياليه . فقد أقفر قلبه من الحب في حين أن النساء كن يحمن حوله ، حوم الفراش حول السراج . والشهرة وما إليها من بخور الإعجاب ، قد تחדر القلب حيناً ولكنها لا تطفى عطشه ولا تسكن جوعه ولا تؤنس وحشته . . فكيف به إذا كان قلب شاعر وفنان ، هكذا يصفه ميخائيل نعيمة . .

لقد جمع جبران في أدبه بين المتناقضات . ولكنه كان صادقاً . إن أدبه مرآة نفسه ، في تطوره من الشباب العاصف إلى الشخوخة المتمردة . . ومع ذلك فقد كان يرى أنه لم يصل القمة فيقول « إن كرمي لمثمر غير المحصرم ، وشبكتي ما برحت مغمورة بالماء » .

وعاش حياته . ثمان وأربعين عاماً . في صراع مستميت مع نفسه ليكون مثلاً أشبه بالتمثال المصنوع من المرمر . وترك تراثاً أدبياً خالداً . هو لون جديد . من الأدب العربي الجريء الحر : الجريء على قيود الأسلوب واللغة والخيال . الحر في أفكاره وأدائه . ولقد صدق جبران حين قال « جئت لأقول كلمة . وسأقولها . وإذا رجعت الموت قبل أن ألفظها يقولها الغد » .

فألغى لا يترك سراً مكنوناً في كتاب اللانهاية .

وعاد جبران إلى الأرض التي أحبها . ولكنه عاد جدناً كريماً حيث
ثوى قريباً من المكان الذي أحب . . . كان ذلك سنة ١٩٣١ . كنت
طالباً في المدرسة الابتدائية . وإني لأذكر ذلك كأنه وقع الآن . وكان
الأهرام يصل إلى بلدنا في الساعة الواحدة ظهراً . وكنا في إحدى حصص
بعد الظهر حيث لمحت اسم جبران في الصفحة الأولى ينعى إلى القراء . وساءلت
نفسى من يكون جبران خليل جبران . إن اسمه الموسيقى قد ملأ نفسى فرغبت
إلى أن أقرأ له . وصادفنى أول ما صادفنى له كتاب الأجنحة المتكسرة فرأيت
عنده في ذلك الوقت الباكر شيئاً جديداً لم يكن معروفاً في أدبنا العربى . هذه
الطلاقة وهذه الألفاظ المتموجة كأنها لحن موسيقى أكثر مما هى كلام
مكتوب . . .

وبدأت أعرف الأدب المهجرى وأقدر مكان جبران في أدبنا . وأخذت
أدرس هذا الطابع الجديد الذى تميز به أدباء المهجر ولكنى كنت دائماً أرى
جبران قمة من القمم العالية . كنت أحس أن وراء معانيه روحاً ناثرة متمردة
منفعلة . بها مرارة واضحة . كأنما يريد جبران للشرق أن يلحق بالحضارة
في دفعة واحدة ، ولا يقدر التطور الطبيعى . فهو ناثر ، أغلب ثورته على الطقوس
والتقاليد الموروثة باسم الدين والتي يسيطر بها الكهان على الناس . . وهذه
في عقله الباطن ترجع إلى قصته مع سلى كرامه . يوم وقفت هذه التقاليد
حائلة دون زواجه بها بعد أن أحبها . وكأنما كان هذا الموقف مقطعاً فاصلاً
في حياته وتفكيره وعقيدته . فهو قد اندفع في الحياة يكافح ولكنه لم يأنس
ما بقى من حياته إلى امرأة على كثرة ما عرف من النساء وكأنما وقف ذلك
الحب القديم حائلاً بينه وبين ممارسة هذا الفن الجميل ..

ولعل اندفاعه في سبيل المجد قد حال دون أن يتم حياته في هذه

الناحية كأي فنان ، وجملة القول أن جبران في مجموعه علماً على الصراع بين الشرق والغرب . وبين لبنان وأمريكا . وبين ظلال التقاليد وحرية الحضارة في ميادين الأدب والمجتمع والحياة فهو أحد ضحايا التطور . وأحد روادنا الأوائل . وقد اتسم أدبه بهذه الحيرة ، اتسم حياته بها . فقد كان أدبه صورة نفسه وحياته . لقد حاول أن يعيش فناً في قلب أمريكا ، مع ذلك فقد ظل ذلك الإنسان الشرق الكامن في أعماقه يراوده ويصارع ويضايقه . . ويبدو أنه كاد يستسلم إليه في آخر أيامه عند ما خفت حدة الصراع ودخل في دور الشيخوخة .



كانت قصة « مى »، فريدة في موضوعها ، لم يتح لها أن تتكرر في تاريخ الأدب العربى المعاصر ، فهى مرتبطة أشد الارتباط بالنهضة الجديدة التى جاءت على أثر صبيحة قاسم أمين حتى يمكن أن يقال أن « مى »، فكرة أكثر منها أثنى ، وعلامة من علامات الطريق أكثر من أنها كاتبة عاشت في القاهرة. وكان لها صالون تستقبل فيه أعلام الأدب أمسيات الثلاثاء .

برزت في الوقت الذى كانت المرأة فيه مازال محجبة ، وكان إلهامها لأرباب الفكر وأهل الأدب يكاد يكون معدوما . فكأنت « دره » مفردة ، يلتقى في مجلسها طه حسين والعقاد والزيات ومصطفى الرافعى واسماعيل صبرى ويعقوب صروف وولى الدين يكن .

ولعلنا لانستطيع أن نخلى آثار هؤلاء الأدباء من طيف مى ، وروحها اللطيفة . فقد أجمع هؤلاء جميعا فيما كتبوا عن « مى » أنها كانت محدثة لبقة موفورة الثقافة ، بارعة الحديث ، سيدة صالون بحق ، قد أعادت في القاهرة المعز صورة مجددة من مجالس الولادة بنت المستكفى حيث كانت تثار بين يديها مسائل الفكر والأدب والشعر والفن ، وهى بشبابها وجمالها وعبقريتها

تقدير الحوار في براءه ، وتنقل المحدثين من فن إلى فن .

* * *

قرأت آيات الأدبين الفرنسي والعربي إذ فتحت عينها على مكتبة والدها الأديب الصحفي ، واكتسبتها عاطفتها الحادة اتجاها فنيا ، فانشأت لونا جديدا من الكتابة النسوية ، وأسلوبا يدل عليها وتعرف به ، فكان أدبها صورة نفسها في أحزانها وأفراحها وأملها وآلامها ...

وكان أدبها إلى ذلك صورة الأدب النسوي العربي في طوره الجديد بعد باحثة البادية وعائشة التيمورية ، وقد كانتا شاعرتان أكثر منهما تأثرتان ، ولذلك عدت « م » الرائدة الأولى الأدب النسوي الخالص .

وقد أتاحت لها هذه الحرية في الكتابة والحياة والانطلاق بيئتها اللبنانية الأولى التي تفتحت عليها نفسها وعواطفها ، فهي قد ولدت في الناصرة ، وقضت أيام طفولتها في كسروان وعين طوري . ثم جاءت إلى مصر لجمعت بين روح الجبل وروح النيل ، وبين أدب الانجيل وأدب القرآن ، وبين بيان الضاد وبيان الفرنسية . فكان لها من هذا كله مزاج جميل هو الذي أتاح لها هذا التلم الرشيح الأنيق ، وذلك اللسان اللبق البليغ . وهما قنما يجتمعان لأحد إلا في النادر فتد عرف أن الكتاب البارعين لا يكوونوا محدثين إلا في القليل ...

* * *

ونحن إذ عدنا إلى « م » وتصورناها تعيش في التماهرة ، وقد أخذت تذيع أدبها في الهلال والمقتطف والأهرام ، وتفتح صالونها للأدباء والأقطاب رأيناها أشبه بروح جميل ، تنشر الضياء والشدى . . من حولها إلى كل مكان يمكن أن يصل إليه ، وإلى أبعد مكان يمكن أن يصل إليه ، فقد كان جبران خليل جبران يعيش في المهجر ، ومع ذلك كان قلبه يفيض بلون

من الحب الروحي الغامض لمي ، وكان الراجعي وهو يعيش في طنطا يسس أنه مرتبط الأواصر بها ، بل أن الأمر ليلبغ بالراجعي حدأ ، أن تكون هذه الرابطة أعظم خطراً من ، دلاقة صداقة مجردة . . . فـ « دلوننت » مي » أدب الراجعي كله ، وأثرت في أيام حياته كلها منذ عرفها إلى أن قضى . .

والحق أن « مي » قد أوحى إلى الكثير من الأدباء المعاصرين ، وأمدت أديهم بالهامها وتركت روحها وراء كلماتهم .

. . .

ولكن « مي » التي كانت تلتقي بالأدباء ، وتفتح صالونها لأقطاب مصر ومفكرها ، كانت في صميم حياتها الخاصة منظوية على نفسها ، كانت حريصة على أن تعيش طويلا في « برجها » الخاص لا تبرحه . كانت محافظة كثيرة الحيلة والكتمان والاحتراس ، تؤثر الاعتكاف ولا تغشى دور اللهو ولا تشارك في مرح الرجال .

ولعل مصدر ذلك غلبة الطبع الشرقي البعيد المدى ، الذاهب في جذور النفس ، والذي لم يتخلص منه حين تخلصت من مظاهره . ولـ « مي » إلى هذا كانت مصرة على أن يظل لها جوها الخاص ، وكانت لا تقبل النصيح أو التوجيه في تغيير أسلوب الحياة . وفي رحلتها إلى أوربا وعودتها ، كانت تعكف على نفسها وتنزوى في ركن من أركان المركب ، لا تشارك في رقص ولا طرب ولا مرح .

أنها من هذه النفوس الحذرة المتشائمة المنظارية ، الذي استقبلت الحياة على صورة لم تسبقها إليها أثى في زمنها ، ثم مضت كالطير الغريب لم تستقر فيه على شجرة ، أوقفن . .

كان الجو حولها على هدوئه صاخبا ، هناك نفوس حيرى كانت تتصل

بها ، وتكاشفها بالعاطفة ، ونفوس أخرى طوت أضالعتها على شوق أو
إعجاب . وتلقت هي رسائل جبران وولى الدين يكن والرافعي وعشرات آخرين
ووجدت في هذه الرسائل آمالا ومعاني ، تتصل بالأنفس الشاعرة ، وكتبت
« مى » إلى هؤلاء ، واسكن إلى أى حد مضت هذه الخطوط . .

من أحبت « مى » صادقة من هؤلاء ، وكيف رسمت في نفسها صورة
المستقبل ، هذا هو الجانب الغامض في حياة مى . وهنا سر حياتها وموتها
ومصدر أزمته التي أنهت حياتها بمأساه .

كانت « مى » روحا لطيفا ، وكانت تحب حبا وجدانيا خالصا . ولكنها
لم تلبث أن بدأت تصارع عوامل مختلفة متعددة في حياتها فقد ارتفع بها السن
وبدأ ان الحياة لا بد أن تأخذ طابعا أكثر استقرارا . . . وفيما تمضى مى
في طريقها إذا بها تتلقى عدة صدمات في وقت واحد فقد مات أبوها ، ثم
ماتت أمها بعد فترة قصيرة . . فزلزلت الحياة أمامها زلزالها . ثم لم يلبث أن
نعى لها جبران وكانت تضمر له ودا خالصا وتضطفيه .

. . .

استقبلت « مى » الحياة على غير الصورة التي تستقبلها بها الفتيات ، كان
للصالون والشخصيات التي التقت بها أثرها في نفسها ، وفي تكوين « عقدة » ما
لقد كان شبلى شميل ويعقوب صروف وهما عالمان كبيران ، انصرفا إلى
العلم وحده ، كان كل منهما يضمرا لها عاطفة حفية ، وهما في هذا
السن الكبير ، حتى أن شبلى شميل العالم الطبيعي الذي لم يعرف غير مقاييس
الاجرام والجاذبية ، تنفجر نفسه يقول الشعر في حب مى .

أما يعقوب صروف فقد كانت « مى » تبادله عاطفته وهى تكتب
إليه . . « اكتب اليك والشمس تنزل درجات الأفق ، وقد سبحت غيوم

المساء كما في بحيرات من العسجد والعنبر والزبرجد والياقوت في جميع أطراف
الافق تنهيج حرارة الربيع وتبدو يقظة الطبيعة وتلك الحرارة . ما أجمل
الشجيرات التي أنبتتها لنا كرما مصلحة التنظيم ، تبسم بأزهارها الكليقة
جانبي شارعنا .. هل ذهبت اليوم لشم النسيم ، أم اكتفيت بالسير في شارع
عماد الدين !

ربما كنت الآن سائرا في الحلاء تنظر إلى هذا الغروب الساحر وتفكر
أما أنا فلم أخرج من البيت في هذه الأيام التي كثرت فيها المعاكسات .
لو كنت اليوم في لبنان لقضيت فريضة الحج إلى حيث مشرق الشمس الفكري
منك وسيكون من مسراتي الكبرى هذا الصيف أن أزور البقعة الصغير
الكبيرة التي بلا ريب سيقيمون لك فيها تمثالا يوم يجتاز الشرق حد التحمس
الوقتي إلى تأدية الواجب نحو كبار رجاله .

...

وثمة عاطفة أخرى يذنها وبين أمين الريحاني . الذي يصف أديها بعد أن
قرأ كتابها « الصحائف » و « أشعة وظلال » بقوله . . . « دهشتني فيك
وأنت في حذر ، وفي قدس أقداسك شرقية لا تزالين — أدهشتني تلك
الشخصية المزدوجة العجيبة التي لا تعرف يسراها ما تصنع بمنائها . فهي لا تسمح
لعقلها في النقد بغير مقدار لحظة ، ولا لقلبها في مفاوز الشوق ومروج الحب
بغير نظره تذكرها بما في الحياة لفاسفتها ، وبما في الآداب لامراتها ، من
ظلال ناعمة طيبة وأدغال مدركة منعشة وأنت يا ممدركة السرفي الاثنين . تمتع
بالجماين . . . »

وهناك صورة أخرى من صور العاطفة الجباشة بين انطون الجليل ومي .
ولعلها واحدة من العوامل البعيدة الأثر في أزمتها ومآساتها .

لقد التقى الجليل ومي وعلى صداقة روحية امتدت من عام ١٩١٥ إلى ١٩٢٨
حوالي ثلاثة وثلاثين عاما . كان كل منهما في الشباب الغض ، وتطورت هذه

إدانة إلى عاطفة وحب عذرى . يقول لها فى بعض كتبه : يلاذلى يامى أن
طبيبك باسمك مجرداً من الوصف واللقب .. لأن كل وصف قليل إذا
قيس لصفائك ، وكل لقب ضئيل إذا ما اقترن باسمك ، ، بلغت إلى البحر
زودتنى له من سلام وتحيات .. الساعة الآن متأخرة من الليل ولا يسعنى
الانتقال بالفكر إلى تلك الشرفة الشاهقة ، ذات الفضل العظيم على فى مثل
الساعة . فاقف طويلا عن الكتابة ضائعا فى بحار الذكريات بل أن
كلمات تعصانى فأبحث عنها فلا أجدها ..

وهناك صورة أشد قوة ولوعة وحيوية ، هى صورة مصطفى صادق
الرافعى .

لقد أحب (مى) من أعماقه ومن كل قلبه . ثم حكم الزمن بالقطيعة . هذه
القطيعة التى لونت أدب الرافعى بعد ذلك ورسمت له طابعه وإتجاهه .. فقد
عاش الرافعى على هذا الحب ، وظل مشتغلا فى قلبه ، متوقداً بين جوانحه إلى
آخر أيام حياته . وكان يطمع فى أن تصل الأيام بينه وبينها مرة أخرى :
ولكن هل كانت مى تبادله هذا الحب ؟

إن هذه الكلمات التى كتبها « مى » للرافعى تعطى صورة واضحة لحب قوى
« سادعوك أبى وأمى متهمية فيك سطوة الكبير وتأثير الأمر . وسادعوك قومى
وعشيرتى ، أنا التى أعلم أن هؤلاء ليسوا دوماً بالمحبين ، وسادعوك أخى
وصديقى . أنا التى لا أخلى ولا صديق ، وسأطلعك على ضعفى واحتياجى إلى
المعونة ، أنا التى تتخيل فيك قوة الأبطال ومناعة الصناديد .

« سأستعيد ذكرك متكلما فى خلوقى لأسمع منك حكاية غموئك وأطماعك
وأمالك . حكاية البشر المتجمعة فى فرد واحد ، وسأسمع إلى جميع الأصوات
على أعرش فيها على لهجة صوتك . وأشرح جميع الأفكار وأمتدح المصائب من

الأراء ايتعاطم تقديرى لآرائك وأفكارك . وسأبتسم فى المرأة ابتسامتك
فى حضورك . سأتحول عنك إلى نفسى لا فكر فىك ، وفى غيابك سأتحول عن
الآخرين إليك لا فكر فىك .. ،

وكتب إليها الرافعى « .. أى بليغ يراك ولا يعرف منك فناً جديداً
من حسن معانية ومبانية ويعرفك ولا يرى فىك أبدع البديع فيما يعانية من
أقنانه . لله الحمد الذى جعلنا نتلقى الماء ولم يحشمننا أن نصعد من أجله السماء » .

* * *

هذه صور التقت فيها « مى » مع بعض من عرفت من الكتاب والأدباء
على عاطفة غير واضحة ، أو ذات ظلال ، ولكن كيف كانت نهاية هذه الصور
فى نفس « مى » .. لقد فكر الرافعى وفكر أنظون الحميل فى الزواج فإذا الذى
صرفهما . لقد مات جبران أن قبل يراها وقد واعداه على لقاء لم يمهله الموت ليمته ..
الحق أن هذه اللوحات تعطى صورة النفس الحزينة المتوردة ، التى
تدفعها عاطفة قوية فياضه ، ثم تردها طبيعة جبلت على الحرص وإقامة الحواجز
والحق أيضاً أن واحداً من هؤلاء الذين أستغرقت عاطفتهم حب « مى » فيما
يبدو لم يفاتحها فى صراحة فى الزواج .

هذا فضلاً عن انها ما أن فقدت أباه وأمها .. وبدأت خطوب الزمن
تنشأها ، حتى أنصرف عنها هؤلاء الذين كانوا يحيطون بها أمسية الثلاثاء .
لم تجد أحداً منهم يدفع عنها ، غائله بعض الأهل الذين كان لهم فيها مطمع
قريب أو بعيد .. إنها كانت تنظر إلى هذه الصداقات فى حرص وحذر ،
وكانت تريد أن تجد منها واحدة تدعو صاحبها أباه وأمها ، تطلعه على ضعفها
واحتيانها إلى المعونة ، وتجد فيه الرجل الذى تتمثل فيه قوة الأبطال ومصارعة
الصناديد .. لم تجد ذلك إلا فى الرافعى ، الذى غلب عليه كبرياته حين
رأها تؤثر شاعراً معروفاً بالحديث دونه فأنتفض انتفاضة المجروح ومضى ..
وحاولت مى أن تعتذر له فلم يستمع ثم عاش حياته نادماً ، وقد سبقته إلى الموت !

أما « مأساة » مى فاجمل (١) الرأى فيها أن بعض أقاربها حاربوها بعد موت والديها ، وكان لهم فيها مطمع ، لم يجدوا دونه منالا ، فادعوا أنها قد أصيبت فى عقلها ونقلوها إلى مستشفى العصفورية فى لبنان ... حيث أصيبت فى جو هذا المستشفى بمتاعب نفسية ، أضيفت إلى حالتها الخاصة فى هذه الفترة ، حين خلت حياتها من عطف الوالدين ، وحدث هذا فى نفس الوقت الذى أخذت تتخطى فيه الشباب إلى بواكير الشيخوخة وليس من حولها واحه لها ظلال ..

يقول سلامه موسى أن مى تزعت عقب وفاة والديها ، « وليس من السهل على فتاة أن تجد نفسها يوما ما وهى منفردة مقطوعة فى منزلها ، وخاصة فى وسط ، مهما قلنا أنه متمدين ، فهو لا يزال شرقيا .. »

ولما سافرت مى إلى لبنان ، لم يذكرها أحد من أولئك الذين كانوا يتصلون بها وهم صفوة أصحاب الأقلام ، أن أحدا منهم لم يحاول أن يدافع عنها ، فلما عادت لم يزرها منهم إلا القليل على قبيل المجاملة .

ويقول سلامه موسى أنها عندما عادت من لبنان « كانت سيدة بيضاء الشعر كأنها فى السبعين ، لقد قاست فى المستشفى كثيرا ، ثم عادت فلم تجد أحدا ينتظرها أو يترقبها ، كانت نضحك مرة وتبكي أخرى ، وكانت دموعها تنهمر بالبكاء ثم بعد لحظات تنشج بالضحك » .

ثم ماتت مى ...

• • •

لا شك أن « مى » قد سبقت الزمن ، حين ظهرت على هذه الصورة ، .. فقد كان أصدقاؤها يعجبون من صالونها ، وكانوا يحبون فيها صورة المرأة التى يقرأون عنها فى الأدب العربى ، فقد كانت المرأة المصرية إذ ذاك لاتزال

(١) روت لى هذه القصة السيدة جميلة العلابى تلميذة (مى) الأولى فى مصر والشرق

محجوبة عن الحياة الاجتماعية المصرية (١٩٢٢ - ١٩٣٨) ويبدو أنه لم يكن من الممكن أن يتزوجها أحدهم؟ فقد كانت غلبة الطابع الشرقى التى لا تزال تملأ هذه النفوس تحول دون ذلك .

ولقد حاول الراقى ان يتزوج دى ، ولكن شيئاً كان يقف فى وجه هذه الفكرة هى أن دى ، على هذه الصورة التى ترضاها لحياتها ، لا يمكن أن تكون لرجل واحد ، ولا يمكن أن ترضى طبع الشرق الحساس الذى يريد أن تكون المرأة له وحدة .. .

* * *

هذه قصة حياة دى ، أما أدها فقد كان لوناً جديداً ، ولا شك أن دى ، أنشأت مدرسة أدبية نسوية فى الأدب العربى المعاصر ، تتلمذت عليها الكثيرات وفى مقدمتهن جميلة العلايلى ، والكاتبة العراقية د مليحه ، وهند سلامة وغيرهن كثيرات ...

وأبرز ما يميز به أدب دى هو الحزن العميق ، الذى يبدو من وراء هذه الصور الشعرية المشرقة .. كانت يقول : .. أن مبالغتى فى التفاؤل هى فى صميمها وأصلها مبالغة فى التشاؤم .

كانت حياتها تجهما وعبوساً ، كانت حادة صارمة ، فلم يكن أدها إلا وسيلة للتنفيس عن النفس المكتئبة على صورة تريخ الأعصاب .

« العيون (١) .. تلك الأحداق القائمة فى الوجود كمتعاويز من حلك ولجين تلك المياه الجائلة بين الأشفار والأهداب كبحيرات تنطقن بالشواطيء وأشجار الحور .

تلك التى تذكرك بصفاء السماء ، والثى تريك مفاوز الصحراء ، والتى تعرج بخيالك فى ملسكوت أثيرى كله بهاء .. وتلك التى يتسع سوادها أمام من تحب ،

(١) أشعة وظلال أصدرته فى سنة ١٩٢٣ .

وتسكش لدى من تسكره . وتلك التي تثور بلحظه : أنت عبدى والتي تقول :
نى حاجة إلى الاستبداد فأين ضحيتى ؟ وتلك التي تبتسم وتتوسل . وتلك التي
تقول ألا تعرفنى ؟ !

العيون . جميع العيون . ألا تدهشك العيون ..
بدأت مى حياتها الأدبية بتحرير فصول فى جريدة أبيها ، المحروسة ، تحت
عنوان « يوميات فتاة » .. كان ذلك سنة ١٩١٥ ، ومن أجل هذه الفصول
مقال « غرفة فى مكتبة » تحدثت فيه عن فترة قضتها بين صور مشاهير الكتاب
فى إحدى غرف الجامعة المصرية .

فى سنة ١٩١١ كانت تكتب بالفرنسية ، غير أن بعض المحيطين بها
نصحوها^(١) بدراسة اللغة العربية ومطالعة الكتابات العربية الفصحى ، ثم
أخذت تقرأ ما يكتبه الكتاب حتى تكونت لها ملكة عربية شجعته على
الترجمة .. فترجمت ابتسامات ودموع .. وغيرها .

« وبعد^(٢) ذلك بدأ يجتمع عندنا شبه « صالون أدبى » كل يوم ثلاثاء
مكث أعراماً تحت رئاسة المرحوم اسماعيل باشا صبرى فاقبست منه تهديفاً
عريباً بما كان يلقى فيه أثناء الحديث باللغة العربية الفصحى .

.. وقال لى الأستاذ لطفى السيد أثناء الحديث معى « لا بد لك يا آنسة
من تلاوة القرآن الكريم ، لى تقبسى من فصاحة أسلوبه وبلاغته » فقلت له
« ليس عندى نسخة من القرآن » فقال « أنا أهدي لك نسخة منه » وبعث لى
به مع كتب أخرى فابتدأت أفهم اتجاه الأسلوب العربى وما فى القرآن من
روعة جذابة ساعدتنى على تنسيق كتابتى .. »

وفى خلال الحرب التحقت بالجامعة المصرية ودرست تاريخ الفلسفة وعلم
الأخلاق على المستشرق دى جلارزا ، كما درست تاريخ الأدب العربى والدول

(١) أم حدث أثر فى مجرى حياتى بقلم « مى » . هلال فبراير سنة ١٩٣٠ .

(٢) نفس المصدر .

الإسلامية ، ثم أمدتها الحركة الوطنية سنة ١٩١٩ ، باليقظة الأدبية والخلق الجديد .

وكان أول كتبها في اللغة العربية عن « باحثة البادية » صدر سنة ١٩٢٠
« وعلى ذلك أستطيع أن أقول أن أهم ما أثر في بحرى حياتى الكتابية
ثلاثة أشياء : أولها النظر إلى جمال الطبيعة ، والثانى القرآن الكريم بفصاحته
وبلاغته الرائعة ، والثالث الحركة الوطنية التى لولاها ما بلغت هذه السرعة
فى التطور الفكرى .. »

* * *

لقد تركت « مى » عدداً وافراً من المؤلفات والكتب والآثار المنشورة
فى عدد من الصحف والمجلات . وهى فى مجموعها تعطى صورة واضحة للأدب
النسوى الجديد فى أولى صورته الكاملة .

وتعد « مى » بحق رائدة الآداب النسوى المعاصر ، وما أظن إلا أن الكثيرات
من جئنا بعدها قد اتبعن طريقتهما فى تصوير النفس ورسم صورة العاطفة .
لقد كان أدب « مى » خالصاً للفن لم تتورع عيوب المناسبة السريعة ، أو النزعة
الصحفية .

أضواء على حياة

« م »

ومآساتها

* ... قد ييوح المرأ للناس بأعظم أمانية . ولكن الأمنية العليا تظل سرأ مكتوما بينه وبين نفسه . ولو هو فقد كل شيء آخر لبقيت تلك الأمنية رأس ماله الخاص الملاصق لأخفى ما يخفى من قدس أسرارہ ...

« ماء السيل يتدفق على الجلاميد القاسية ويتشعب بين النوائى الوعره ، وينصب فى شلالات مضطربة وانحدارات مرتعشة . يحشر فى أغواط سيئة المضاف .. فينزح إلى مزاولتها ، إلا أنه يفشل .

ثم يعضى فى جريه قرب الشواطىء الباسمة ، ويتغلغل بين الحدائق الغناء فيرتاح إلى ظلالها . ويهيم فى صمتها الشامل الذى لا تقطعه غير أنشودة الناعورة الساذجة ..

ثم يسترسل السيل فى مجراه وقد تلقى إليه يد متآنية بزهره زرقاء هى شارة الحب فلا يحاول تعرف تلك اليد . أما هذه الزهرة النحيفة التى يحملها عبابة فعبثا يسعى للاتحاد بها والتوحيد وإياها ...

« ... فى بعض الساعات الألم تشعر بأن للزمن كهفا تخفزه الضواری وأنت وحدك فيها سجين والناس فوقك شامتون ، يرقصون ويمرحون ...

« أن مجموعة أعمال المرأة غاية جلية يقوم بها النساء عالياً الحياة تحت أكاليل العزم والجهاد . وقد اختفت من عيونهن خيالات الخضوع والمسكنة

وحلت محلها نظرة لم تعد عبدة المجتمع ولا عبدة الحاجة ولا عبدة الرجل ولا عبدة قلبها . وهو أعظم جائر مستبد .

هذه « دى » ، فى بعض خواطرها الطليقة تعطيك صورة الاتى المشوقة المحرومة الطامعة المتطلعة إلى الغيب ، التى كان الأدب بالنسبة لها افضاء وتنفيس ، فكانت بذلك مصدر الوحي لعدد من الكتاب والأدباء .
روحى على دور بعض الحى هائمة كظامى الطير تواقا إلى الماء
أن لم امتح بى ناظرى غدا أنكرت صيحك يا يوم الثلاثاء
وما أظن أن « انسانية » فى تاريخ الأدب المعاصر تستطيع أن تحتل مكانة « دى » ، فقد برزت فى الأدب فى الوقت الذى كان الحجاب فيه لا يزال مضروبا على المرأة ، وكان لها فى ذلك الوقت « صالون » يرتاده الأدباء والفلاسفة والمفكرون .

وكانت هى جميلة ، ومحدثة ، ولبقة . . . وقد انتهت حياتها على صورة مزججة لم يتمكن بعد أحد من الذين عاصروها ، من تصويرها !
ولاشك فى أنها قد أحبت ، ولاشك فى أن الذين عرفوها قد أحبوها . .
وما من أحد منهم يتحدث عنها إلا ويصور هذه العاطفة .
ولا استبعد أن يكون مرضها العصبى ، وجنونها ، وموتها فى النهاية نتيجة لصراع بين العاطفة والتقاليد والعرف والدين ، لم يستكشف بعد على صورة واضحة .

وهذه أضواء من كل مكان على حياة « دى » ،

يتول العقاد وكانت قاسية على نفسها ، كثيرة الانطواء على داخليتها ، وكان يخيل إلى أن احتراسها المفرط خصلة عميقة فى سريرتها لازمتها فى ريعان الشباب لأنها كانت قليلة الامن والطمأنينة إلى الناس . وكانت على دمايتها

لا تدع الحواجز بينهم وبينها ، ولا تفتأ تعيش وراء صورة من الحيلة والكتان .
وكنت أشفق من فرط احتراسها وكلفتها ، فقلت لها يوما بحجرتنا على
مصارحتها : أنا لست على رأيك يا صديقتي في نفع الحذر وجدوى الاحتراس ،
بل عندي أن عناء الاحتراس أضّر من كل عناء يصيبنا من ترك الحذر وقلة
المبالاة . فلا تبالي ولا تحترسي وانطلق في حياتك فذلك أخف الضررين .

ويقول الزيات وكان لمي واصالون مي في أدب العصر آثار وسمات . ألهمت
حبيري ، وأوهمت الرافعي ، وألهمت جبران ، ثم أخرجت من سواء المداد صورة
مختلفة الألوان ، متنوعة الافئدة ، أضافت بها إلى ذخائر الفكر الإنساني ثروة
ثم تقدم العصر وطوت دمي ، أكثر مراحل الشباب ، فتنكر الدهر وتغير
الناس ، وورد أبواها متعاقبين حياض المنون ، فاستكاثت للحزن وأخلدت
إلى الوحدة . فانقض السامر الأنيس ، وانطفأ السراج اللامع ، وانحدرت مي
في طرق الوحشة والمرض والنسيان إلى نهايتها الأليمة ... هي فتاة بارعة
الظرف ، تشارك في كل علم ، وفي كل حديث وتختصر للجليل سعادة العمر
كله في لفظة أو لمحة أو ابتسامة .

ويقول زكي مبارك : كنا جماعة من المحرومين لانعرف الجمال إلا إذا قرأنا
كتاب تزيين الأسواق أو مصارع العشاق وفي إحدى الأمسية جاءت الآنسة مي
عن الحجرة التي تلقى فيها دروس الفلسفة العربية ولاني كنت قد نشرت
كتابا عن حب عمر بن أبي ربيعة الفاجر الملعون فقد تجنبتي ولم تجد
أوفى من الشيخ أبي درة في لحية المستديرة وقفطانه الفضفاض لتسأله
وكانت المحاورة

— أين حجرة الفلسفة العربية يا أستاذ ؟

— نعم يا مولاتي ، نعم يا مولاتي

فتقدمت إلى الآنسة فدلتها على السبيل وعدت إلى أبي درة فقلت له :

نفضحتنا يا سيدنا الشيخ ، ما هذا الهذيان ؟

وانتظر الشيخ أبو درة حتى أفاق من أغماقه ثم قال :

— سبحان الله أنا يا أستاذ مبارك لا أستطيع مقاومة الجلال .

وسألني الأستاذ اسماعيل رأفت عن معنى كلمة « مى » ، فلم أعرف الاجابة فقال لى ، أن مى معناها الخمر وهى كلمة فارسية .

وكتب أمين الريحاني إلى « مى » ،

« أدهشتنى تلك الشخصية المزدوجة العجيبة التى لاتعرف يسراها ما تصنع
بمنها . فهى لاتسمع لعقلها فى النقد بغير مقدار لحظة ، ولا لقلبها مفاوز
الشوق ، ومروج الحب بغير نظرة تذكرها بما فى الحياة لفلاسفتها ، وبما
فى الآداب لامراتها ، من ظلال ناعمة طيبة ، وأدغال مزهرة منعشة . وانت
يا مى تذكرين السر فى الاثنين . بمتعة بالجمالين . وأشكر الله أنك كاتبة فلا
تستأثرين بما تتمتعين ، وأشكر الله أنك صديقتى فتذكريننى مع من تذكرين »

زكى مبارك



لا شك أن «زكى مبارك» من الشخصيات الأدبية القوية ذات الأثر الواضح في هذه الفترة التي نؤرخها . فقد شغل الصحف بانتاجه على صورة من الحيوية والتدفق لفتت إليه الأنظار بقوة ، كما أصدر طائفة من المؤلفات الضخمة التي أثارت الكثير من المساجلات ، ويتميز أدب زكى مبارك بمزيتين غاية في الوضوح : العاطفة والصراع .

فهو كاتب عاطفي متدفق ، تغلب عليه الطلاقة والجرأة والحرية في عرض مسائل الحب وقضايا الوجدان على وجه يكاد يتفرد به . ويرسم هذا الأدب لمبارك في نفوس النقاد صورة الرجل الذي تعصف به النزوات والتمواعطف إلى أبعد حد .

ويتصل بهذا حديثه عن نفسه الذي يكاد ينتظم أدبه كله ، والكتابة انذائية لا عيب فيها ولا يفض من شأنها إلا أن تكون حلقات دائرة من المدح والثناء والدوران حول معنى واحد ، بل هي أصدق ألوان الأدب .

وعندنا طائفة من الكتاب الذين يطوون عاطفتهم طيا فلا تستطيع أن تليح أرواحهم ولا ذاتيتهم .. مما يجهد الباحث أو المؤرخ إذا أراد استعراض ملامح أرواحهم وشمائل شخصياتهم .

أما الصراع فيرجع في الأغلب إلى أن زكي مبارك رجل نقل طبيعته الفلاحة إلى الأدب ولم يتخلى عنها . فضلا عن ذلك الشعور الذي ملأ نفسه وهو احساسه بالظلم في مجتمعه . يقول الزيات . « إن زكي مبارك لون من ألوان الأدب المعاصر لا بد منه ولا حيلة فيه ، وهو الملائم الأدبي في ثقافتنا الحديثة ، والرياضة كما تعلم ضرورة من ضرورات الحياة اللازمة للعقل والجسم . أما عنقه وشماسة فهما الصنيع المميز للونه . . على أنه هو أول الشاهدين على أن صفارتي قد بحث من طول ما أهابت به وهو في قفازة السنتريسي يهدر في المجال بين الجبال مغضيا بعض الأغضاء عن قواعد الملاكمة .

« والحق أن حياة زكي مبارك الأدبية حلقات متصلة من الصراع والمعارك فمنذ فجر شبابه أصدر كتاب الأخلاق عند الغزالي الذي تناوله العلماء ورجال الدين بال نقد ومضى يصارع في عنف فتناول طه حسين والرافعي وأحمد أمين والعقاد وعبد الله عفيفي والسباعي بيومي . .

وكانت هذه المعارك تدور في الأغلب من جانب واحد ، هو جانب زكي مبارك حتى شاء الله أن تدور المعارك ضده من جانب واحد هو غير جانبه على التحقيق عند ما بدأ الغمراوي ودريني خشبة وغيرهما يناقشون نظرية وحدة الوجوه ويتناولون بعض ما كتب عن القرآن في كتابية النثر الفني والتصوف الاسلامي . .

وعجز زكي مبارك عن المصاولة لجأة . . وألقى سيفه وطوى ردهائه وانسحب من الميدان متعللا بأعذار واهية وكان هذا في الواقع نهايته الأدبية ، وإن عاش بعد ذلك سنوات يكتب تلك الفصول المفككة التي كانت تنشرها البلاغ . .

بدء زكي مبارك حياته الأدبية على نفس الصورة التي بدأ بها طه حسين والزيات ومصطفى عبد الرازق وأحمد أمين . « مجاورا ، معهما ، وكان في مطلع شبابه شاعرا غزلا . . جاء من أعماق الريف . . وظل طوال حياته

يفخر بآفة فلاح ، ثم أتبع له أن يتصل بالبيئة الحديثة التي كانت تدور حول
محورين هما « الجريدة » . . والجامعة المصرية ، التي كانت بدعة العصر
إذ ذاك . . وجاهد زكي مبارك حتى استطاع أن يتم دراسته في مصر ، وسافر
إلى باريس ليحصل على أرقى أجازاتها العلمية ، وبذل جهدا مضينا ، وكافح
كفاحا مستميتا ، كان ينبعث بلا شك عن طموح قوى وإصرار مؤكد .

وتلذذ على المرصني والمهدي ، ومال بطبعه إلى شعر الغزل والنسيب وقرأ
العباس بن الأحنف والشريف والمخون وعمر بن أبي ربيعة وظلت هذه
الرموز الأدبية تسيطر على طابعه الأدبي طوال حياته . واشترك في الثورة
المصرية ١٩١٩ واعتقل في الأسكندرية وقال : « لقد أقدمت يوم جد الخطب
غير وجل ولا هيب . »

* * *

ورسم زكي مبارك جهاده في سبيل الطفر بإجازاته العلمية من باريس
في مقدمة كتابه « النثر الفني » في صورة اخاذه . . « فأن رأوه — أي الكتاب
— أصغر من أن يورث المؤلف شيئا من الزهو فليذكروا اني الفته في أعوام
سود لقيت فيها من عنت الأيام ما يقصم الظهر ويقصف العمر ، فتد كنت
أشطر العام شطرين أقضى شطره الأول في القاهرة ، حيث أودى واجبي ،
وأجنى رزقي . وأقضى شطره الثاني في باريس كالطير الغريب ، أحداث العلماء
واستلهم المؤلفين ، إلى أن ينفذ ما أدخرته أو يكاد ، ثم صممت على أن أقطع
إلى الدرس في جامعة باريس حتى أنتصر أو أموت . »

وغلبت النزعة الوجدانية على رسالته التي تقدم بها لاجازة الدكتوراه
« النثر الفني » وكان هذا من العيوب الذي أخذت عليه .

كما أنه نزع الصراع غلبت عليه وهي في ميدان البحث الجامعي فاصطدم باستاذ
« مرسية » إذ قدم في رأيا يعارض به مذهب الأستاذ . يقول : « .. وقد نصحتني

مسيو ماسنيون وأفهمني أنه ، أى مرسية — رجل صعب المراس ، وأن منزله في المعهد العلمي عظيمة ، وأن المستشرقين يحلونّه أعظم الاجلال ، ولكن ، كتب الله أن لا أنتصح . . فابتدأت رسالتى التى قدمتها للسربون فى نقض أرائه من الأساس . فغضب الرجل وثار . . وصمم على حذف الفصلين بحجة أنهما لون من الاستطراد لايواثم الروح الفرنسى فى البحث . وصممت على إبقاء الفصلين . وكأنما عز على الرجل أن أهاجمه فى مقر داره فضى يعاديني عداً خفياً كانت له آثار بشعة لا أتذكرها الا انتفضت رعباً من عجز الرجال عن ضبط النفس وقدرتهم على تقويض دعائم الانصاف وقد قابلت خصومته بلدد اقصى واعتف ، ورأيت الحرص على أرائى أفضل من الحرص على رضاه ، فابقيت الفصلين اللذين أغضباه ،

. . .

وقد أوتى زكى مبارك أسلوباً قوياً ، لاشك فى قوته وبلاغته . وقلبه طليق عاصف ، وهو من النوع الذى لا يعرف الوسط والذى يحب بكل قواه ، ويبغض من أعماق نفسه .

يقول . . كنت فى مطلع حياتى الأدبية من المفتونين بأسلوب بديع الزمان والحوارزى والصابى وابن العميد . ثم شاء الله عز شأنه أن أتعلم فى دراسة الأدب العربى والأدب الفرنسى وأن أقبل بنوع خاص على ما كتب النقاد الفرنسيين الذين أطلالوا القول فى دراسة أسرار البلاغة مقرونة بدرس نفوس الكتاب وسمائهم ومشاعرهم وضمائرهم وألوان حياتهم فعرفت أن هناك جمالا غير جمال الصنعة البراقة التى تشوق الحواس . هناك جمال النفوس الصافية والأرواح الملهمة والقلوب الحساسة .

ويصف طريقته فى الكتابة بأنه إذا كتب خطاباً فى المساء ، فتركه

بلا نظريف لتسهل مراجعته في الصباح ولتبقى الفرصة للحذف منه والاضافة
إليه ، فمن المؤكد أن للرأى موجات تختلف باختلاف الأوقات . وقد تنكر
في بياض الصبح بعض ما كتبت في سواد الليل . . .

ويقول أنه لم يعرف الفرق بين التسويد والتبيض . ولا استبيح معاونة
الصنعة على مغالبة الطبع ، وكنت أعجب حين أسمع إن من الكتاب من ينسخ
مقاله مرات قبل أن يطعن إلى صلاحيته لمواجهة القراء . كان رأى أن جرى
القلم على القرطاس هو جرى الجواد في الميدان وهذا المذهب في رياضة القلم
هو الذى عرضنى لكثير من الجراح لأنى لأملك صده حين ينطلق . فما بال
الأقدار تروضنى بعد الجموح وتفرض على أن أتلفت ذات اليمين وذات الشمال
وأنا أجرى في ميدان البيان (١) . . .

. . .

ولعل أبرز ما يلفت النظر في أدب زكى مبارك صورة المرارة التى تنظم أدبه
كله ، فهو يصور نفسه بصورة الرجل المظلوم الذى صارته الأحداث وشقى بها ،
فتحس بعنف الخصومات والمتاعب الذى صادفها فى حياته يقول « مانبع نابغ
فى الشرق لهذا العهد ، إلا بقوة ذاتية حتمه وعصمته من كيد المخذلين والمعوقين
فهم كالأشجار التى تنبت فى الصحراء ثم تصير بواسق برغم الظمأ والأعاصير ،
ويحرص على أن يصور نفسه فى صورة الرجل الفرد المعزل ، قضيت دهرى
بلا نصير ولا معين ، وسأظل كذلك لأقيم الدليل على أن من يستعز بالله
لا يخفق ولا يضيع ، ويصور مدى ضيقه بالناس ورغبته من مجتمعهم . .
لقد أقمت دارى على حدود الصحراء لآنس بظلمات الليل ولأنسى أنقى
موصول الأوامر بهذا الخلق ، ولانا جى موات البادية حين أشاء . . .

(١) الرسالة : ٢٠ يوليو ١٩٤٢ .

ثم تقع الأزمات وتسود الدنيا من حوله ويبين له غدر من كان يثق بهم فيكتب : لقد علمتني التجارب أن الإنسان أضعف من أن يقطع رزق أخيه الإنسان . فهناك قوة ربانية تؤيد المجاهد في سبيل الرزق الحلال . . .
ويتحدث عن الصداقات . . . لقد كنت أنظر في رعب وفزع إلى الصداقات التي تهدمت من حولي في الأعوام الأخيرة ، وهي صداقات أنفقت في بنائها ما كنت أملك من كرم الوفاء في عنفوان شباني .

ويصف نفسه في مرارة تدل على مدى الألم الذي يغمر نفسه من تصارييف الحياة . . . نحن قوم كوتتنا صروف الأيام والليالي ، فإن اكثرت أيدينا فسنملك من السيطرة على القراء أكبر مما نملك ، وقد يلقاك الدهر بأفضل وأجل مما يلقانا وهو عندنا غادر جحود . وقد عيب علينا أن نشكو الدهر ونحن في سعة من العيش وسيرتقى ذوقك فتدرك أن الخواص لا يشكون جوع البطون ، وإنما يشكون جوع القلوب .

ويصور مبارك رسالة الأديب وصلته بالحياة حين يقول : . . . لكم أن تراجعوا حظوظ من عرفتم من الأدباء فسترون أن أبلغهم أثراً في أنفس الجماهير وأقدرهم على أسر القلوب وغزو القلوب وامتلاك النفوس . هم الأدباء الذين ابتلتهم الحياة بصنوف الأرزاء وعرفوا كيف تقسو الحياة وكيف تلين ؟ أولئك الذين يكتبون وفي كل حرف أمر ظاهر أو غرض دفين . . .
وحين يتصل قلم زكي مبارك بالخصومات يبدو غاية في الشراسة والقسوة . . . إن (١) الذين يعادونني لا يعرفون عواقب ما يصنعون . إنهم يجهلون أن الهدوء يفسد أمعاني ويحوجني إلى زيارة الطبيب . . . وسترون إن امتدت الخصومة بيني وبينكم كيف أسقيكم كأس الهلاك وكيف أوردكم موارد الحنف وإن اعتصمت بشاهقات البروج . .

(١) البلاغ — الحديث ذو شجون : يونيو ١٩٣٥ .

لقد بدأت حياتي الأدبية بأناشيد الحب والجمال ، ولو خلاى الناس
 وشأنى لعشت بلبلًا وديعاً لا يسمعون منه غير أنغام الحنين . ولكن لؤم
 اللثام حولنى إلى إعصار عاصف يمحى ما يصادف من اليأس والأخضر
 والطير والحيوان ، ولا أذكر الإنسان فما سمعت بأخباره في هذا الزمان .
 أما بعد فله نعمه في كل شيء ، ومن أجل نعمه على الأديب أن يخلق له
 من المسكاره ما يوقظ حسه ويرهف وجدانه ويقهره على حمل السيف . وقد
 جربت ذلك في نفسى وفى قلبى . وهل من القليل أن يشعر الرجل بأن حياته
 هول يقاسيه الخصوم في اليقظة والمنام ..

* * *

ويبدو « زكى مبارك » في صورة عاصفة من الحيرة إذا اتصل الحديث
 بنفسه .. « وأعود إليك يا صديقى فأقول إن الأزمة الباقية هي أزمة القلب ،
 فقد فهمت كل شيء وعرفت كل شيء . فان قلت لك إنى أشكو خيبة في الحب
 أو إخفاقاً في المجد ، أو غدراً من الأصدقاء . فاعلم أن هذه محرجات هيئة ،
 تنزعج لها النفس لحظة ثم تروى . وأكاد أحسب أن الناس يتخذون من الحب
 والصدقة والمجد علالات لقلوبهم وأرواحهم ، وأظنهم كذلك ينزعون إلى
 الأحزاب السياسية والدينية والاجتماعية لينسوا ما في أنفسهم من القلاقل
 والثورات . وأنا لم أنجح في شيء من ذلك لأن استقلال إرادتى حال بينى وبين
 الاندماج التام في هيئة من الهيئات . أو حزب من الأحزاب . فأنا بين
 المؤمنين ملحد وبين الملحدين مؤمن ، وأنا بر عند الفجار . وفاجر عند
 الأبرار . وأنا في كل بيئة أجنبي وفى كل أرض غريب . وهنا يكون الفرع
 الأكبر إذ أعود إلى قلبى وجهاً لوجه ، وهو قلب خطر ، والموت عندى أهون
 من مواجهة ما فيه من أهوال وخطوب . فليت شعري أين المفر وأين يكون
 الفرار ..

ويقول عن نفسه « ما رجعت إلى نفسى مرة إلا تهيبت اقتحام ما في

شعابها من وعور وصخور وأشواك . وقد وقفت مرة على ساحل النفس
في ظلمات الليل فرأيتني عندها من الغرباء . . .

وقد ظل — بالرغم من اتصاله بالأوساط الأدبية الأوربية — ريفي الطبع
بدوى أسلوب الحياة وكان حريصاً على أن يقول كلمة الحق مهما كانت مريرة
أو جارحة ، فكان لذلك أثره البعيد في تخلفه وقيام الأحقاد من حوله وثورة
العواصف في وجهه وقد لقي من ذلك شططا وكان يستطيع أن يوفر على نفسه
ذلك كله لو اصطنع شيئاً من اللبابة التي لا تحول بينه وبين الإفصاح عما يريد .
وهو يبنض النفاق أشد البنض ، ويحتقر الحظوظ التي يحصل عليها
الناس من وراءه . . . فليظفر من شاء من طيبات الحياة تحت ستار التي
والدين . فتلك حظوظ سافلة لا يفرح بها إلا الضعفاء الذين يعرفون أن
مصارحة الجمهور عبء ثقیل لا ينهض به غير الأقوياء . . .

ويمضي في رسم هذه الصورة الجريئة . . . لو كنت أتجرت بالتراب
لصرت من كبار الأغنياء . ولكنني شغلت نفسي بما لا يفيد . فذرعت
فضاء الله في فرنسا إلى أن سبحت في بحر المائش ، وذرعت فضاء الله
في العراق إلى أن سبحت في شط العرب وألفت اثنين وأربعين كتاباً . . .
واشغلت بالتدريس عشرين سنة . . . وكانت صراحتي تقطع رزقي . . .

* * *

وقد لون زكي مبارك هذا الطبع الجريء بأدب القوة . . . والقوة « إن
الرحمة شيء جميل . ولكن دنيانا لم يقيم فيها بناء واحد على أساس الرحمة .
والطبيعة نفسها لم يقيم فيها وضع واحد على أساس الإشفاق ، وإنما قام كل
شيء في الوجود على أساس القهر والغلبة وسيطرة القوى على الضعيف » . . .
ويصل إلى أروع معاني القوة حين يقول « . . . الشجرة لا تحفظ إلا يدي
التي تعيدها بالرى والعناية . وإصلاح التربة والصيانة من العواصف وأضرار
الرياح . ولكنها تحفظ اليد المعتدية التي تأخذ خنجراً وتحفر اسم صاحبها

على ساقها بالنحت والتكسير من غلافها والسطو عليها .
ويبلغ الدكتور زكى مبارك قمة القوة والإنصاف من النفس حين يتحدث
عن الغزالي . ويذكر ماضيه معه . وكيف هاجمه ثم عاد فاعتذر إليه .

«إليك»^(١) اعتذر أيها الغزالي . . . في سنة ١٩٢٢ كنت أقضى أكثر الوقت
في تحرير كتاب الأخلاق عند الغزالي . وكان ذلك في أعقاب أعوام شداد
واجهت فيها نار الثورة المصرية واكتوت يدي بلهب الجدل والصيال حول
المطالب الوطنية . فأثر ذلك في عقلي وتفكيرى إلى أبعد الحدود . وحملى ذلك
التأثير على السخرية من اعتزال الغزالي للمجتمع السياسى وابتعاده عن الضجيج
الذى كانت تثيره الحروب الصليبية في ذلك الحين .

ثم مرت أعوام راضى فيها الدهر بعد الجوح ففكرت أن الغزالي لم يكن
من الجبناء وإنما كان من الحكماء . . .

* * *

وقد عرف زكى مبارك بأنه من ذوى الصبر والجلد على مراجعة الأسانيد
وأطروحاته الثلاث^(٢) تدل على مقدار ما بذل من جهد في التوفر على دراسة
موضوعاته .

لقد قضى حياته الأدبية عاكفاً على الورق ، وشغل نفسه بالدرس أيامه
ولياليه ، حتى حالت بينه وبين «اقتناص الفرص الشوارد» . . . وقد يمضى
العام ولا أعرف طعم السهر في مغامرات القاهرة . . . وسجل في بعض آثاره
أنه لم يعرف الأجازات في صيف أو شتاء . . . ولا يذكر أنه انقطع عن
الدرس في يوم من أيام المواسم أو الأعياد ، حتى أيامه في البواخر كانت أيام
قراءة وكتابة .

(١) الرسالة ٢٩ يوليو سنة ١٩٤٠ .

(٢) الاخلاق عند الغزالي ، والنثر الفنى ، والتصوف الاسلامى .

وقد هاجم زكي مبارك كتاب مصر جميعاً بعد عودته من أوروبا سنة ١٩٣١ واتهمهم بأنهم اتهبوا آرائه أثناء غيبته . وأذاع عن نفسه أنه يحفظ ٣٠ ألف بيت من الشعر . وقد أغرم بالنظم ، ونشر ديواناً ضخماً ، وحسب نفسه في عداد الشعراء وهو من الكتاب الذين يحسنون التعبير بالترسل أكثر مما يعبر بالقريض ومثله في هذا المازني والعقاد .

• • •

أحب الرحلات والأسفار ، وكانت عماد مجده الأدبي سواء في باريس أو العراق . . (١) رحلت عن مصر خمس مرات . وكنت في كل مرة أغض عن عيني عن صفير الباخرة حتى لا أودع شواطئ الاسكندرية ولا أفتن النفس بفراق هذا الثغر الجميل ، وكان سر ذلك أني كنت أشعر دائماً بأنني أعيش في وطني عيش المغبون .

كانت الآمال التي بدتها الليالي تتمثل لحظاري كلما حان الرحيل فاتجملد وأتكلف الصبر على فراق الوطن الغالي .

ويقف في حديقة باريس يناجي الطاووس فلا ينسى غربته . . ولا ينسى حرمانه . أيها الطاووس . . كلانا غريب في هذه الديار ، ولكن الحسان تسمى إليك إسراباً إسراباً في الضحى والأصيل . أما أنا فاتعقب الحسان من ملعب إلى ملعب . من بستان إلى بستان . ثم أعود وليس لدى ما أذهب به وحشة الليل غير ترتيل ماقاله المعذبون من شعراء الوجدان .

• • بك بعض ما في أيها الطائر الجميل . وليس لدى بعض ما لديك من آيات الحسن والاشراق . . أنت تملك ذلك الريش الأخضر البراق وأنا أملك

(١) ذكريات باريس : ٢٨ يوليو سنة ١٩٢٣ .

ذلك القلم الأسود المقصوف .. فيا بعد بيني وبينك حين تقوم النفائس
والأعلاق (١) ..

...

تزوج زكى مبارك مبكرا ، وكان لذلك أثره في اتجاهاته الأدبية والعاطفية
جميعا . وأن عد من أجراً المتزوجين إذ لم تحمل هذه القيود بينه وبين المجد ،
فهام على وجهه وجاهد ، حتى وصل ..
وهو يصف زوجته « بالريفية الفلاحة » .. التى عصمت قلبه من الصراع
الذى يقع فيه الناس (٢) ، ولكن الصراع النفسى بين حياته الخاصة ، ومثله
العليا كان قد أنشأ له « عاصفة » أخرى لعلها هى التى حطمت حياته فى
النهاية .

يقول « زكى مبارك » أنه صير الكتابة عن الحب فنا من فنون الأدب
وقد سبقه « الرافعى » إلى إنشاء هذا اللون وهما مختلفان فى أساليبهما
وأهدافهما وفى الطريقة التى يعالجان بها هذا الفن . أما « الرافعى » فىرى الحب
فنا روحيا خالصا ، لا اثم فيه ولا فاحشة وإنما يراه زاداً وجدانيا يمد
النفس الإنسانية بالقوة والحيوية .
أما « زكى مبارك » فىرى الحب على الصورة الطبيعية التى يلتقى عليها الرجل
والمرأة ، بما فيه من صراع ومادية ..

وإذا كان الرافعى ومبارك يختلفان فى الأسلوب والهدف ، فانهما يصدران
عن طبيعة واحدة ، تكاد تشابه حظوظهما فى الفراغ النفسى والعاطفة
العاصفة والحياة الاجتماعية التى قصرت عن أن تعطى النفس العبرة كل

(١) البلاغ : ١٩٣١

(٢) « ويسرنى أن أسجل عترافى بالجميل لزوجتى الفلاحة التى سارت سيرة أمها وأختها .
لحفظت قلبى سليما من الهدوم التى تزلزل عزائم الرجال » .

حاجتها فظلاً ظامئين إلى الحب والجمال .

« حديثي^(١) عن الحب صار مذهبا أدبيا أشرح به مايتعرض له الناس في ميادين النوازع والأهواء ، وأنا أريد أن أخلق جوا من البشاشة أدفع بها ظلمات الزمان .

الحب لا يغزو إلا قلوب الأصحاء . وهو يساور قلوب الجنود في أوقات الحرب ..

أن التوتر الذي يصطنعه بعض الناس ، قضى على عصرنا بالحرمان من البشاشة والأريحية وقطع مايدننا وبين ماضينا المجيد يوم كان لنا شعراء لا يهتمون بغير أوطار القلوب^(٢) » .

.. ويصور زكي مبارك فتاة ، لاشك كانت بعيدة الأثر في مشاعره وحياته في باريس .. « وقفنا ننظر إلى فتاة تطرق الحديد . وهي أرق من الزهر وأكثر أشراقاً من الصباح .

.. أتكون هذه الفئانة شبيهة بكرائم الأنهار يشرب منها البهائم والدواب ... أتكون هذه العيون السواحر من نصيب من يساعده القدر المجنون فيملاً جيبه بالدراهم ولو كان من الأغنياء .

لك يارب حكمة في أذلال هذه الروائع الفنية التي زينت بها الوجود ... « وهو يصور أزمته النفسية في خطاب أرسله إلى « محمد السباعي »

وهو في باريس ...

« بقي يا صديق أن أعترف لك في صراحة وإخلاص ، اني أصبحت أحقد أشد الحق على كائنين من كائنات الحياة ، وهما الأدب والمرأة .. أحقد على الأدب لأنه لا يستقيم له حال إلا إذا حمل صاحبه على المخاطرة في

(١) زكي مبارك : ١٩ فبراير ١٩٤٠ الرسالة .

(٢) كتاب « ليلي المريضة بالعراق » هو عماد المذهب الادبي في الحب لزكي مبارك .

ظلماء الوجود ، ولن تجد في العالم كله أدبيا ذا مكانة الاولة في ميادين الحياة
ثارات وحزازات لن تموت . والقراء الذين يحيا على حسابهم الأدب وأهله
لا يؤمنون بوجود الأديب إلا إذا رأوا أحشائه تحترق بين السطور .
وأحقد على المرأة لأنها لئيمة ، وأى لؤم أشنع من أن تراها تلتبس أسباب
الفنة لتريك أنها تستطيع دائما أن تجد إنسانا سواك .

أضف إلى هذا ، ياسيد سباعي ، أن هنا إنسانة في الحى اللاتيني لا الحى
الحسيني — إنسانة من بنات حواء . حواء المذكورة في التوراه والقرآن .
حواء التى نقلت أبانا آدم إلى صفوف المناكيد . . .

وتصور السيدة جميلة العلايلي مأساة الدكتور زكى مبارك على هذه الصورة
« عرفت أن الرجل إنسان وشاعر . وقد كافح وناضل وتعلم حتى بلغ
أرقى الشهادات . فكان من المفروض أن يصل إلى مركز يعادل إن لم يفضل
مراكز أقرانه وزملائه . ولكنه ظل حتى وفاته موظفاً في وزارة المعارف .
وقد تزوج في الصغر بامرأة دونه في العلم والتفكير . فلما نضج حسه وعقله
وجد قلبه في حاجة إلى قلب وعقله في حاجة إلى إلهام فأحب . . وكان بينه وبين
من يحب حاجز من الفضيلة لا يمكن اجتيازه .

إذن كان الرجل مظلوماً محروماً . وأى رجل مظلوم محروم ؟
زكى مبارك صاحب القلب الكبير والعقل الناضج النافذ ، والذكاء الحاذق .
فكيف يتأسى وينسى ؟

وكان يحب أن يغالب الظلم بالاحتمال ، والحرمان بالصبر والنسيان . فلم يجد
أمامه غير الشراب ليخرج من دنياه إلى دنيا مظلمة لا تكشف له آفاق العدالة
ومفاتيح الجمال . ويقينا لو نال حقوقه العادلة وارتوى قلبه لظل حافظاً لكيانه
وقواه حتى ساعة الموت . . .

ظل زكي مبارك أكثر من عشرين عاما يكتب بعنوان « الحديث ذو شجون »
وقد تنقل به من البلاغ إلى الرسالة إلى المصري .. ثم عاد به إلى البلاغ مرة أخرى.
وعاش زكي مبارك حياته مقتحما . أحدث ضجة في الأزهر ، وفي الجامعة
وفي باريس وفي بغداد . وظلت آرائه في الغزالي والقرآن ووحدة الوجود
موضع السجال والنقد ..

ولعله كان يستر بهذا الصراع عاطفته المشبوبة ، ويدارى نفسه المحترقة
الملتاعة .. وكتاباه عن باريس وبغداد غاية في الجودة وهو لا يبالى في سبيل
الصراع الأدبي ما يكون من نصيب صداقاته .. ولكنه كان يبدو من وراء
كتاباته نقي الصدر .

يقول زكي عبد القادر : .. ما من أحد من الناس كان يشعر بموجده
نحو الدكتور زكي مبارك حتى هؤلاء الذين هاجمهم . فقد كان رحمه الله طلق
النفس ، رقيق الطبع ، كان فنانا أصيلا ..
.. لقد أحب الحياة بشرها وخيرها فأحسن التعبير عنها . أحبها
أعمق ما يكون الحب ، فكان يرى في بأسائها النعيم . وفي نعيمها طيف من
أطياف الجنة . غناها وشكاها . تألم فيها وتوجع . صبر عليها وصابرها .
ولكنه لم يفضها قط .. ،

وقال « الزيات وهو يصور شمسه وعناده » أنه لو استطاع أن يتملق
الظروف ويصانع السلطان ويحذق شيئا من فن الحياة لاتقى كثيرا مما جرت
عليه بداوة الطبع وجفاوة الصراحة .. ،

وهو لا يعق فطرته ، حين دعى إلى كتابة القصة قال « من رأى أنه لا يجوز
للكتاب أن يعق فطرته فيكتب فيما لا يحسن من الفنون وأنا مفلطور على
النقد الأدبي وقد تفوقت فيه .. »
ومن كلماته الصريحة :

« الاثم الجارح أسلم عاقبه من التقي المصنوع ،

« نكتب التاريخ قبل أن يضيع التاريخ ،

« كتب الله الغربة على أهل الفكر والعقل ولو عاشوا في رحاب

عشيرتهم الأقربين ،

ويدافع عن الاتهام الذى طالما وجه إليه بأنه يدور حول نفسه

فيقول « أن تصوير هموم النفس ، وما يحيط بها من مخاوف وآمال . هو

أدب صحيح جعلته الكتب السماوية من شمائل الأنبياء . فما العيب في أن يكون

الحديث عن نفسى من خصائص أدبى . وهل يمكن أن أتعرف إلى الوجود قبل

أن أتعرف إلى نفسى . وهل كانت روائع الأدب في جميع الأمم

الا أحاديث نفسية . . .

ويبدو زكى مبارك وهو يتناول الشريف الرضى أو عمر بن أبى ربيعة

أو مجنون ليلي كأنما يتناول شخصيته هو . .

وهو بين هذه الصورة من الحب المحروم ، والعاطفة المكتوبة ، والاحساس

بأنه دون ما يستحق من مكان في عالم الأدب والحياة . . يبدو صوفيا زاهدا

وليست هذه الصوفية والزهادة الاغشاء لاشواق عنيقة تطوف بالروح ،

وطموح . وتوقد يتصعد في السماء . .

مأساة زكى مبارك

لماذا تحطمت حياته ؟

« أنى الآن أدفع ثمن العلم الذى حصلته . . لقد استهلكته انشاء اتى الكمية الوزنية للعقل الذى ساعدنى على أن أجعل من نفسى مجموعة دكاترة فى مختلف الفنون . أجل استهلكته دراساتى ومؤلفاتى ، ما كان لدى من ذلك قبل الأوان وأنا الآن برم ضيق الصدر لأنى أريد مواصلة البحث والدرس . ولكنى لا أجد لدى قدرة على ذلك . وماذا يكون الكاتب أو المفكر إذا كف عن الانتاج . هل يكون شيئاً أكثر من ذبالة إنسان وهل أرضى بمثل هذه المكاتة ؟ إذن ليكن لى فى الخمر مخبأ وملاذاً أقضى فيه ما بقى من ثمالة العمر دافعاً ثمن العلم الذى حصلته .

هذا ختام حياته . . هذه الكلمات التى تقال فى ختام المأساة فى مسرحية حياة قبل أن ينزل الستار .

لقد عرفت زكى مبارك فى عنفوان شبابه وأحبته . وكتبت عنه فصولاً وكلفت باده . ثم فجعت عند ما رأيته يتحول . والأزمة النفسية تهد كيانه وتحطم معنوياته .

وعندما وقفت فى تلك الساحة الواسعة انتظر وصول جثمان زكى مبارك لتشيعه . . كان يحول فى نفسى خاطر غريب . . فكنت التفت يميناً وشمالاً . . أبحث ، أبحث عن ماذا ؟

كنت أعتقد أن « انسانه » لا يعرفها أحد ، تقف بعيداً ، فى مكان ما لترى جثمان هذا الرجل الراحل .. وهو يتوارى ..

كنت أعتقد أنها وقفت لتلقى نظرة الوداع على الرجل الذى تحدث عن

الحب ، كأنه كل شيء في حياته ! وظنى أن هذه الالفانة قد أرسلت دموعها .
ثم مضت ، واختفت خلف السحب !

كذلك كنت أتصور زكى مبارك ، انسانا أعطته الحياة كل شيء وحرمة
مع ذلك من أعز شيء .. كان حائرا .. لأن الصورة الروحية التي كانت
في أعماقه لم تتحقق على وجهه أو آخر .

كان زكى مبارك قد تزوج مبكرا .. ولم يدع مقالا .. ولا مناسبة ، دون
أن يتناول المرأة والحب والجمال .. وقصصه ، ولياليه في العراق ، وفي
الزمالك وفي مصر الجديدة وقصائده عن حب ليلة الثلاثاء غيرها .

كل هذه كانت صورا لنفسية قلقه مشوقة ، طامحة إلى الحب بعد أن بلغت
غاية المجد بل أننى أى أن تلك المعارك التي كان يثيرها ويسقى فيها الكتاب
ألوانا من الصاب والعلقم ، انما كانت مرآة من مرأى الحب المفقود .
كان زكى يحس النقص النفسى ، ويحس الفراغ العنيف ، ويخلق كل
هذه الأجواء من حوله ليغطي على المتاعب النفسية والوحشة الروحية
بذلك الضجيج .

كان زكى مبارك يحس بأنه فى حاجة إلى روح .. إلى انسانه ، فى مثل
ثقافته وأهوائه .. وكانت تلك الصور التي يتدعها حين يكتب قصة
من القصص الخيالية ، انما يريد بها أن يرسم تلك الأعاصير التي تدور
فى أعماقه !

فلما طال به الزمن .. ولم يجد الوسيلة إلى الافضاء ، أخذ يغطي على
الضجيج النفسى بالخر .. ثم أسرف فيها أى سرف .. فأثر الخمر الرخيص
وبدت آراؤه بعد ذلك بالنسبة للمرأة غاية فى النعمة والعنف فكتب عبارته
التي أثارت ضجة هائلة حين قال .

« لقد كان أبى يجرب نعله الجديد على رأس كل زوجة من زوجاته »

وهنا ثارت حوله عاصفة عنيفة اثارها الشبان والفتيات .
ونظر إليه الناس في سخرية وابتذال .. وقالوا ما هذا الذى يجىء فى
الزمن الذى تقف المرأة فيه كالالة المطواع فيقول فيها مثل هذا القول .
من هذه النقطة انحدر زكى مبارك وتردى .
ولكن زكى مبارك إلى ذلك كان معافى النفس ، كريم السجايا ، لا يذدر
ولا يخون ولا يخفى مشاعره ولا يراوغ فيها .

مصطفى عبد الرازق



هل نستطيع أن نضع مصطفى عبد الرازق بين الكتاب والأدباء .. رغم
قلة الآثار التي أنتجها .. حقاً ، لقد عني بدراسة حياة محمد عبده وجلاها وكان
مرجعاً هاماً في هذه الحياة .. وكتب إلى جوار ذلك أبحاثاً في الدين وبعض
رجال الفقه ، ولكن ما علاقة ذلك بموضوع البحث الذي نحن بصدده .

إننا ندرس هذه الطائفة من الأدباء التي كانت الطليعة في الأدب العربي
الحديث . وهل يكفي كتابه عن الشاعر المصري الرقيق البهاء زهير ، ليجعله
من هذه الصفوة .

ولكن مهلاً فقد كتب مصطفى عبد الرازق مذكرات وقصصاً وفصولاً
منشورة في الكتب والمجلات والصحف لاشك أنها تضعه بين طائفة الأدباء
المقلين الذين لم يتفرغوا للادب كفن وحرصوا على أن يكونوا في صفوف
العلماء الذين عملوا في محيط الجامعة . وكان لهم لفيف من الطلاب والمريدين
الذين بهرهم حسن الخلق وصفاء النفس وسماحة الطبع التي كانت من مميزات
هذا الكاتب الإنسان .

ولكن ما هو السر الذي دفع مصطفى عبد الرازق أن يفرد للبهاء زهير

يبحثا خالصا . اننى أربط بين هذا العمل الأدبي الوحيد وبين حياته الخاصة . فالبهاء شاعر رقيق حى ، هادى النظرات ، متشد ، لا تطوف بحياته زواجع ولا عواصف ، ولا هو من أولئك المندفعين الذين يفترعون المغامرات أو يدخلون حلبة الصراع . . وهذا الطابع هو صورة من حياة مصطفى عبد الرازق الذى عاش حياته هادئا متشدا . لا يصول ولا يجول ، على عكس طه حسين وزكى مبارك وهم من ذوى العجائم ومن الأزهرين .

وكان لمصطفى عبد الرازق طابعه الحي المتوارى . وكان مثلا الأناقة والرقه والهدوء . كأنما الحياة عنده أغنية جميلة أو موسيقى هادئة . ولقد عرف عن مصطفى عبد الرازق حب الجزالة والاعادة والمراجعة والتغيير والتبديل فى الأثر الفنى الذى يكتبه قبل أن يظهر عليه الناس . وهو فى هذا يقول وكأنما يصف نفسه « أن الجزاله هى التطبع فى شعر البهاء ، وأن الرقة هى الطبع »

ومصطفى عبد الرازق بعد ذلك موضع إعجاب كل من عرفه أو لقيه أو تلمذ عليه . . وما رأيت إنسانا التقى به أو عرفه إلا وهو محب له ، كلف بهذا الحب ، ولكن ماذا تعطى هذه الكتابات الهادئة الأنيقة التى نقرأها لمصطفى عبد الرازق . هل يمكن القول بأن وراء شخصيته إنسانا آخر . . قد كان وحيه وإلهامه مصدرا لهذا الطابع المصقول ..

لقد بدا هذا الكاتب حياته فى الأزهر ، هناك بين الكتب الصفراء التى تؤذى النفس وتذهب الصبر ، وتمنح كل شىء الا هذه الرقة وهذا السمى الهادى . الإنيق المشرق الذى يخيل إلينا أنه لا يعرف الحزن ولا الألم . .. ونشأ مصطفى عبد الرازق فى الريف من الصعيد حيث الحياة لا تمنح هذا اللون من الأناقة البالغة . وكل هذا من شأنه أن يصيب الأسلوب بالبلاغة ويصيب الشخصية بالجفاف . .

ولعل مصطفى عبد الرازق يصور هذا المعنى حين يقول فى مذكراته عن

حياة الأزهر (١) « أصبحت لا أجد لما أحصره من دروس الأزهر طعما ولا أشعر بفائدة في تكوين ملكه أو تهذيب ذوق لهذه الابحاث المجدة التي أفنى فيها حياتي جاهدا .. ثم أن في أعماق نفسي قلقا ينزعني إلى أماني لا موضع لتحقيقها في هذا الوسط . . . ويا رحمتاه للجائرين لا يفتأون يقبلون تلك الأيدي التي لا هي أيدي النساء الناعمة فتجئ فيها نعمة الله على الناس بالجمال والحب . ولا هي مرتجاة لجير فتكرم خيرها ومعروفها . . (٢) »

ولكن مصطفى عبد الرازق ، كان نسيجا وحده ، شخصيته صيغت وفق هذا الطابع من الرفق والهدوء والأناقة .

والأفهل قرأت مثل هذا لأديب نشأ في الريف وتعلم في الأزهر . المرأة هي المنبع الفياض لما في الحياة الانسانية من حب هو أساس النظام والعدل والرحمة والسعادة ، على أن في فطرة المرأة نوعا من السحر والخلافة والجمال هو الذي يسمو بخيال أهل الفن إلى ما يبدعونه في آثارهم الفنية ويلهم الشعراء روائع الشعر ويذكى في قلوب المستثيرين نار العشق العظيم وإذا كان جمال الحياة فنا وشعرا وحبافان المرأة هي التي تبني كل ما في الحياة من معاني الجمال ،

فهذه الطبيعة الانسانية المشرقة ، هي طبيعة الأديب الذي يأخذ من كل شيء ولا يظغى عليه شيء من مذاهب القول أو الفكر . هذا الأسلوب الرشيق الذي يكتبه مصطفى عبد الرازق هو صورته نفسه المشرقة . هذه النفس التي ظل صاحبها بعد أن عاد من باريس يلبس العمامة ويحتفظ بها

(١) مذكرات مصطفى عبد الرازق آية من الايات ولطالما طالب أصدقاء الكاتب نبشها وحدثنني الاستاذ عبدالكريم الخطيب وهو من أهل العلم والفضل أنه راجع هذه المذكرات فعلا وأعدّها للنشر ولا يؤخرها عن الظهور الامقدمة يكتبها السيد علي عبد الرازق شقيق الكاتب . وأنا لنسب به أن يفعل ويسرع . . .

(٢) مذكرات مصطفى عبدالرازق — ٣ مايو ١٩٠٥ .

إلى آخر العمر . ولا يمنعه ذلك من أن يرسم لبركة لكسمبورج هذه اللوحة الرائعة . . .

« . . ثم يخرج إلى ساحة تبسم الانوار فيها والزهر . وتنحدر على درج إلى البركة ذات النافورة . مرتع الأطفال اللاعبين بمراكبهم الصغيرة في أمواها . ومن حولها ذلك متفرقة لمن ايسوا أطفالا . . ولحت في بعض النواحي سيدة يدها خطاب تقرأه فيشرق وجهها بالسرور ويتبسم . وتلقاها فتاة تكتب في صحيفة وتلو ما تكتبه فتعبر عنها . وكل يأوى إلى هذه البركة من باك ومبتسم . ليس ماء ذلك الذي يجري في بركة لكسمبورج ولكن ذوب ابتسامات ودموع . رديكم أيها الأطفال العابثون بالماء ،

لقد دخل الشيخ مصطفى عبد الرازق باريس بين صديقين كريمين « وكان أحدهما يلبس قبعة والثاني يلبس طربوشا وكان الثالث شيخا معما ، وعاد من فرنسا عام ١٩١٤ .

وكان قد التقى بغير حياته بالشيخ محمد عبده الذي كان بعيد الأثر في تحويل مجرى هذه الحياة . لقد كان ضيق النفس بالأزهر فلما كتب إلى الشيخ زاره في دارهم ونصح له بأن يستمر على أن يتولى هدايته إلى مطالعات في غير أوقات الدراسة يقول .

اتصلت بالشيخ محمد عبده فتأثرت بدروسه وآرائه واضطربت في نفسي تلك اليقظة الفكرية التي بثها الشيخ محمد عبده في عقول تلاميذه بما كنا نتلقى عن شيوخ لم ترضينا معارفهم ولا مذاهبهم .

والحق أن مصطفى عبد الرازق . أخذ من الريف ذلك الوفاء النبيل وتلك الطبيعة الثابتة التي لا يتحول منها شيء سواء كان صاحبها في القاهرة أو في باريس ، في الوزارة أو في الأزهر أو في الجامعة .

وأخذ من الأزهر اللغة والبيان والرصانة وأخذ من السربون التحقيق

العلمي ومزج الشرق بالغرب وظل مع ذلك محتفظاً بطابعه . وفي يوميات
ابراهيم الفزارى التى كان يكتبها عن نفسه وتخفى وراءها قوله « فى الجريدة »
. . . إن حياتى ليست منطقية . إن الحياة المنطقية هى مطابقة الحياة
للزاج والسير فى الشئون الخارجية على وفق طبيعة النفس الداخلية . أما
جو قلق لنفس هادئة . ومعصية حرون لطبيعة مسالمة . فليس من المنطق
فى قليل ولا كثير . . .

كان منذ شبابه الباكر يتطلع إلى المجد ويرنو إلى آفاق بعيدة . لم تكن
واضحة وضوحاً صريحاً فى نفسه ولكنها كانت تملأ قلبه وعواطفه وتصورها
هذه العبارات التى كتبها فى مذكرات الشيخ الفزارى سنة ١٩٠٥ .
. أنا أمتيقظ من منامى قبل أن تشرق الشمس فما أزال أنتقل من حلقة أستاذ
إلى مشاركة رفيق فى مطالعة إلى انفراد بالدرس حتى آوى إلى مخدعى قبل
نصف الليل فاطر القوة متنبه عصب الدماغ محتاجاً إلى النوم غير واجد إليه
سبيلاً وليس لى من سلوه فى ثنايا هذا العناء المتتابع لامن لذه العمل نفسه
ولامن ثمرته . . ثم ان فى أعماقى قلقاً يزرع بى إلى أمانى لا موضع لتحقيقها
فى هذا الوسط . . .

فى هذا السن كانت تغلب عليه طبيعة الحياء التى تعوقه عن ان يبدئ
مافى نفسه للناس فكان يكتبه فى الورق . يقول
« كنت يومئذ شاباً تتفق عنه غلاثل الطفولة . ولم تكن بنينى قوية . ولا
اعصابى متينة فضعفت من اثر الجهد المضنى فى دراسة غير منظمة وعمرانى
سأم من الدراسة فى الازهر واشتد ذلك السام حتى صار الما ملازماً . وكانت
طبيعة الحياة تعوقنى فى ذلك الوقت عن ان ابث ما بى إلى احد .
ولكن هل اذهبت اوربا والعلم وارتفاع السن هذا الحياء . . كلا فقد
بقى مصطفى عبد الرازق رمزاً لهذا المعانى النبيلة من الخلق . .

يقول الاستاذ محمود الشرفاوى (١) . . أن مصطفى عبد الرزاق عرف برقة
العاطفة والحياء والتواضع وحب الخير والاعتداء بالنفس . . وان هذه
الفضائل كانت سبباً في متاعب عاتية وقع فيها وهو شيخ للأزهر . وتفسيرى
بكلمة متاعب فيه كثير من التساهل . وعند ما يكتب تاريخ هذه الفترة
سيعرف الناس أى ظلم وأى مضر لقيه الشيخ في مشيخة الأزهر لبعد أو
تناقض ما بين طبيعته وبيئته اذ ذاك ،

وفي ميدان السياسة كان لا يعرف النفاق ولا الحيلة . كانت طبيعة العالم
المترفع طابعه هى . . وكان فى نظر تلاميذه أحد الأساتذة القلائل الذين حفظوا
معالم الحق والخير والجمال كحقائق يمكن التماسها فى صورة إنسان .

وكان فى دراساته الفلسفية يحدث طلبته عن هذه المعانى . يقول الدكتور
عثمان أمين ، كثيراً ما كان فى يحدثننا الأستاذ فيقول إن هناك فلسفة جميلة
بزغت منذ فجر الفكر الإنسانى وثبتت على أحداث التاريخ وهى فلسفة كرام
النفوس . أولئك الذين عاشوا للعالم كله لا لأنفسهم . وظلوا على وفاق مع
قانون المجد والسخاء . وكان أول من رسمها أنبياء الشرق ثم أذاع تعاليمها
كبار المفكرين والحكماء من سقراط إلى أفلاطون وارسطو . . والفارابى
وديكارى وغاندى . . جميعهم قد استطاعوا أن يستشفوا جوهر الدين .

هذه الفلسفة تلخص فى حالة نفسية يصح أن يطلق عليها الاسم الجميل
الذى اختاره ديكارت : اسم « الأريحية »
وتلك حال النفوس التى تعطى ولا تأخذ وتسعى إلى اسعاد الغير مهما
كابدت من عناء .

وصدق طه حسين حين قال أن مصطفى عبد الرزاق كان كنزاً من كنوز
مصر ليس إلى استقصائه من سبيل . كان كنزاً فى العلم وكنزاً فى الخلق والسيرة
والقدوة الحسنة لطلابه وأصدقائه والذين عرفوه من قريب أو بعيد .

وبعد فهل يمكن للآثار التي خلفها مصطفى عبد الرزاق أن تعطينا سرائر حياته ومنها هذه المذكرات التي نشرت في الصحف على أنها «مذكرات قديمة» هذه «عذراء الريف» تاريخها ١١ أغسطس ١٩٠٦ نشرت سنة ١٩٣٦.

«خرحت أصيل الأمل إلى الخلوات أطوف في أنحاء المزارع حتى انتهيت إلى فجوة في زراعة قصب تشقها قناة معشبة الجوانب يجري فيها ماء غير آسن . فألقيت عباءتي فوق تلك الحشائش العذبة . واستلقيت إليها . وكان معي الجزء الأول من العقد الفريد لابن عبدبره وبها مشه زهر الآداب للحصري . وجعلت أداول الكتابين في القراءة . وأقيد في أوراق معي ما يسترعي مني عناية خاصة . وبينما أنا مشغول بمحاولة الاجادة في ما أشدو به متأثر النفس بمعاني الأغاني نفسها . إذ أقبل فتيات يردن الماء فوضعن الجرار عن رؤوسهن ثم جلسن إلى جانب يسمعن غنائي . وكنت أراهن وأتكلف الجمل بمكانهن حتى لا ينفرن . ولما رأيت انهن بصوتى غنيت من شعر أبي تمام .

.. ولم يكن يبدو على جاراتي مظهر الفهم ولكني كنت أملك في أسارير صغراهن علامات التأثر كلما جعلت في نغماتي أشبه أنين غرامي والتقت عيني بعينها عند منصرفي ،

وفي اليوم التالي كتب في مذكراته بقية القصة .

«.. رجعت اليوم إلى مكاني بالأمس فعاتت وحدها ، الآنسة الفتية . شابة في السابعة عشرة ذات قامة وافرة من غير أن تكون طوالا . نحيفة من غير أن يذهب النحول بحسن التناسب بين ما يعلو ممتلئا وما يهبط أهيف من جسم كأنما صب في قالب . فاست ترى في خطوطه عوجا . شيقة لطيفة ذات وجه يملك القلب بما فيه من طيبة حسن ممتازة عن كل ما عرفت من أشكال . الجمال النسائي في ثغرها . وعيونها آيات الذكاء الفطري والسذاجة الحلوة والعصبية والإحساس الدقيق ..

دنوب إلى الفتاة يدفعني شعور بأن إلى جانبها حظا من سعادتي ويركبنى
الحياة . ثم حبيبها فردت من غير نفور . قلت : وحيدة أنت اليوم . فأجابت
أنني أحب الوحدة في كثير من الوقت .

قلت ان الميل إلى العزلة نزعه النفوس الحزينة وأنت مخلوق أوجده الله
ليعطى السلوان الأنفس المعذبة . . وليكون في ظلام الحياة نورا . .

قالت : إذ كانت الوحدة أليه الألم النفسى فما بالك تحبها ولأنت منعم .
قلت ان من وراء هذا كله مواضع الألم فى قلب غير جامد . ولبثنا ساعة سكوتا
نتبادل نظرات ناطقة سمعنا ساعتئذ خفيف أوراق القصب تنحسر عن قادم
فانتبهنا من تلك السكره الحلوة لحب نشرب اليوم كأسه الأولى . .

هذا هو مصطفى عبد الرازق فى مذكراته . قلب كبير محب . . هذه العاطفة
الحلوة الصادقة كانت الضياء لحياة الرجل . ومادة لأدبه . كان وهجا النفاذ
الكامن فى أعماق القلب يمنح أسلويه تلك الرقة وبيانه ذلك الجمال . ويعطى
روحه هذه السكينة والطمأنينة . .

السباعي

صورة محمد السباعي في نفسى قريبة الشبه من جانب بالمازنى ومن جانب آخر
بزكى مبارك ..

فيه هذه اللوحة التى حملها التاريخ القريب للأدباء الذين كلفوا
في سبيل الفن وعاشوا في مسغبة وقلة ولم يخلفوا من وراءهم شيئاً .. كان
مدرساً موفور الرزق تتفتح أمامه أبواب المجد في محيط التدريس والعلم ولكنه
آثر الأدب وتجرده . وحرر نفسه من قيود الوظيفة فأجهد ذلك غاية
الإجهاد .. فلم يكن الأدب وحده صالحاً لأن يكون مورداً للأديب ..
ولا يزال .

والأدب الرفيع صناعة شاقة . ومجهود موصول ، من غير جزاء ولا ثمن .
ومتى كان ذلك .. كان في عهد النحت والبناء .. ووضع القواعد وكانت صناعة
الترجمة من الآداب الأوربية عنصر ضخم من عناصر النهضة الأدبية التى طلعت
في أوائل هذا القرن . وكان السباعي دعامة في هذا المحيط . وكان متحرراً
في فن الترجمة من قيود الحرفية .. وكان كلفاً بكتاب واحد .. هو « موباسان »

.. ما فتحت البلاغ الأسبوعي مرة في سنوات ما بعد ١٩٢٦ إلا رأيت آثاره وقصصه المترجمة . ثم عاصرت ذلك السجال الذي وقع بينه وبين زكي مبارك سنة ١٩٣١ ، لقد أحس في آخر أيامه غدر الزمان ووجد ذلك الجهاد الطويل الذي عاش له مضيقاً عند الناس . وكان يتوق في تلك السن إلى أن يحس بكلمة التقدير والإعجاب . يده فراغ . وقلبه مشوق إلى الحسن والعاطفة ولكنه لا يجد إلا ازواراً ... فصرخ صرخته التي أدمت القلوب ..

.. وأصبحت حرفة القلم عندي بعد ما كان لها من سالف الزمن من اللذة والسرور كاسفة حزينة . جافة جذبه . ناضبة مقفرة من الطرب والأنس . بل من العزاء والسلوى . وأصبح القلم في يدي أشد برأساً ومسكنة من المزمار في يد الشحاذ المتسول . ترى نعمة أقرب إلى أنة الشكلي منه إلى رنة المسرور ، تلك هي أزمة السباعي النفسية التي كونت فلسفته في التبرم بالحياة والسخرية منها وقد نصح للشبان أن ينصرفوا عن الأدب . « وإذا أمكن أن يكون هناك دواء يبعث إليهم الأدب وصناعته فليأصلوا عن مكانه ويشتروه بأغلى ثمن » .

وليس شك أن من ينصح بهذا لا بد أن يكون قد ذاق من الأدب الويلات . لقد كان السباعي يعتقد في مبدأ حياته أنه يستطيع الاعتماد على الأدب ولكنه أخفق ، انقطعت للأدب سنين عدة وأمكنني أن أعيش عيشة ليست أسوأ كثيراً من عيشتي الحالية . وكنت أعتقد بادئ الأمر أنه سيجيء يوم أربح فيه من الأدب ما لا يقل عن راتب أ كبير موظف في الحكومة .. ولكن هذا الحلم كان سراباً خادعاً .

واشترك السباعي في تحرير الجريدة ومجلة البيان وجريدة البلاغ . وكانت الترجمة عصب أدبه . ترجم رباعيات الخيام نظماً . وكتاب الأبطال لكارليل والمدينيتين لديكنز والتربية لسبنسر وهو في هذا يتفق مع المازني

ويختلف معه ، فقد أبدع المازني أدباً غير الترجمة . وكان المازني يحب الترجمة الدقيقة ، ولكن السباعي كان يبيح لنفسه الترجمة بالمعنى ويعمد إلى توشية ما يكتبه بمحفوظة من النثر والنظم .

ولقد وصف زكي مبارك أزمة السباعي فقال : كان السباعي من أهل التضحية في سبيل الأدب . ضحى بمستقبله وطمأنينته في بلد لا ضمان فيه لحمة الأقلام . لقد ابتدأ عمله بالتدريس . ثم رأى مهنته لا تصلح لغير المترجمين المتوقرين الذين يرون الدنيا بعيون النائمين . فأثر حياة الكتابة على حياة التدريس . ولكن في أي عهد كانت هذه المخاطرة . كانت في عهد مظلم يحيا فيه الصحفيون والمؤلفون والمترجمون تحت رحمة العوام وحلفائهم من أشباه الخواص .

فاذا ذكرتكم أيها الناس أن السباعي قضى أكثر من عشرين عاما وهو موضوع الجذ والكفاح في إمداد الصحف بأروع آيات الترجمة والإنشاء فاذكروا بجانب ذلك أنه كان يحيا حياة العامل المسخر أو الأجير المغبون .

لقد كان السباعي من أهل المرح والطيش لا يرى العيش إلا في منازلة الصهباء ومغازلة الظباء . فكان بذلك أعرف الأدباء بنعماء الحياة ولكنه في أخريات أيامه استسلم إلى الحزن والابتئاس واطمأن إلى جذلة حلم يذهب ودينا تزول (١) . . .

وقد أضافه زكي مبارك إلى كتاب مصر في ١٩١٠ وهم محمد المويلحي وعبد العزيز جاويز وعلي يوسف ومصطفى المنفلوطي ووصفه بالبصر باللغة العربية وبالذكاء الحاد .

ويعد السباعي من أوائل من ترجوا من الأدب الروسي وحمل لواء الترجمة في هذا العصر الذي كان الأدب العربي يتثاقب ليخرج من قوقعة

(١) البلاغ في ٢٥ سبتمبر ١٩٣١ .

الجمود والتقليد ، وكان في أشد الحاجة إلى أولئك الرواد الذين ينقلون روائع
الأدب الأوربي والآثار والأفكار الغربية ويدين لهذه الطائفة بالفضل شباب
الطليعة الذين جاءوا على أثرهم .

* * *

وبعد فليس في حياة « السباعي » ، ذلك الصراع أو تلك الأحداث الضخمة
الفاصلة التي نعرفها في حياة بعض كتابنا ومفكرينا . وهي تتسم بذلك الطابع
المتنهد الهادي ، وتتلخص في أنه قد انفصل في شبابه عن حياة التدريس واختار
الصحافة والأدب . ورأى أنه بذلك قد حقق أملاً كبيراً . ولكنه ندم فيما بعد
على هذه الخطوة الجريئة وظل نادماً عليها طوال حياته فان الأدب لم يعوضه
ما فقدته ولم يحقق له ما كان يحلم به . .

وفيما عدا ذلك حياة « السباعي » هادئة ليس فيها صراع ولا أحداث
ولامفاجئات . لم يكن من الذين يفترعون المساجلات في الأدب ولا المغامرات
في حياته . وإنما كان يكتبني بهذا اللون الذي عرف به : الترجمة ونقل الآثار
الأوربية إلى اللغة العربية .

زیدان



ظاهرتان في حياة جرجي زيدان توحى بالعظمة وتلفت النظر إلى هذه الشخصية الضخمة التي تركت آثاراً قوية متعددة في الاجتماع والأخلاق والأدب والحكمة والسياسة والتاريخ : انه هاجر في مطلع شبابه إلى مصر والهجرة تعطى معنى القوة والثقة بالنفس والرغبة في العلا والهروب من الواقع المر إلى الآفاق الواسعة . والثانية أنه ثقف نفسه بنفسه ، وعكف على الدراسات المتعددة حتى كسب قدراً من العلم أهله ليكون قائداً من قادة الفكر في مطلع القرن العشرين .

تعطينا هاتان الظاهرتان صورة الطموح والتطلع إلى المجد في نفس الشاب الذي عاش يكتب للناس ويدرس أسرار الوجود والأزلية . هذا البحث الذي شغل أوقات فراغه والذي قرأ له عشرات من المؤلفات وكان يقول : لقد اكتفينا في هذه الحياة بفخرنا وقصورنا عن ادراك أسرار الكون فلتعجل بنا الحياة الأخرى لعلنا ندرك من تلك الأسرار ما يشق الغليل ،

ولم يقف أمر طموح جرجي زيدان عند هذا الحد بل أولع بالأسفار ، فقد ذهب إلى السودان وسافر إلى الاستانة وأوروبا وفلسطين ولاشك أن

رحلاته قد أمده بمزيد من الخبرة والتجربة . وتنقل بين دراسة الطب والصيدلة واللغات فدرس العبرية والسريانية والإنجليزية .

ولا شك أن طبيعة جرجي زيدان العلمية ودراساته في مطلع الشباب واتجاهه إلى العلوم والطب واللغات هي التي كونت أسلوبه الكتابي ورسمت أسس كتاباته التاريخية وأسلوبه صورته نفسية ، الأسلوب التلغرافي البسيط الواضح الذي يحرص على المعنى أكثر مما يحرص على اللفظ . فهو لا شك كان منبسط النفس غير معقد الأحاسيس ، وكان ذير حنى بالأناقة والطعام . وأسلوبه الأدبي يعطينا صورة الاعتداد في الطبع . ولكن هذا لا يمنع أنه ذو عزيمة ماضية ، وقلب وثاب . فهو قد هاجر من سوريا عندما ضيق على المفكرين ومنعت الخطابة وحرمت الكتابة ، عندئذ قصد إلى مصر مع من قصدوا إليها ليجدوا فيها مجالا لإعلان آرائهم .

وكانت حياة زيدان رمزاً على الجهاد الصامت والكفاح الدائب في سبيل الفكرة . وابتدأ (١) زيدان يحرر الهلال منذ عشرين سنة ونيف . فكان في أول سنه من سني الهلال يقف إلى مكتبه وقوفاً يحرر فصلاً أدبياً أو اجتماعياً ويرجم رجلاً مشهوراً ويؤلف رواية تاريخية . ثم يراقب الطبع والتصحيح دائباً على العمل نهائراً وليلاً . ثم توفي وكان قبل الوفاة ببعض دقائق واقفاً وقفه لم يقلل ساعات العمل ولم يتضرر أو يتأفف يوماً من كثيره .

وصورة أخرى من طبيعته العلمية الراسخة ، أنه كان يواجه النقد والحمالات بأسلوب الرياضي فلا يضيق بها ويمر بها كريماً وهذه آية الدلالة على هدوء الأعصاب وضبط النفس والإيمان بالهدف .

* * *

ويعد جرجي زيدان من رجال الفكر . وأسلوبه أسلوب العلماء الذين يؤمنون بأن الألفاظ أدوات للعاني . ولعل دراسته للطب في مطلع حياته هي التي

(١) سمي الجريدني .

منحته هذه الطبيعة العلمية . ويقف جرجي زيدان على إحدى القاعدتين اللتين
أشرق عليهما فجر النهضة العسكرية في الشرق قاعدة لطفي السيد الذي رسم
صورة المصريه وفتح باب النقد الأدبي . وقاعدة جرجي زيدان الذي أدخل
إلى الفكر العربي المعاصر الطريقة العمية المدينة بالبحث ووضع الخطوط
الأولى للأبحاث التي جاءت بعده في تاريخ الاسلام والأدب العربي^(١) .

وقد تأثر بطريقته وأسلوبه سلامه موسى وأحمد أمين وعباس العقاد، ومضى
جرجي زيدان يحرق الهلال منذ سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩١٤ أي أنه أمضى
اثنان وعشرين عاما وهو مكب على القلم يكتب ويقرأ ويدرس ويتناول فصول
التاريخ القديم وأحداث الحاضر حتى أتيح له أن يخرج هذا القدر الضخم من
المؤلفات والروايات .

وكان هذا في الحق جهداً غير طبيعي ، لا يمكن أن يصدر عن انسان عادي
بما أدى إلى أن يتحطم الرجل مرة واحدة .

ومهما يكن رأى النقاد في بعض الوقائع التاريخية التي أوردها جرجي
زيدان فانه قدم إلى الناس صوراً للتاريخ الإسلامي في أسلوب قصصي محبب
إلى النفوس قريب إلى المتوسطين الذين لا يستطيعون هضم المجلدات التاريخية
الجافة . . .

ويقول الدكتور طه حسين أن جرجي زيدان هو الذي نقل إلى الأدب
العربي مذهبا من مذاهب الأدب الأوربي هو القصصي التاريخي ،

* * *

وبعد فان الدراسات التي كتبها طه حسين والعقاد وهيكل ووجدي
والجميل ومطران والبشرى والمنفلوطي وجبران على فترات متباعدة أو متقاربة
من ذكره ، تعطينا فكرة واضحة بأن هؤلاء الكتاب جميعا تلبذوا أو اتصلوا

(١) ولا ننسى هنا أثر شبلي شميل وفرح أنطون ويعقوب صروف .

من قريب بآثار هذا الكاتب . فضلا عن أن هذه الآثار كانت موجهة
لغيرهم وأسلوبهم .

وأن منهم من كان يقصد جرجى زيدان ليسأله رأيه في أمر من أمور
الفكر والادب . يقول الاستاذ العقاد « . . ومرة آخر زرته في بيته بين
الفجالة والظاهر . وأنا مشغول بقراءة شوبنهاور لأسأله رأيه في أصح
النظريتين إلى حقائق الحياة : نظرة المتشائمين أو نظرة المتفائلين ،

ويصف طه حسين صاحب الهلال بأنه « من رجال هذا الجيل الساخط
الطامح ، وكان الهلال نتيجة من نتائج سخطه وطموحه . وجرجى زيدان
لم يكن أرسقراطى الادب وإنما كان رجلا يجمع بين نزعتين مختلفتين أشد
الاختلاف ، ولكنهما نافعتان أشد النفع ، أحدهما النزعة العلمية التى تظهر
فيما كتب من التاريخ الادبى والسياسى ومن تاريخ الحضارة . والثانية النزعة
الشعبية التى تظهر فى هذه الكتب التاريخية نفسها وتظهر بنوع خاص فى قصصه
فصوله الثقافية العامة »

ويقول العقاد أن جرجى زيدان من كتاب « ما يسميه هو بالحاسة الاجتماعية
ونسماه نحن بكتاب الاستواء والطبع السليم . . تقرأ جرجى زيدان فى جميع
موضوعاته فإذا مطبوع بطابع السداد والاستقامة والاستواء . هى جدول
ولست بشلال وهى بنت الدوام وليست بنت الفلتات واللبحات ،

وبعد فإن آثار جورجى زيدان تعطينا صورة لرجل مفكر ، فيه نزعة
علمية . ونظرة واحدة إلى إنتاجه تضع بين يدينا جوانبه العقلية جميعها
ولكنها لا تضع أمامنا أى شئ عن عاطفته ..

ولكن عاطفته تبدو قوية حين نتصور هذا الإنتاج الضخم الذى أصدره
فى السنوات القليلة التى عاشها منذ أنشأ الهلال ١٨٨٩ إلى أن توفى ١٩١٤ .

إن هذا الإنتاج يدلنا على أن جورجى زيدان لم تكن له صبوات . ولم

يكن ينفق وقته عبثاً . لقد عاش يقرأ هذه المراجع الضخمة التي استقى منها مصادر كتبه في التاريخ وفصوله عن الإبطال والعطاء . وجعل منها مادة قصصه . لقد عاش يقرأ ويراجع ويستقصي ويكتب ويراجع ويصحح ويقدم آثاره الأدباء في الشرق العربي كله ..

إنك من خلال إنتاجه تراه جاداً متجهماً ليس فيه عاطفة ولا نزوة ولا لمحة من لمحات الأشواق الإنسانية . كأنما وجهه واطفه كلها إلى المطالعات والدراسات . وقد كان جرجي زيدان إلى ذلك سوى الطبع والفطرة فتزوج وأنجب وكان يحمل عاطفة الحب لأولاده ويرسل لهم الخطابات في أثناء سفرهم يوجههم ويدفعهم إلى الحياة الكريمة .

ومن هذه الخطابات تنكشف سرائرهذا الرجل الجاد المسكّن في إصرار عجيب وهو يرى أن الإنسان الممتاز هو الذي يعتاد الشيء سريعاً فإن قوة إرادته تجعله يطبق نفسه على الوسط الذي يوجد فيه . وأن ذلك دليل القوة والحيوية في الإنسان وأشبه شيء بالمرونة في الجملاد .

وليس في حياته حوادث ضخمة سوى هجرته من سوريا إلى مصر ، وكان هدفه استكمال دراسته للطب في مصر بعد أن ضعف أمله في الحصول على أجازته من بيروت . وتظهر عصامية جرجي زيدان حين يقول في مذكراته أنه حين أزمع السفر إلى مصر لم يكن يملك نفقات السفر ولكنه لم يوفق في مصر إلى دخول كلية الطب واتجه إلى الصحافة والأدب .

وتبدو مظاهر العصامية في كل مراحل حياته فهو قد كافح حتى تعلم الإنجليزية وكافح في سبيل دراسة الطب وتعلم اللغات العبرية والسريانية . ولعل طموحه هذا وتطلعه إلى المجد هو الذي حجب عن أدبه مظاهر العاطفة فقد غلبت عليه النزعة العلمية في آثاره وبحوثه . . ولقد ظل جرجي زيدان يكافح ويدرس ويكتب حتى قضى وهو على مكتبه مخلفاً هذا الإنتاج الضخم .

يقول خليل مطران أنه ما عرف رجلاً أجمع للنقيضين : الك والتواضع منه ، لم أشهد ولم أسمع عنه أنه شكاً ديناه بمحضر من أحد . ولا أنه تمنى على أحد شيئاً بأشارة أو مضارحة كما أننى لم أجده مرة مستفزاً للاخذ بشأره من متهم عايشه فى الصناعة التى هى مدار رزقه ومحور شهرته لاعتقاده شرف غايته ، ويقول فى خطاب لابنه ، فى سنك كنت جباناً ولكنى لم أكن أجد من يشجعنى ولا من يشير على أو ينهى إلى تقص فى ولو وجد من ينهى إلى نقائصى لوفرت على نفسى تعب سنين وتعجلت النجاح أعواماً ، فاستفدت أنت من هذه الفرصة . إن العمل فى الدنيا يحتاج إلى جرأة وإقدام كما يحتاج إلى الشبات والصبر .

ولكن إذا نحن أردنا أن نحدد مكان جورجى زيدان فأين نضعه بين الكتاب والمؤرخين والصحفيين ؟

لقد كتب بضعة وعشرين رواية قصصية جعل مادتها التاريخية من تاريخ الإسلام ، وألف عدة كتب عن التمدن الإسلامى وتاريخ مصر وتاريخ مشاهير الشرق . ولقد تناول النقاد هذه المؤلفات بالدرس . وهو جم جورجى زيدان وقال البعض أنه اعتمد على بعض الروايات الضعيفة أو المؤرخين الإسرائيليين أو رضى بعض المصادر ذات الهوى .

ونرى النقاد أن جورجى زيدان كان يقتحم ميداناً جديداً وأن أدواته بالطبع كانت أقل من أدواتنا الآن . وأنه فى حدود المراجع التى وجدها بين يديه استطاع أن يدرس تاريخ العرب والشرق باعتباره تاريخ الإسلام .

وليس من شك أن جورجى زيدان كان يتناول ذلك بحسن نية على أساس أنه كاتب عربى يكتب للعرب ، فلا عليه إن اعتمد على رواية دون رواية . ولا شك أنه فيما تناول من حياة المعاصرين كان دقيقاً ، لأن أدوات التاريخ كانت تعيش بين يديه . وهو لاشك أول من ابتدع من التاريخ الإسلامى

صورة قصصية لطيفة محببة إلى النفوس كانت سبيلا إلى عقلية للعامّة لتقبل
حقائق التاريخ الجافة .

ولقد كانت آراء جورجى زيدان وأفكاره ومذاهبه غاية في الاعتدال .
ولا عليه إن لم تكن معالم أسلوبه واضحة وضوح أسلوب الأدباء فهو عالم
وباحث ومفكر . وقد عاش قبل نهضة الأسلوب البياني وآمن بالأسلوب
التلغرافي القصير الواضح الذى يصل إلى ما يريد أن يقول دون لف
أو دوران .

وغاية القول أن جورجى زيدان قد أنشأ مدرسة واضحة الأثر في الادب
العربي الحديث هي مدرسة الهلال التي أبرزت بصورة واضحة فيما بعد في أحمد
أمين وسلامه موسى والعقاد ، ولا شك في أن حديث الأربعماء وفجر الإسلام
وضحاها فيهما ذلك الامتداد الواضح في اتجاه جورجى زيدان .

البشرى



ما ذكر اسم «عبد العزيز البشرى» إلا أحس الذين سمعوا عنه أو عاصروه أنه لم يكن كاتباً بقدر ما كان من ذلك الجيل الذى عرف بالحديث المصقول والفكاهة وخفة الظل والمرح والنكتة.. وقد رويت عنه الفكاهات أكثر مما رويت عنه أمثال الأدب.. ولم يخلف هو فى الأدب إلا تلك الفصول التى جمعت فى كتبه «المختار وفى المرأة وقطوف» إذ كان يكتب الأدب على أنه لون من المتاع غير متقيد فيه بوقت أو صحيفة.

ولقد كان عبد العزيز البشرى صديقاً لحافظ إبراهيم لا يفارقه.. وكان من زملاء طه فى طلب العلم فى الأزهر ومن رواد صالون آل عبد الرازق.. وهو فى خلال ليله ونهاره صورة من الابتسام والسخرية والفكاهة كأنما لا يشغله شيء.. ولا يقلقه أمر.. وكأنما هذه الدنيا التى يعيشها رخاء لا أعاصير فيها ولا أكدار.. ولطالما عرف عن هؤلاء الذين يستقبلون الحياة بالابتسام والسخرية أن يكونوا فى أعماق نفوسهم وحياتهم من الضجرين الذين تكثر آلامهم ومتاعبهم..

إن الدكتور طه حسين يراه خير من يصور البيئة القاهرية الخالصة فقد

عاش في أعماقها وخالط رجالها ونسائها .

ولكننا لا نستطيع أن نأخذ هذا القول كما هو . فإن أسلوب عبد العزيز البشرى وحين يضع قلبه على الورق ليكتب لم يكن كطبيعته ، وإنما يبدو في صورة التكلف والحرص على الألفاظ البليغة ، والمعاني الإنشائية التي لا تخلص من العبارات الضخمة الزنانة . ويقيني أنه لو ترك قلبه على سجيته لجاءت معانيه أشد وضوحاً . ولكنها الطبيعة الأزهرية التي لم يستطع التحرر منها أو التخلص من آثارها .

وبعد فما هو مكان عبد العزيز في الأدب العربي المعاصر :
أنه لم يتهياً لكي يكون كاتباً أدبياً ، ولكنه كصنوه المنفلوطي ، كره الأزهر واتجه إلى الأدب والقراءة والصحف . . . وكتب في المؤيد واللواء والظاهر ، ولكنه أثر الوظيفة فلم يحترف الأدب كصاحبه ، وعرف في المجالس وصالونات الأدب وأندية الفكر ، محدثاً فكهاً لبقاً بارع النكتة ، حلو الحديث . . كما عرف حافظ ، وإن لم يتأق له أن يكون في أسلوبه على هذا القدر من السلاسة والإشراق الذي عرفت في مجالسه كمحدث .

. . . ولعله كان يؤمن فيما يذنه وبين نفسه أنه ليس بكاتب ، وإن كان قد ترك آثاراً ما تزال حية باقية وهو يصف طبيعته هذه « . . إن عادة لزمته من يوم ضبطت القلم ألا أحرص على شيء من آثاره المنشورة في الصحف فإذا وقع لي شيء من ذلك أسرعت إلى إتلافه تمزيقاً أو تحريقاً .

وسبب هذه العادة أنني أول ما عاجلت الكتابة كنت أدرك أنني ناشئ . لا أجيد البيان فإن كانت لي طبيعة فلن يتهياً لي الإجابة إلا بعد شدة . إمعانا ، وطول تمرين ، وظللت على هذا دهرأ ، وأنا في ارتقاب الأحسن مما يثبت الأنظار .

وأضى البشرى ثلاثين عاماً وهو يكتب ، ولكنه كان مقلاً ، متأثقاً ،

لا يوقف نفسه على الكتابة ، وإنما يرسلها إرسالا فتأتى أحيانا على فترات متباعدة أو متقاربة .

وأبرز لون عرف به البشرى فى الأدب المعاصر هو تحليل الشخصيات « فى المرأة » . . وإن كانت الاعتبار السياسية قد حالت بذه وبين توقيعها عند ما كان يوالى نشرها فى السياسة الأسبوعية .

وتعطينا هذه المراتى صوارة واضحة لعبد العزيز البشرى ، صورة الرجل الخبير بالناس ، الذى عاصر هذه البينات وعاش فيها ، وعرف من أمورها الخطير والصغير ، وأحاط بما كان يجرى وراء الستار . .

ترسم لنا هذه اللوحات تلك الخبرة التى استطاع أنه يتميز بها عبد البشرى كما وصفه الدكتور طه حسين . . . كان رحمه الله من أقل الناس حبا للاستقرار وميلا إلى الإمعان فى طريق واحد . ولكنه فطر فى حياته على حب التنقل فكنت تراه مصبحا فى هذا الحى من أحياء القاهرة ملنا بدار الكتب أو قريبا منها فى قهوة من قهوات باب الخلق ، فإذا صليت العصر رأيت فى حى آخر من أحياء القاهرة . فى قهوة من القهوات التى كان الأدباء يختلفون إليها فى حى الأزبكية ، فإذا صليت العشاء الآخرة رأيت فى غير حى من أحياء القاهرة . .

.. وهكذا عاش الشيخ عبد العزيز يؤثر التنقل فى شتى الأوساط والطبقات وقد أكسبه هذا اللون من الحياة خبرة واسعة بالمجتمع المصرى فى كل خصائصه ونقائصه . كما أفاده احاطة شاملة بما يؤثره أبناء كل طبقة من طبقات هذا المجتمع . سواء أكان ذلك فى البيت أو فى المقهى أو فى الشارع . وسواء أكان ذلك مما يجرى فى حياة الناس العامة ، أم فى خلواتهم الخاصة . ومن ثم

كان أروع الكتاب وأبرعهم ، إذا تحدث عن تطورات المجتمع القاهري ، وما طرأ على حياة أبنائه من شتى الطوائف والطبقات ، وما جد في حياة الناس بين الأمس واليوم من تقاليد واصطلاحات ،

تعطيك « مرأى » عبد العزيز البشري هذا الفهم وتملاً نفسك ثقة بخبرته هذه . فهو يتناول فيها شخصيات مصرية ، كانت لامعة اذذاك في محيط السياسة والأدب والفكر ، يتناولها في قوة وفي جرأة وفي سخرية . . إلا حين يتصل الأمر بسعد زعلول .

وقد صور فنه في هذه المرأى في عبارات واضحة . . . والغاية التي تذهب إليها « المرأة » هي تحليل « شخصية » من تجلوه من الناس ، والتسلل إلى مداخل طبيعته ، ومعالجة ماتدسس من خلاله ، لقنص هذا على القارىء في صورة فككه مستملحة .

وبرع البشري في تصوير المجتمع وأحداثه وكل ما يتصل بالناس فيه ، ولقدرته على إيراد النكتة أو تشقيق السخرية مدى بعيد في خلود آثاره تلك ، لولا ذلك التكلف الذي يبدو على أسلوبه بين حين إلى حين ، . . عندما يريد أن يحى لفظاً ميتاً ، وهو في هذا الجانب قريب إلى الرافعى . . كما يبدو قريباً إلى المازنى في تناوله لحديث المجتمع ، مع قاهرية أصيلة واضحة المعالم حفظها له أنه . . ابن مصر . . اذ لم يخلط فنه بالآداب الأوربية . . وموضوعه عن « الشحاذون » والباعة المتجولون مثل لما نقول وهو عصرى الرأى ، بالرغم من ثقافته العربية الخالصة ، وحديثه عن أهل الفن والموسيقى والغناء والتمثيل ، يدل على صلة دائمة متجددة قائمة منذ عهد بعيد .

وكان في مطلع شبابه صديقاً لطله حسين ، ثم صاحب حافظ ابراهيم حتى لم يكن يرى أحدهما في مكان ما ، دون أن يكون معه صاحبه وقد ظل طه

يجب عبد العزيز ويضمّر له الود ، ويذكره راضيا عنه حتى إذا ما قضى أكرمه
حين أصدر له مجموعة « قطوف » ،

« . . . وأنى لأراني مع عبد العزيز في تلك الغرفة التي كان صديقنا على
عبد الرازق قد استأجرها في ربيع من ربوع خان الحليلي . وكنا نلتقي فيها
حين نتفرق عن دروس الفقه . وحين يرتفع الضحى انقرأ بعض كتب الأصول
أو بعض كتب البلاغة . وكان عبد العزيز يلهينا بدعائه وفكاهاته عن جد
البلاغة و الأصول ثم لم يلبث أن ضاق بهذا الجد فأنسل منه . وأقمنا نحن
على هذا الجد تنفق فيه حياتنا ونزعم لانفسنا أننا نغذى به العقول والقلوب
وانى لأراني مع عبد العزيز وعلى عبد الرازق في هذه الغرفة نفسها بعد أن
نصلي العصر ، نقرأ معاً كتاب الكامل للبرد وكان مزاج عبد العزيز وتندره
يصرفاننا عن هذا التحصيل كما يصرفنا عن ذاك » ،

« . . . ولعل هذه الصورة تعطينا تأكيداً بأن « عبد العزيز البشري » كان
في آخر مراحل حياته شبيهاً به في أول مراحلها . . هذه النفس العذبة الصافية
المحبة للفكاهة والطرافة والحياة .. المقبلة على جمال الحديث وتشقيفه ،
المفرقة أحياناً في السخرية . . الراغبة إلى الأدب تكتبه بين - ين - وحين
وتتناوله على هذه الصورة من التكلف الواضح ، والمعاناه الطويلة ، ثم عثيان
هذه الجماس التي يضطرب فيها الادباء والساسة .. وقد فرض عبد العزيز
البشري نفسه على الادب ، كانباء من البلغاء ، ذى الديباجة الرصينة والاسلوب
البياني ، إلى صف الراقعي والزيات والمازني .

ولو قد أتيج لعبد العزيز أن يوغل في الصحافة كما حدث للمازني أو المنفلوطي
اذن لتحول أسلوبه إلى شيء من اليسر والتبسط .

واستأوفى الدكتور زكي مبارك رأيه في أسلوب عبد العزيز البشري
« . . . البشري كاتب « على الطريقة البشرية » كاتب يذكر كل سطر بانه

أديب يتصيد الأوابد من مجاهيل القاموس واللسان والأساس . والكاتب الحق هو الذى يشغلك بنفسك ، ويوجهك إلى مصيرك المنشود ، ويفرض عليك درس غرائذك وأهوائك دون أن يفكر فى حملك على الإعجاب بخصائصه الإنشائية . ولو شئت لقلت أن الكاتب الحق لا يخطر فى باله حين يكتب أنه من أعجاب الأساليب لأن الكاتب العظيم تصبح الكتابة عنده من وحي الفطرة والطبع نأين البشرى كاتباً من هذه المعانى ؟

هو رجل صخاب ضجاج يدق الأجراس الضخام حين يدخل الغابة للصيد . هل سمعتم بالرحا التى تطحن القرون ؟ هى البشرى ، فى بعض نثره القعقاع (١) . . .

ولست أوافق مبارك وإنما أرى أن البشرى يحرص على أن تكون إثارة غاية فى القوة والإجادة ، وهو كلف بالجاحظ محب له إلى أبعد الحدود ، ولذلك تردد كثيراً فى أن يواجه الجماهير بكتاب مطبوع . حتى أنه يقول فى مقدمة كتابه فى المرأة وجمعت أعود على تلك المرايا بألوان التهذيب فارم مارث بالطبع ، واستدرك ما عسى أن تكون قد فوتت العجلة من فنون المعانى . وأعالج ما أضعفت السرعة من القول وأوهت من نسج الكلام . . .

وإذا نحن قرأنا فصلا من فصول عبد العزيز البشرى : وليكن « فى الطائفة » مثلاً لوجدناه غاية فى الرشاقة والجمال والإبداع .

ويصدق عليه هنا وصف الدكتور طه حسين بأنه « كان من القلة القليلة النادرة التى امتازت بخفة الروح وعذوبة النفس ورقة الشائل والتى ظفرت من هذه الخصال بخط غريب فى طبعه وفى جوهره وفى مادته . . . »

ومن هذا الفصل العذب الخلو . . . ننقل هذه العبارات .

« . . . ونسيت أن أقول لك أني حينما دعيت إلى ظهور الطائرة تفقدت شيئاً مهماً جداً ، وخاصة في هذه الرحلة فلم أجده وكيف لي بأصابة ما لم يكن . ووجدان ما لم يخرج بعد إلى الوجود . ذلك إنما تعودت إذا ركبت القطار أو السيارة أن أقرأ حزب البر ، فإذا علوت السفينة قرأت حزب البحر ، فمن لي بحزب الهواء . . »

« وأطلق السائق التيار . فدار المحرك برهة تزيد على الدقيقة والطيارة ثابتة في موضعها . ثم بعثها فزحفت على الأرض زحفاً رقيقاً ثم استحالت جرياً وظلت تدور على اليبس ، ولما طال ذلك قلت لصاحبي لعلنا نبلغ الإسكندرية على هذه الحال برأ . أفترأها إذن سيارة أفرغوا عليها هيكل طيارة ، فضحك صاحبي وقال : أي أرض ، لآنت والله على جناح الريح ، فالتفت وحققته النظر فإذا أنا حقاً قد جرت بين الأرض والسماء من حيث لا أشعر^(١) . . »

هذه لمحات من آثاره الأدبية غايه في صفاء النفس وحلاوة العبارة ، وهي بعيدة كل البعد عن « طحن القرون » .

والواقع أن أسلوب البشري فيه رصانة وبساطة ، وكتاباته مزيج من الجلد والفسكاكه . وهي صورة من طبيعته الإنسانية فقد بدأ حياته في الأزهر يدرس علومه ويقرأ أدب القدماء ، ثم أتيح له بعد أن يقرأ الأدب الحديث ويتصل بالأدب الأجنبي فيما ترجم منه .

وقرأ « الأغاني » وأولع بها حتى أدمن قراءتها كما يقول الدكتور طه حسين « ففصح لسانه إلى أبعد غاية من غايات الفصاحة » .

(١) جريدة الأهرام - ١٩٣٣ (المختار) .

وانصل عبد العزيز البشرى بالحياة المصرية اتصالاً وثيقاً ، وعرف دقائقها في افراحها وأحزانها ، وكان أكثر اتصالاً بالناس في مقاهيهم ، أكثر مما كان عاكفاً على القراءة والبحث . وكان يتصل بالزعماء والأوساط والأدباء ، ويتصل بالصحف كما يتصل بالأحزاب ، كما يتصل بالهيئات الاجتماعية ، وقد أمدّه هذا كله برصيد ضخم من الخبرة والفهم . كان له أثره في غزارة مادة أدبه .

واسكن أين المرأة والحب في أدب البشرى ؟ إننا لا نجد لها واضحة صريحة واسكننا نحسها وراء هذه اللمحات البارقة حين يتحدث عن الفن ، ونعتقد أنه عرف الكثيرات في محيط المسارح والملاهي وكانت له صبوات ، كان يصده عن تسجيلها أنه ابن شيخ الأزهر ، ويرده عن الإيغال فيها لإحساسه بأنه لا يليق ما يلاقه أهل الوسامة ، ولعل فكاهته وطرافة حديثه كانت تفتح أمامه الأبواب وتهتك الحجب .

المازنى



فى حياة المازنى ثلاثة أحداث ضخمة . وفاة أمه وحادث ساقه ووفاة
زوجته الأولى . كان يحب أمه فى عنف ، وبصورة لم تعرف إلا هند جبران ..
وكانت تقول لى لقد كنت أنا مستعدة أن أعمل بيدى فى سبيل تربيتك
فكن أنت مستعداً أن تعمل حتى بيدى إذا احتاج الأمر . وكانت قوية
الشكيمة فلا رأى إلا رأيها فى الأسرة كلها وكانت تكتفى بالنظرة الأولى
إذا أمكن أن تستغنى عن الكلمة فكنا نتفاهم بالعيون والذين حولنا غافلون
ولا يفطنون إلى شىء .

ولما حضرتها الوفاة قالت أعطنى ثلاثين قرشاً ولم تكن بها حاجة إلى ذلك
وكننت قد أعددت عدتى لذلك اليوم فأدركت أنها تريد أن تطمئن على أن معى
حايكنى لنفقات المأتم .

كانت حاذقة كيسه فى سلوكها فلا نهر ولا زجر ولا أوامر ثقيلة ولا نواهى
بغضنة ولا شطط أو إسراف .

إن موتها هدنى فقد كانت أما وأبا وأخا وصديقاً .. ،

وعاش المازنى تسع سنوات بعد وفاتها يعيش على ذكرها .
أما ساقه فقد كانت له منها عقدة إلى جوار عقدة من قصر قامته ولقد أصيب
بالعرج بلا موجب ، كانت زوجتى مريضة . فأجريت لها عملية جراحية وفى
صباح اليوم الثانى وقفت إلى سريرها وفى يمنى الدواء بمزوجا بالماء فى كوب
من الزجاج . وحاولت أن أرفعها يسراى وكان السرير عاليا وأنا قصير
القامة فشبت . فسمعت شيئا يطق ، فظننت الكوب قد انكسر ونظرت إليه
فاذا هو سليم ، فحاولت أن أدور على قدمى لأرى ما حدث فاذا بساق اليمنى
تخذلنى ولا تحملنى فسة طلت على الأرض ثم تبينت أن حق الحرقفة هو الذى
انكسر . وعولجت ثلاثة أشهر ولكن العلاج كان فيه بعض الخطأ فانحرفت
عظمة الساق عن استقامتها فقصرت عن أخذها فكان هذا العرج .

كان هذا فى ١٩١٤ فتغيرت الدنيا فى عيني وزاد عمرى عشر سنوات فى
لحظة . وأدركتنى الشيخوخة فى عنفوان شبانى فاحتشمت وصدفت مضطراً
عن مناعم الحياة وملاهى العيش ، وغمرت نفسى مرارة كان يخيل إلى أنى
احسها على لسانى . . .

وكان الحادث الثالث وفاة زوجة فقد كان يحبها حباً عظيماً فلما ماتت
حزن عليها حزناً شديداً . وما أنا الآن ، حي من الأحياء لا يدرى الناس
أنى مت منذ سنين ، وأنى قبر متحرك كشمشون ملتون أو جثة لم تجد من
يدفنها . أو صورة باهته لما كنته فى حياى . . .

ولقد عاش المازنى حياته كلها ولهذه الأحداث أثرها الواضح عنده . . .
كان فى حياته طموحاً إلى الحب والعاطفة بما دفع ، عبد الحميد رضا ، أن يفتعل
له خطابات غرام كان لها أثرها فى حياة المازنى وفى أدبه . فقد أحس أن
هناك فتاة أدبية تحبه وتضمر له غراماً وجوى فبادلها بالعاطفة ولم تكتشف
الامر الا بعد وقت طويل .

ولقد كان المازنى شديد التعلق بالحياة ، وكان فى أيامه الأخيرة يفكر فى الموت تفكيراً متصلاً وقد أحس بالموت قبل وفاته بأسبوعين فكتب وصيته ولكن المازنى بالرغم من هذا الحرمان كان من أنفذ كتابنا فى مسائل المرأة وأمور الحب والعاطفه والزواج . . ذلك هو المعنى الأول الذى يرد إلى ذهنى حين أتناول هذا الكاتب بالدراسة .

لست أدرى ماهو العامل القوى وراء هذه القدرة ، هل هى القراءة أم التجربة أم الاتصال بالحياة الزوجية أكثر من مرة ، ولكنى أحس بأنه ما تناول مرة هذا الموضوع الا وعالجه فى نقاذ ودقة وعمق وفى نفس الوقت فى يسر لا أجده عند كثير من كتابنا المعاصرين .

فالمازنى هو أحد هؤلاء الرواد الذين صنعوا هذا الأدب المعاصر وتركوا فيه آثاراً قوية بعيدة المدى يقدرها كل من يحاول دراسته . وليس كما حاول هو أن يقول حين صور هذا المعنى . . مأمصير^(١) كل هذا الذى سودت به الورق ، وشغلت به المطابع ، وصدعت به القراء ، أنه كله سيفنى ويطوى بلا مرأ . فقد قضى الحظ أو يكون عصرنا عصر تمهيد ، وأن يشتغل أبناءه بقطع هذه الجبال التى تسد الطريق ويتسويه الأرض لمن يأتون بعدهم ومن الذى يذكر العمال الذين سواوا الأرض ومهدوها ورصفوها ، من الذى يعنى بالبحث عن أسماء هؤلاء المجاهيد الذين أدموا أيديهم فى هذه الجلاميد . . وبعد أن تمهد الأرض وينتظم الطريق ، يأتى نفر من بعدنا ويسيرون إلى آخره ، وقيمون على جانبه القصور شاهقة باذخة ، ويذكرون بقصورهم ونفسى نحن الذين أتاحوا لهم أن يرفعوها شاهقة رائعة . . فلندع الخلود إذن ولنسأل : كم شبراً مهدنا من الطريق . . .

بدأ المازنى حياته مدرساً ، ثم آثر الصحافة والأدب ، فانصرف عن

(١) حصاد الهشيم .

التدريس مكرراً ، وظل يتقلب في هذه الدوامة الضخمة ثلاثين عاماً عجافاً ،
لم ينقطع فيها عن الكتابة والإلقاء والترجمة يوماً واحداً فهو يقرأ ويستوعب
ويذهب هنا وهناك يطالع الحياة ثم يعود إلى قلبه وورقه . .

« ما أظن إلا أن الله جلّت قدرته قد خلقني على طراز عربات الرش التي
تتخذها مصلحة التنظيم — خزان ضخيم يمتلئ ليفرع ويفرغ ليمتلئ — أحس
المراغ في رأسي ، وما أكثر ما أحس ذلك فأسرع إلى المكتب التهم ما فيها
وأحشو بها دماغى حتى إذا شعرت الكظّة ، وضابقتي الامتلاء رفعت يدي
عن الوان هذا الغذاء وقت متاقلاً متثائباً ، مشفقاً من التخمّة ، فلا ينبغي
الا أن أفتح الثقب وأسح ! . . . »

وشارك المازني في تحرير عديد من الصحف اليومية والأسبوعية لا
يحصرها الاستقصاء ، وهي صحف متنوعة من الناحية السياسية اتصلت غالباً
بجميع الأحزاب والهيئات وتطور أسلوبه تطوراً كبيراً ، واشترك منذ الشباب
مع العقاد وشكري في الدعوة إلى المذهب الجديد ، الذي كان له صدى
بعيد المدى في تجديد معالم الأدب المعاصر .

وثقف المازني نفسه بالأدب الإنجليزي وأوغل فيه ، وتحول فيه من لون إلى
لون ومن اتجاه إلى اتجاه . وكان لعبد الرحمن شكري الفضل في توجيهه إلى الألوان
الرفيعة فيه .

يصف هذه الفترة من حياته الفكرية . . « كنت في شبابي قليل الثقة
بنفسي بالرغم من غروري ، فكنت أراجع الكتب أكثر مما أراجع عقلي ،
ولا أنظر بعيني ، بل أفكر بعقول غيري ، وأنظر بعيونهم ، ولهذا كانت
شخصيتي مستسرة ، وقلبا تتبدى . وكان الذي يتبدى هو اخلاعى ، أى
ثمرة دراساتي وقرائني . »

ومضى المازنى يشق طريقه الأدبى فى قوة ، فتقلب فى كتابة المقالات والفصول الأدبية والنقدية والتحليلية ، ونظم الشعر ثم انصرف عنه واتهم نفسه بأنه ليس بشاعر . ثم عرف طريقه أخيراً واستقر عليه ، عند ما بدأ يكتب القصة .

وهو يؤمن بأن « لقمة العيش » هى التى ترسم الطريق الذى يختاره الكاتب كما قال لأحد الذين استشاروه . . « ستكتب فى السياسة وفى أسعار القطن والبورصة ، بل وفى هبوط أسعار الخيش وارتفاع أسعار الصفيح ، إذا أرادت لك لقمة الخبز أن تكتب فى ذلك » .

وكان يؤمن بأن الكاتب لا يستطيع أن يجيد فى أكثر من لون : فلا يكون زجالاً وقصصياً وشاعراً فى وقت واحد .. وقال لمحدثه « .. لو أن أم كلثوم رقصت إلى جانب غنائها لما أصبحت أم كلثوم ، فلا تحاول أن ترقص وتغنى ، وإلا بعزت عن الرقص والغناء . ارقص أو غن ، وستصل حتماً » .

ولقد كان المازنى ينعى على الأدب أنه لا يكفل للمتجرد له حياة أو معاشاً وقال أنه لو فتح دكاناً لبيع الطعمية لكان ذلك أكسب له من إنتاج الأدب ، وكان يستخر من نفسه ومن مؤلفاته التى يبيعها بالآفة لبعض بائعى اللب والتمس غير أن رأيه استقر أخيراً على أن يفتح دكاناً أدبياً يستعوض به عن دكان الطعمية وقد شغل المازنى بالكتابة السياسية ولكن لونه السياسى لم يكن واضحا وإن عرفت كتاباته السياسية بالنقد اللاذع والسخرية العميقة !

والمازنى كاتب فكه ساخر ، ولكنه عميق الغور ، واسع الأفق ، انطبعت فى نفسه صور الحياة المصرية فى مختلف مظاهرها غايه فى القوة والوضوح فما أظن أن كاتباً استطاع تصوير هذا الشعب فى أفراحه وأحزانه وأعياده ومواسمه .. كما فعل المازنى .

ولعل ساقه التى هيضت فى شبابه كانت بعيدة الأثر فى طبيعته وفى كيانه كله ، فهى قد جعلته « فار مكتبه » بكل معنى الكلمة ، إذ أثر القبوع والانزواء

والاعتزال مما أتاح له أن يظفر بقدر ضخم من الثقافة والقراءة والتأمل ... وقد
 آثر في مطلع شبابه أن يسكن في الصحراء بجوار مقابر الإمامين ، وكان هذا
 المعنى في نفسه صورة رائعة « ... ببقى (١) على حدود الأبد لو أنه كان الأبد
 حدود .. إلى يميني الصحراء .. وإلى يساري الصحراء وفي كل ناحية يرتني
 في فجاجها الطرف وفي كل يوم أهبط إلى ساحل الحياة وأترث على حفافها
 برهة ، أشهد عباها المتدفق ينهزم على الرمال ويتكسر على الحصى والصخور ،
 ويقذف بأشلاء غرقاه ، ثم يرتد ليثوب بسواهم مطوين في أكفان أثباجه ،
 محمولين على نقوش من مربد أمواجه ويروى عن نفسه أنه في صباح يوم عرسه ،
 دخل إلى مكتبته واعتكف فيها طول يومه غير مبال بهذه الانسنة الجديدة .
 وأسلوب « المازني » له طابعه الخير ويمكن اكتشافه ولو لم يوقعه صاحبه ،
 وهو يجب الازدواج ، وقد كان كلفاً به في فجر أدبه ثم انصرف عنه شيئاً ما ،
 ويبدو من وراء كتاباته هادي النفس ، مركز الأعصاب ، مستقر النفس ،
 كأنما لا يعرف العصبية ولا يضيق بالحياة . أو كأنه ليس هناك ما يزعجه .

كما يبدو في كتاباته ساخراً ، مستهيناً بالأحداث ، لا يحفل بأمر من أمور
 الدنيا ، ولا يضيق بمنكر من صروفها ، ولا يزعج لأى أمر مهما جل ، وهو
 فيما يصور نفسه يستقبل الحياة طروباً ضاحكاً باسماء مشرقاً ويتحدث عن الدنيا
 كأنما قد نفّض منها يده ، فلم يعد يطمع في جمال أو مال أو متاع ، أو كأنما
 قد حيزت له الدنيا فلم يعد يحفل بما يقبل من أمرها أو يدبر .

ويصور المازني قراءاته فيقول « .. كنت (٢) أقرأ من قبل الأدب العربي
 وأثار الفكر الإسلامى . وباللغة الانجليزية الأدب الكلاسيكى ، ولست أحب
 الأدب الفرنسى ، ورأيت فيه أنه فصيح بليغ ، ولكنه ليس عميقاً كالآداب
 الأخرى ، وقد شرعت منذ بضع سنوات أعيد دراسة الأدب العربى على
 نحو منظم ، وليس لى طريقة خاصة ، أو وقت خاص للقراءة ، فكل وقت صالح

لذلك . وكل مكان أستطيع فيه القراءة ، ولو كان حماما بغير ماء ، وإنى بخلاف
غيرى لأدون ملاحظات ولا أضع علامات على الكتب . وقد بعث ما اقتنيت
منها مرتين ، مرة بخسارة جسيمة ، وثانية بدون خسارة ..

ويصور زكى مبارك أسلوب المازنى فيقول أنه « بدأ حياته النثرية
بالطريقة الجاحظية ، وهى تقوم على أساس الازدواج ، وقد وفى المازنى
لهذه الطريقة أصدق الوفاء ، فى أمد يزيد على عشر سنين ، ثم جنى المازنى على
نفسه بالكتابة اليومية . ثم ابتدع المازنى طريقة جديدة هى كتابة أكثر
مقالاته وقت إنشائها بالمكسّاب فينشئ المقال على أصوات طق . طق . طق .
فمن هاله أن يرى بناء الجملة عند المازنى الجديد يخالف بناء الجملة عند المازنى
القديم فليذكر هذا التاريخ فى حياة هذا الفنان .. »

ويقول توفيق الحكيم أن المازنى يطلق روحه على السليقة « .. فهو
يكتب بدون تكلف وبدون أن يراعى قول الناس فيه ، إن المازنى نفس
طليقة مصبوبة على الورق فى صفاء . وليس بالنفس الحبيسة فى إطار الوقار
المصطنع أمام الناس .. »

ومن أبرز جوانب المازنى ، جانب الترجمة عن الإنجليزية فهو بارع فيه
إلى أبعد حد .. « لست ^(٢) أغلو إذا قلت إنى لا أعرف فيما عرفت من ترجمات
للنظم والنثر ، أدبياً واحداً يفوق المازنى فى الترجمة من لغة إلى لغة ، ويملك
هذه القدرة شعراً كما يملكها نثراً ، ويحيد فيها اللفظ كما يحيد المعنى والنسق
والظلاوة .. »

وقد عن للمازنى فى فترة من فترات حياته (١٩٣٣) أن ينكر على نفسه
أنه شاعر .. وضائق العقاد هذا تحمل عليه ..

(١) الرسالة ١٠ نوفمبر ١٩٤١ زكى مبارك .

(٢) عباس محمود العقاد : الأساس : ٧ يناير ١٩٤٨ .

يقول المازني « إنني مخلص في استضعاف شعري أو ما كنت أزعمه شعراً من كلامي . ولقد هممت غير مرة أن أكتب نقداً له ليكشف عن وصفي بأني شاعر من لا يزالون يحسنون الظن بي ، ولكن كراهيتي له كانت تصرفني في كل مرة من النظر إليه .. »

ويقول العقاد « .. لم أر أحداً يجور على المازني كما يجور المازني على فضله وقدره ، وقد طاب له منذ سنوات أن يدأب على الاستخفاف بعمله ، والاستخفاف بجدهواه ، فأنكر على نفسه الشاعرية ، وأنكر عناء ما يكتب وينظم ، وما عسى أن يكتب وينظم ، وقد تغنى أسماء كتبه عن الاستشهاد فيها بما قاله في تصغير فضله وقدره ومن هذه الأسماء حصاد الهشيم وقبض الريح . »

واستشهد العقاد بكلام كتبه المازني في هذا المعنى وهو قوله « وأعلم أنك إذا أنزلت نفسك دون المنزلة التي تستحقها لم يرفعك الناس إليها ، بل أغلب الظن أنهم يدفعونك عما هو دونها أيضاً ، ويحزحونك إلى ما هو ورائها لأن التزاحم على طيبات الحياة شديد ، والجهاد والتنازع لا يدعان للعدل والإنصاف مجالاً للعمل ، ثم علق على ذلك بقوله « إن المازني يستخف بعمله لأنه يستصغر حياة الإنسان في جانب آماد الخلود ومصائر الأقدار ، ولأنه ينظر إلى أعلى ولا ينظر إلى أدنى فيقيس ما عمل بما أراد أن يعمل . »

وقد صور « الزيات » حياة المازني الأدبية « .. عرفته في خريف ١٩١٤ يوم دخلنا المدرسة الإعدادية الثانوية معلمين ، وكان يومئذ في مرح شبابه وميعة نشاطه يتوسط باحة الأدب ، ويطرق باب الشهرة ، ويحاول هو وصاحبه العقاد وشكري ، أن يشقوا طريقهم إلى المجد في أرض غليظة صلدة يقوم في بدايتها عقبتان : صاحب « الشوقيات » بشعره الرائع ،

وصاحب « النظرات » بنثره البليغ والكنههم كانوا أصحاب معول ومسطرين يهدمون بالانقد والتلب والتجريح ويدنون بالتجويد والتجديد والدرس ،

ووصف « الزيات موقف المازنى عندما يشتبك فى خصومة يقول » . .
على أنه كان إذا أكره على الخصومة ، شديد العارضة ، حديد القلم ، يقرع صاحبه بالتهكم أكثر مما يقرعه بالحجة .
وكانت للمازنى فى فجر حياته الأدبية يوم أن كان يحمل المعول آراء ،
ولكنه عدل عنها بعد ذلك .

وقد ظل العقاد والمازنى على صداقة الشباب ، وكانت تقوم بينهما بعض المناورات والمساجلات ولكنها كانت تمضى رقيقة هينة ، وأن اختلف المازنى والعقاد فى كثير من آرائهم السياسية والأدبية ، وبقيت كلمة المذهب الجديد ، قاصرة عليهما ، فقد كانت هناك مدرسة السياسة ، ولها اتجاهها نحو الثقافة الفرنسية ، وبقى خلاف خفى بين المدرستين ظهر حينما اشتبك العقاد وطه حسين فى مساجلة « لاتينيون وسكسوينيون » ، واضطرت الصحافة المازنى إلى أن يكتب دون استعداد ، يتناولها فى سرعة ، ويكتب عنها دون مراجعة أو تعمق .

وقد منحت الكتابة السياسية « المازنى » الشهرة كما منحتهما لكثير من الأدباء الذين لو اشتغلوا بالأدب الصرف لكانوا أقل درجة فى الشهرة مما هم الآن .

ذلك أن أدباثنا كانوا يتناولون العمل الأدبى كفرع من العمل السياسى ، ويفردون له يوما من أسبوعهم الملى بالصراع الحزبى ، وكان لهذه الكتابات السياسية أثرها فى الأسلوب الأدبى وطريقة تناول الموضوعات ، فقد طغت السياسة على الأسلوب فجعله ضعيفا ، ليكون قريبا إلى نفسيات الجماهير ، كما طعمته بذلك اللون الخصيم فى التعابير وأخشى أن أقول أنها خلقت الاغراق

في الخصومة والبعد عن الانصاف ولكن المازني ، يتميز في هذه الناحية ، بأنه لم يكن الكاتب العنيف النائر ، ولا المعارض الجريء ، ولا المتطرف الذي يسك بطرف الحبل وإنما كان هادئاً ، يكتب السياسة بروح الرياضي ، ويعمل في ميدانها على أسلوب من السخريه والتهكم .

وكان المازني ضخم الانتاج ، يكتب كثيراً ويكتب في كل وقت ولذلك فانت لا تجد أدبه درجة واحدة في الجودة . ولا يفض هذا من قدره ، فهو لم يتفرغ للأدب وحده ، وإنما عالج الصحافة ، والصحافة مهنة السرعة ، ومهنة الكتابة العاجلة .



فاذا ذهبنا ندرس شخصيه « المازني » من أدبه ، وقفنا على كثير من الآثار المتناقضة التي لا تعطي صورة واضحة .. وقد صور هذا توفيق الحكيم .. أن المازني أكثر الكتاب تصويراً لنفسه وحياته وبيته ، ومع ذلك فالويل لمن يؤرخ له . أن قدرة المازني على الخيال والاختراع واختلاط حقه بهاطله ، قد أسدل حجاباً كثيفاً على وجهه الحقيقي ، فأنا عاجز عن أن استخلص من بين رواياته الكثيرة اللذيذة ، التي تعج بالنساء المدلات والأوانس الرشيقات ، امرأة واحدة ، أستطيع أن أقول أنها كانت صاحبه الشأن الأول في حياته ، على أن الذي لاشك فيه عندي ولا نزاع أن المرأة موجودة بالفعل ولولاها ما استطاع المازني أن يكتب قصصاً ..

فاذا اتصل الحديث عن المازني والحب وحدنا قدراً كبيراً من الآثار التي تدل على الفهم العميق وعلى التأثير بهذه العاطفة وبلوغ أعلى مراتبها .

« أحبت مرات عديدة ، فأني أبداً كما قال في الأستاذ العقاد

أنت في مصر دائم التهيد بين حب عفا وحب جديد

والسبب في ذلك أن عمر الحب عندى لا يطول إلا ساعة أو ساعتين ، أو ليلة أو ليلتين — إلى أن أمل — وما من واحدة أحببها إلا تمنيت على الله أن يهيء القدرة لأصلح بعض مالا أَرْضَى عنه . . وليس هذا من الاعتراض على خلق الله سبحانه وتعالى . حاشا وكلا . وإنما هو اشتفاء الكمال كما اتصوره ولا كمال في الدنيا مع الأسف (١) ،

ويضيف الأستاذ محمد محمود حمدان — مؤرخ المازنى — « .. على أن أهم ما يذهب إليه المازنى في فلسفة الحب هو رأيه المعروف القائل بالتعدد ، وأن القلب الانسانى يتسع لأكثر من حب واحد في وقت واحد ، أو في أوقات متقاربة ، وأن يختلف كل حب في القوة والنوع والوجهة (٢) .. ويؤكد المازنى أن الانسان لا يعرف التوحيد في الحب ، فلا الرجل يعرفه ولا المرأة تعرفه ، والحقيقة أنه أ كذوبة ضخمة وخرافة تلجج بها اللسان ولا يصدقها القلب . . . »

ولكن المازنى على كثرة ما أحب ، لا يؤمن بأن المرأة مصدر وحي للأديب .. « .. لست ممن يقولون أن المرأة هي وحي الأديب والفنان أو العالم فان في هذا القول مبالغة وتخليطاً ، والذين يلهجون بهذا الكلام الفارغ يعنون في الأغلب المرأة بالمعنى الجنسى .

.. أن كل ما أعرفه في هذا الحب ، هو أن المرأة أداة لأراحة أعصاب الرجل من الناحية الجنسية ، ومتى استراحت الأعصاب وسكنت وأعفيت من الاضطراب ، تيسر التفكير الهادئ المتزن ، والانتاج فى يسر وبغير اجهاد .. واستطاعت الأعصاب أن تتحمل جهد العمل بلا كلل أو ملل . أى أنها هذه الناحية وسيلة للإنعاش والتنشيط .. »

ومازنى على نقيض صديقه العقاد ، يؤمن بالزواج وينفر من العزوبة ..

(١) الرسالة — ١٢ يولية ١٩٣٧ . (٢) الرسالة — ١٢ فبراير ١٩٥٣ .

ويقول أنه لو كان أعزباً لما أطاق الحياة .

غير أن الصور الأدبية التي كتبها المازني على هيئة قصص لا تضع أمامنا صورة كاملة لحب كبير من ذلك النوع الضخم أو العاصف الذي يكون عادة بعيد الأثر في حياة صاحبه . وهو بطبيعته يميل إلى الانزواء والادتكاف . ويعزو ذلك إلى شعوره بعيوبه . فقد هيضت ساقه في شبابه فقصرت على حد تعبيره كما أنه يصف نفسه بسرعة النسيان . ولكنه لا ينسى الصور مهما طال عليها الزمن . يقول « وشر ما أعانيه من ضعف الذاكرة أنني أنسى الأسماء أول ما أنسى حتى ليكبر في وهمي أنه سيجيء يوم أنسى فيه اسمي . وأنا أفتاقل وأتظير وفي بيتي وجهان أكره أن أصبح عليهما أحدهما وجهي . . ويشرح صدرى جداً أن أرى الهلال في أول الشهر القمري ومع شئ من الفضة . ومن عيوبى إسرافي وجبنى . فكل مال أفيده يجب أن يخلو منه يدي في أقصر وقت وإلا شقيت واضطربت أعصابي . . ويقول عن نفسه أنه جامد العين فما يعرف أنه بكى لحادث مهما كان خطيراً وقد سأل عن أستاذه الأول فقال أنه « الفقير » ويقول أنه هو الذي أتاني القوة والقدرة على الكفاح وعلني التسامح . وعودني ضبط النفس وجنبتني أن أحترم المال لذاته . »

ويخاف المازني الموت . وقد حاول أن يتداوى منه فنقل بيته إلى حيث أجداث الموتى وحيث كل قبر يصير قبراً مراراً . ويفزع حين يرى الشيب قد وخطه . ولا يجد له علة إلا هذه الصناعة القاسية « وأشعر كأني شيخ هرم عظم الأعصاب مهدود الكيان . ألسن صحفياً . ألا تتقاضاني هذه الحرفة التي أدركتني أن أكتب كل يوم ولا أستريح يوماً . أليس معنى هذا أنني في كل يوم حين أريد الكتابة أقصر أعصابي على أن تكون في حالة لم تهياً لها تهينوا طبيعياً . . . »

ويؤمن المازني بأن على الكاتب أن يرضى ذوقه الفني أولاً دون أن ينظر

إلى القارىء. وأهوائه . ويؤمن بأن كل رأى من آراء الكتّاب له من الهوى
أثر ولا يزال الإنسان يوحى إلى نفسه حتى يصير الأمر عنده عقيدة راسخة .

وبعد المازنى ثانى رواد القصة الطويلة فى الأدب العربى المصرى الحديث
ولم يرحل المازنى فى حياته كثيرا . وهو فى هذا شبيهه بصديقه العقاد ، وفى
أيامه الأخيرة كان يجلس إلى النافذة ليكتب بين السادسة والعاشرة صباحا
وقد أثر الكتابة بالآلة الكتّابة فى سنواته الأخيرة .

وبعد فالمازنى ولا شك رائد من رواد الأدب العربى المعاصر قام بدور
واضح خلال ثلاثين عاما كاملة . كان فيه أحد أصحاب المذهب الجديد الذى
كان بعيد الأثر فى تطور الشعر العربى والنثر العربى الحديث .

الكتاب القادم

النوافذ المغلقة فى حياة الألباء

ويتناول بالدراسة شوق وحافظ والزهاوى والعريان وأدهم
وناجي والطنطاوى وأبو شادى والأدبيات المعاصرات جميله
العلايلي وأمينه السعيد وبنت للشاطيء وجليله رضا .

اقبال



عاشوا في عصر واحد ، بين مصر والعراق والباكستان ، في ظروف
مقاربه متشابهة ، فكانوا اعلاما على النهضة الالية في الشرق ، وكان كل منهم
قطبا في وطنه ، أولئك هم شوقي واقبال والزهاوي وحافظ

لقد تحدث الناس في مصر والشرق العربي عن شوقي والزهاوي وحافظ
وظل اقبال مطويا عنا وقتا من الزمن ، الى ان ترجم شعره الى العربية ،
والى ان ارتبطت الاواصر الفكرية والادبية بين اقطار الشرق الاسلامي بعد
الحرب العالمية الثانية ، نتيجة للتقارب الروحي والسياسي الذي جاء استجابة
طبيعية للتطور

ويحق لنا اليوم ان نتساءل : اين نضع اقبال بين زملائه شعراء العصر
الواحد ؟

إنها محاولة لمقارنة بين مذاهب شعراء عاشوا في جيل واحد ، وفي بيئة
صبيغتها اسلامية ، وروحها الوطنية كانت تتحسس للحرية وترغب في مقاومة

الغاصب وتعمل على تحرير البلاد ، وكان هذا هو المعنى العام الذى اجتمع عليه الشعراء الاربعة فى الباكستان والعراق ومصر

لقد جمع بينهم الشرق بآماله وآلامه . وربطت بينهم آصرة الدفاع عن الاوطان والحرية المسلوبة ، فهل تراهم التقوا على اوضاع متقاربة او وجهوا تضايام بأساليب مختلفة وعلى طرق متعددة ؟

الحق انهم استجابوا على درجات متفاوتة ، كان بعضهم فيها قويا حادا صنيفا ، وكان بعضهم هادئا فاترا ، وكان احدهم ضيق الافق محدود المعانى وكان الآخر انسانيا واسع الآمال . كانت القومية مذهب البعض ، والعربية امذهب البعض الآخر والاسلامية العامة وحدها مذهب اقبال

ورجع هذا فى الغالب الى هذه الطبيعة الانسانية التى يصدر عنها الشاعر او الكاتب او الفيلسوف ، وتمتد جذور الطبيعة وتنشعب ، وتصل الى حد كبير باتجاه الشاعر ان كان فلسفيا أو عاطفيا ، وان كان عصيا او هادئا ويتصل هذا بثقافة الشاعر وعلمه ، وفهمه وخبرته ، ويتصل هذا بأسفار الكاتب والشاعر ، ومشاهداته ، والبلاد التى زارها

ونحن اذ نعرض هنا لشعر الشعراء الاربعة ، بعد ان أصبحوا فى ذمة التاريخ ، بحق لنا ان نتكلم عنهم فى صراحة تامة ، وان لم نطبق عليهم مقاييس البحث العلمى الحديث ، فنقول ان شعراءنا الاربعة كانوا مؤمنين بأوطانهم كل الايمان ، وكانوا يحبونها ويخلصون لها ، وانهم كانوا يصعدون عن عاطفة خالصة . غير ان هذا لا يمنع من القول بأن ظروف الحياة نفسها كانت تضع كل منهم فى الموضع الذى يتناسب مع طبيعته ونفسيته

فشوق هذا هو ابلع شعراء العربية بعد المتنبي ، بلا منازع ، ولكنه — وهو التركي الاصل — كانت نزعة اسلامية محدودة بحدود الخلافة التركية اذ ذاك ، وهى ابرز مظاهر شعره فى حياته الاولى ، فلما نفي تحول

حينئذ إلى الفن الخالص ، وهجر أدب المديح بعد أن أسيرف فيه في أول حياته اسرافاً غليظاً . . . وكان اتجاهه الأخير تاريخياً ، فقد وضع قصائده عن النبي ومسرحيات عن كليوباترة وبنون ليلى وعلى بك الكبير .

وهو ليس واضحاً في اتجاهه الفلسفي ، وقصائده التي يمكن أن نجد فيها هدفاً أو غاية قليلة ونادرة . وقد وحالنا — ونحن هنا في مجال المقارنة — أن نجد له قصيدة يمكن أن نعد نموذجاً في الشعر الفلسفي الذي يكشف عن مرمى الشاعر فلم نجد إلا هذه الأبيات :

أهم الهلال : مقاله من صادق	والصدق اليق بالرجال .مقالا
مقاطف في النصح غير مجادل	والنصح أضيع ما يكون جدالا
من عادة الاسلام يرفع عاملا	ويسود المقدام والفعالا
ظلمته السنة تؤاخذ بهكم	وظلمتموه مفرطين كسالى
هذا هلالكم تكفل بالهدى	هل تعلمون مع الهلال ضلالا
سرت الحضارة حقبة في ضوئه	ومشى الزمان بنوره محتالا
وبنى له العرب الأجاود دولة	كأشمس عرشا والنجوم رجالا
رفعوا له فوق السماك دعائماً	من علمهم ومن البيان طوالا
الله جل ثناؤه بلسانهم	خلق البيان وعلم الأمثالا
وتخير الاخلاق أحسنها لكم	ومكارم الاخلاق فيه تعالى
كالرسل عزماء والملائك رحمة	والاسد بأساً والغيوث نوالا
عدلوا فكانوا الغيث وقعا كلما	ذهبوا يميناً في الوري وشمالا
والعدل في الدولات أس ثابت	يفنى الزمان وتنفد الاجيالا

وقد رأينا شوقاً في هذه الايات التي اخترناها ، في أحاب الشاعر

الاسلامى على النحو الذى يفهمه من الفلسفة الاسلامية فى حدود
فهمه للاسلام

ومن هذه القصيدة تكشف انا نفسية شوق ، الشاعر الهادى الذى
يفهم الدنيا على مهل ، يفهمها على أنها « لوحة » جميلة حلوة الاخلاق
والفضائل فحسب ، ويقف عند هذا لا يعدوه

أما حافظ فقد عرف طويلا بأنه شاعر الرؤس أو شاعر المجتمع ، وقد
غلبت النزعة الوطنية المصرية الخاصة عنده على كل شيء ! فهو شاعر مصرى
قومى ، يعيدش فى الأحاسيس المصرية وحدها ، ويقف من الحادثات موقف
الغضب ، ولكنه اذا عرض لها فى شعره عرضها على طريقة مخففة لأنه
موظف ولأنه كان يخشى السجن والاعتقال

ولذلك جاءت نزعته الوطنية القومية المحدودة ضعيفة أيضا ، وهذه
صورة منها :

مالى أرى الأكام لا تفتح	والروض لا يزكو ولا يفتح
والطير لانهو بتدويمها	فى ملكها الواسع أو تصدح
والنيل لا ترقص أمواهه	فرحى ولا تجرى بها الأبطح
والشمس لا تشرق وضاءه	تجلو هموم الصدر أو تنزع
والنجم لا يزهر فى أفقه	كانه فى غمرة يسبح
ألم يحشها نبأ جاءنا	بأن مصر حرة تمرح
أصبحت لا أدرى على خبرة	أجدت الأيام أم تمزح
أموقف للجد تجتازه	أم ذاك للالهى بنا مسرح
ألمح لاستقلالنا لمحة	فى حالك الشك فأستروح

وتطس الظلة آثارها فأتى أنكر ما ألمح
قد حارت الأفهام في أمرهم أن لمحو بالقصد أو صرحوا

وحافظ في هذه القصيدة صورة من الشاعر الوطني الذي يحب مصر ،
ويتف شعره على قضيتها ، ويراه كل شيء عنده ، ولا يفتح عينه على أمد
بعيد . وهو بد رجل موظف — كما ذكرنا — حريص على ألا يضطدم
بقوات الاحتلال أو بساطان الحكام !

أما الزهاوي فهو شاعر ثائر فيلسوف ، عاش حياته كلها في جدال وخلاف
وخصام وصراع مع الانجليز والمستبدين الأتراك ، وطبيعته غاية في الحماسة
والتموة ، ولكنها حماسة تنحو نحو الوطنية العربية الخالصة ، فهو
محدود بمحدود وطنه وفطرته وطبيعته

وهذا هو في مفتح العام الهجري الاسلامي يقول :

فن لي بعام لا يشابه غيره	أرى فيه أظفار البغاة تقلم
وأبخل أرض بالرجولة بقعة	يضام الفتى فيها ولا يتبرم
إذ أنت لم تألم من الضغط عاضيا	فمن أي شيء في حياتك تألم
أدير عيوني في الوجوه فلا أرى	سوى الذل مقروء ولا أتوسم
من الناس آلاف بعضهم الطوى	وفي كل ألف واحد يتنعم
إذا عجز المكروب عن شرح مابه	فعل دموع العين عنه تترجم
أمن قام يشكو بثه فهو مزعج	ومن قال يبغى حقه فهو مجرم
وأني لا أدري وأن كنت داريا	أقوى تعاملوا أم عن الحق قد عموا
بني وطني لا تسكتوا عن حقوقكم	أليس لكم منكم فم يتكلم
ولا خير في بدى الفتى بحليله	إذ كان عن عجز له لا يتم

ولا فخر الا للذى هو ماجد ولا مجد الا للذى يتقحم
وما الحر الا من اذا ضيق لم يلق وان قال حقا فهو لا يتلعم
والشاعر هنا وفي كل شعره عاطفي حماسي حاد العاطفة ، ولكنه محدود
بالاستمرار وحده ، كل فلسفته تدور في الأفق الضيق ، أفق التحرر من كل
ظلم أو ظلم

أما فهم أقبال للإسلام فيختلف اختلافا بعيداً عن فهم شوقي له ، وفهم
حافظ للوطنية ، وفهم الزهاوى للعروبة الحرة . ولن أصور لك مذهبه حتى
أضع بين يديك شعره ثم نعقد المقارنة بين الشعراء الأربعة على نطاق
واسع .

يقول اقبال :

ليس العاشق من يحرك شفتيه متأوها من الحب .

ان العاشق هو الذى يحمل العالم على كفه .

هو الذى يخلق عالمه بنفسه .

ولا يرضى بغير المجد .

كن مهيباً واحرق القش .

ما سوى الله باق .

أنت مسلم فعمر قلبك بالأمانى .

واجعل شعارك فى كل زمان الاتخلف الميعاد .

اعتمد على نفسك ، ولا تشتك من العالم .

لأنك لو غيرت نظرتك فالعالم يتغير لك .

أنظر الى نفسك .

فان قوة الطوفان كامنة فيك .

ان المسلم لا يعبد أحدا سوى الله .
 وهامته لا تنجني لاي فرعون على الارض .
 ما الذي أباد استبداد كسرى وقيصر .
 لاتزين مقامك على الشاطئ . لان هناك في الاعماق صوت الحياة .
 ففص في البحر ، وصارع الامواج ، فان خلود الحياة في الجهاد .
 ان نسبك أيها المسلم هو الدين .
 ان العدة التي يمكن أن يفتح بها العالم .
 لو تعلم فتلك هي القرآن وانه في حوزتك .
 أن اجتماع أولئك بالبطش والقوة .
 أما اجتماعك فمستحكم بقوة الدين .
 ان شعبكم متماسك بقوة الدين ، فاذا ذهب الدين ذهبتم .

* * *

هذا « اقبال » الشاعر الفيلسوف المؤمن ، الذي يفهم الاسلام فهما
 واسعا ، ويحب القرآن حبا كان بعيد الاثر في نفسه وشعره وحياته ..
 أنه يريد أن يعطى المسلم في الشرق روح القوة ، ويريد أن يحمله على أن
 أن يرفع رأسه ويكون المجد ويصنع التاريخ الجديد .
 انه أدب القوة يتمثل في شعر اقبال ، في صورة واضحة قوية .
 ونحن نسأل الآن : لماذا اختلف اقبال عن شعراء عصره ؟
 والجواب أن شوق وحافظ والزهاوى استجابوا للصراع بين أوطانهم
 والمحتل وصوروا هذا الصراع ، اما اقبال فقد سبقهم خطوة أبعد ، لقد أراد
 أن يصنع ما بعد التحرر من الاستعمار ، لقد أراد أن يضع الفلسفة الايجابية

لمقاومة الاستعمار والاستبداد ، آمن بفلسفة جديدة وآها المخرج الوحيد
للشرق من آلامه ومتاعبه ، وهذه مرتبة لم يصل إليها شوقي أو حافظ أو
الزهاوى !

لقد عرف شعراؤنا الرحلة والاسفار ، سافر شوقي واقبال الى أوروبا
وسافر حافظ الى السودان وسافر الزهاوى الى تركيا ومصر .. واتصل شوقي
واقبال بالحضارة الاوربية فى أرقى مظاهرها ، والثقافة العربية فى أروع
آثارها ، غير أن كلا منهما استجاب لها على صورة خاصة ، ومضى فى اتجاه
يختلف عن اتجاه غيره .

أما شوقي فأحب هذه الحضارة وأعجب بها وأقبل عليها وارتضاها لمصر
والشرق ، وأما اقبال فتمد أعنيته الحضارة الاوربية بأن الشرق مصدر النور
وبذلك جعلته يؤمن بنفسه وبلاده ، وأمدت مذهبه الفلسفى بتلك القوة التى
دفعته الى أن ينشئ للشرق طابعا خاصا ، ويأخذ خير ما فى حضارة أوروبا فلا
يتورط فيها ولا يتجاهلها

نشأ شوقي واقبال فى بيئة الترف والقصور ، أما شوقي فظل متصلا بهذه
البيئة فتشلت فى شعره صور الارستقراطية ، وأما اقبال فتمد نقله فهمه
للاسلام الى نوع من الاعتدال والوسط فعبّر عن روح الشعب وآلامه !

وعاش شوقي وحافظ الزهاوى يمدحون أصحاب السلطان ويهجونهم
ويكتبون المراثى .. ويكتبون شعر المناسبة العابرة ، أما اقبال فقد سما
عن المدح والهجاء ، وترفع عن كل شئ عابر ، ومضى راسا الى رسالته
كان شوقي وحافظ والزهاوى يكتبون شعرا عن الاسلام ، لكنهم
يختلفون فى اساليبهم عن اقبال .

وكان شوقي يؤمن بالروحانية ، ويتحدث عن المسيح ومحمد وموسى ،

ويمدح النبي ، ولكنه يفهم الاسلام على صورته التقليدية ويؤمن به على
الأسلوب الموروث .

أما حافظ فقد كان الاسلام والدين في شعره يسيرا عاديا . أما الزهاوي فقد
كان ينكر الاسلام في صورة المسلمين ، ويراه على الصورة القائمة عائقا عن الحرية
والنهضة ، ولكنه اكتفى بهذا الاتجاه السلبي ، فاذا حاول التوجه اندفع وراء
يريق الحضارة وأسرف في تأييدها .

أما اقبال فقد كان يختلف اختلافا كاملا عن هذه الصور ، كان خالصا
للالسلام ، متجردا له ، وقد ابتدع أسلوبا جديدا في فهم النهضة واليقظة التي
يجب أن تظهر في الشرق .

لم يكن اقبال شاعرا فحسب ، بل كان فيلسوفا ، واضح المعالم ، وكان
سياسيا قوى العارضة ، ولسنا الآن في معرض الحديث عن فضاله وكفاحه
الوطني والسياسي ، ويكفي أن نقول ان اقبال يتميز عن شعراء عصره .
وجيله . بالهدف المحدود . والتفرد برسالة خاصة كاملة . عاش لها واستصغى
لها فنه . وفكره . ووقف عليها عمله . وترك بها للشرق منارا ما زال يضيء
وسيطل يضيء ما بقي الشرق والاسلام .

آمن اقبال بأن الشرق قد تجنب الطريق السوي الذي رسمه له الاسلام .
هذا الطريق الواضح المبسط . وآمن بأن الانسانية غرقت في فلسفات معقدة
مضطربة . هي جماع منوع لا يستقيم على وضع محدد

وكان على يقين من أن الشرقيين قد أنكروا ذاتهم ووجودهم وأغرقوا
في الايمان بفلسفة القضاء والقدر . وآثروا النوم والتواكل في الوقت الذي
غرق الغربيون فيه في لجة من الشك والفساد والانحلال .

فكان لابد للشرق من دعوة الى اليقظة . وكان اقبال قد وطن نفسه على

هذه الدعوة . ومضى اقبال يدرس . درس تعاليم « نيتشه » ، في
السوبرمان و « برجسون » ، في التطور المبدع وكانت « في النقد » ، وقرأ
جمهورية أفلاطون ، وطلع أدب الفرس . وقرأ شعر حافظ الشيرازي .
وأعجب بمذهب جلال الدين الرومي . ثم قرأ القرآن في حدود القاعدة التي
وضعها له والده ، وكأنه أنزل عليك ، وأعجب بالغزالي وأحب مذهبه في
تهذيب النفس وتنقيتها .

وأقام من خلاصة هذه المذاهب والدراسات . مذهبا جديدا . يستمد من
الاسلام والروحية قواعده . وأضاف خيرا إليه ما في الحضارة الديمقراطية
والثقافة الغربية . فأنشأ فلسفة متفائلة باسمه . كلها ايمان وبناء وقوة . وقال انه
ليس للاسلام أى حدود مكانية . أو نهايات زمنية . وان الاسلام بذاته وطن
المسلمين قبل أوطانهم . ودعا الى « معرفة النفس واطلاق قواها » . وأخذها
بالتربية والتوسيع . تربية تقوم على أساس التحرر من كل قيد .

وحارص أفلاطون الذي كان يقول ان غاية الانسان الموت . وقال ان
غايته هي الخلود . وأوضح الفرق بين ديمقراطية أوروبا وديمقراطية الاسلام
وقال « ان أوروبا أنشأت ديمقراطيتها من التجديد الاقتصادي للهيئات الاجتماعية
ولكن نيتشه على حال كل يتحرك حكومة الجماعة . ويؤسس جميع الثقافات العالية
على ظهور وتنقيف « سوبرمان » ، ولكن هل العامة حقا موضع القنوط . ان
الديمقراطية الاسلامية لم تنشأ من تحديد الفرص الاقتصادية . بل هي مبدأ
روحاني معناه الاحتراف بأن كل انسان مركز للقوى الخفية التي يمكن أن
تكشف امكانياتها بتربية طراز خاص من الاخلاق والسجايا . وبناء على
ذلك فالاسلام قد خلق من حامة الناس المثل العليا في الحياة والقوة ...
أو ليست إذن الديمقراطية الاسلامية في القرون الأولى ادخنا عمليا
الأفكار نيتشه ؟ »

وكان يتولّد ان قوة الذرب ليست في الصنّج والرباب والرقص الخليع
ولست في سحر الوحدة المتألّقة... ولست في الاتحاد ونبذ العقيدة . انما
قوة الغرب في العلم والفن وفي مشاعل الثقافة المضيئة . وليس في استبدال زى
بزى أى حكمة . وليس اللباس القديم بمانع من العلم والفن ،

وغاية القول أن مكان اقبال بين شعراء عصره شوقي وحافظ والزهاوى
مكان مرموق . لا يمكن انكار ضخامته . فهو ليس الشاعر الاسلامى التقليدى
ولا الوطنى المحدود . ولا القومى النائر . . .

وانما هو ذلك الشاعر ذو الفكرة الواسعة العميقة . هو شاعر القوة
والحق والحرية كما جاء بها الاسلام .

ورسائله هى أن يربط بين الدين والفلسفة . والشرق والغرب . والروحية
والمادية على أصول وقواعد ثابتة ذات مدلول شامل . توجه المجتمع على
أساس روحى . وتفتح أمام الشرق باب الأمل فى مستقبل ضخم كريم .
وحضارة عالمية ترمى الى تحرير الفرد والمجتمع

وهذه كلها معان بعيدة جدا عن آفاق شوقي وحافظ والزهاوى . الذين
عاشوا فى المحيط الضيق . والحياة العابرة . وعرفوا الفن الذى لم يعرفه اقبال
فن المديح اوخير ما نختتم به البحث أن نود كلمة أحد زعماء الهندوس فيه وهى
قوله : ان اقبالا قد وضع المصباح على باب السلم . ولم يحجب نوره عن غير
المسلمين . بل استطاع الجميع أن يستضيئوا بنور ذلك المصباح ، !

شوقي



لست أدري هل كان يصل شوقي الى ذروة السكال الفني لو لم يتح له أن ينفى
ويقضى في الأندلس خمس سنوات ثم يعود خلقا جديدا . وقد بعد عن القصر
أو كاد . ومضى يشق طريق العمل الفني الخالص حتى اذا ارتفع به السن
أوفى على قمة المجد بأن ابتدع هذا اللون الجديد من الشعر التمثيلي الذي لم يكن
معروفا من قبل في اللغة العربية .

والحق أن نبي شوقي هو أخطر حادث في تاريخ حياته كله . أثر في مجرى
ادبه وفنه وشخصيته جميعا . وقد أجاب عن ذلك في الحلال (دد نوفمبر
١٩٢٩) قال : اذا عزى الى الحرب الكبرى — يقصد الأولى — كثير
من التغيرات والانهيارات في انظمة العالم وشؤنه الاجتماعية والأدبية فاني
اغزو اليها هذا الاثر العظيم الذي أحدثته في مجرى حياتي . وكان له فضل كبير
فيما نلته من مكانة في الادب . وامتلاك لناصية الشعر العربي .

ذلكم انه لما وقعت الحرب الكبرى وشمل العالم هذا الاضطراب الفريد وانضمت تركيا إلى الالمان عمدت انجلترا إلى قلب نظام الحكم في مصر . وأعلنت انتهاء حكم الخديو عباس حلمي الثاني . ثم أخذت تنفي عن مصر كل من لم صلة به ، فأمرت بالرحيل إلى اسبانيا . فجمعت عائلتي . واصطحبت مكتبي وسائر مرافقي . وغادرت مصر إلى برشلونه . وهو ثغر على شاطئ البحر الأبيض يشبه مرسيليا في المدينة ويكاد ينم عما كان فيه من سالف الحضارة العربية في عهد الدولة الاندلسية . فادخلت أولادى المدارس الراقية ثم عكفت على قراءة كتب الأدب العربى في غير أوقات النزهة ومشاهدة السينما فاستوعبت منها ما لم اكن قد استوعيت وطالعتها كلها حتى اكاد أقول انه ليس في الأدب العربى كتاب لم استوعبه خلال السنتين التى مكثتها باسبانيا . وقد ساعدنى في ذلك طبيعة الجو اللطيف الذى يشبه جو الاسكندرية وجمال المناظر التى تحاكى ضواحي الاستانة في رشاقتها ونظامها .

في هذا الجو . وفي ذاك الوسط الكريم . نشأت نشأة اخرى في الأدب العربى . واستأنفت دراستى له بعناية واهتمام . وتوفرت على رياضة الذهن في ثمرات القرائح العربية منشورها ومنظومها فحصلت على ثروة لم افز بها من قبل ... »

* * *

ويأتى بعد هذا في حياة شوقي ذلك التحول العجيب في فن الشعر نفسه فهذا الشاعر الذى قال في شبابه نهج البردة وشعر المديح للرسول سائغا شفاقا وكانما استمدته من صوفيه عميقة وإيمان خاشع . هو الشاعر الذى قال في سن الستين هذا الشعر الغرامى والوجدانى والعاطفى الرائع . وهو الذى صور حب كليوباترة وحياتها وصور جنون قيس وهيام ليلي . واستطاع أن يصل

إلى أعماق العاطفة الخنونة المحرومة وهذا الهيام في الفلوات والبيد .

ولعل هذه الظاهرة التربوية لم تكن موضع عناية كثير من الناقدين أو المؤرخين . وهنا نطرح سؤالاً بالغ الأهمية في حياة شوقي وفنه ؟

هل يمكن أن يكون شوقي قد وصل إلى هذا الإبداع في وصف الحب دون أن يكون قد ذاق الحب . ؟ الحق أنه ليس بين أيدينا ذلك الدليل المادي الواضح . وقد ذهب الكثير من النقاد إلى أن تصوير شوقي للحب إنما هو لون تقليدي لا صلة له بحياته ولكني لا أرى هذا الرأي . وإنما اعتقد موقنا بأن شوقي عرف الحب في صور مختلفة واتيح له أن يشرب من هذه الكأس وأنه حرم كثيراً وامتد هذا الحرمان بهذه الصور من اللوعة والشوق التي تبدو في تنابها شعره الوجداني . ولعل لا أبعد عن الحقيقة إذا قلت أن شوقي قد عرف في الأندلس وجوها . تقبض بالجمال ونفوسا تفيض بالحنين إلى أصلها العربي .

وهنا في القاهرة في هذه المغاني التي كان شوقي يغندو إليها ويروح . كم من وجه وسيم وروح نبيل هفا نحو الشاعر الذي كان موضع الإعجاب والتقدير في كل ندوة أو ناد وهناك في باريس حيث قضى الشاعر شطراً من شبابه وعاد إليها مرات . هل تركته مدينة النور دون أن تأخذ منه خفق القلب ووجيب الضلوع ..

إن شوقي يسجل في حديثه عن الأندلس هذه العبارة التي تحمل ألف معنى « هذا إلى أخلاق الأهالي التي تميل إلى الأخلاق الشرقية العربية مما جعل بيني وبينهم الفة حسنة »

البيت الالفه نوع من الحب . ويقول الأستاذ حسين شوقي في مقالته « داني في الأندلس » على أثر زيارته للأندلس « .. وذهبت في الليل إلى (البرالو) وهو حي برشالونه الفني كالحى اللاتيني في باريس . وكان مشهوراً بجوهر المرح

وكان ان يذهب هناك احيانا . اذ كان يسر للنظار البوهيمية التي تشاهد فيه ..

فاذا قبل في الرد على هذا ما قاله بعض النقاد ، ان اول ما تلحظه على مجنون ليلى ، الذى صنعه شوق البرود والركود . وانك لا تلح مرة واحدة في مجنون ليلى تلك الحركة اللابجه ولا تلك الثورة العاصفة ، قلنا ان مجنون ليلى شوق فيه من عمق الحب قدر ليس بالقليل . ولعل عذر شوق انه صنع هذه الشخصية بعد الستين ويكفيه في هذا السن أن أحياء ثورة الحب على هذه الصورة الرائعة .

ولم يكن من اليسير على شوق — وهو في مثل وصفه ومركزه وفي هذه الفترة من التاريخ بالذات — ان يجهر بالحب الا في صورة قصص مسرحية أو أغنيات لها مناسبتها وطابعها .

ولا يبعد أن يكون شوق قد أحب مع ارتفاع السن . وهذا النوع من الحب بعيد الاثر ولعله هو الذى دفعه إلى ان يغلفه في صورة قيس وفي صورة انطونيو اذ لم يكن من الميسور له أن يكشف عنه في صراحة ويجهر به . وقد عرف هذا اللون فيكتور هيغو وجوته . ويقول مؤرخه أحمد محفوظ انه لم يعرف اللوعة في الحب قط . وإنما هي رغبات عاطفية كان يستعين عليها بماله . ثم ينصرف عنها . وكان لا يدخر مالا في سبيل الوصول إلى غاياته ولم يعرف عنه أنه تعلق بامرأة وتدلها بها ولا تنكر عليه أنه أحب ولكن حب القادر على الحبيب المتمكن من الوصول .

وهو في هذا الميدان أقوى من البارودى . وانفذ في تصوير العاطفة واشاعها المشرقة القلقة . وان كان يبدو أن شوق لم يعرف لوعة الحب او حرمانه على الصورة العاصفة . ولعل هذا مما يجعلنا نظن أن هذا الحب جاء متأخراً قليلا .

وقصيدة شوقى التى صور فيها انطواء صفحة شبابه كان ابرز ما فيها
حزنه عن الحب :

شيعت أحلامى يطرف باك ولملت من طرق الملاح شباكى
ورجعت ادراج الشباب ووردة امشى مكانهما على الاشواك
وبجانبى واه كان خفوقه لما تلفت جبهة المتباكى
وتعطى أثار شوقى صوراً للعاطفة متناثرة متنوعة . وقد غلب فيها جانب
التضمين على جانب التصريح ولكن قصيدته هى التى نظمها فى لبنان عام ١٩٢٥
لا يحتاج إلى دليل فهى صريحة تخفف فيها الشاعر من وقاره وغلب عليه لون
من التحرر غير معهود فى قصائده وهذه أبيات منها :

واغر كحل من مها د بكفية ، غلقت محاجر دى وعلقتـه
لبنان دارته وفيه كناسة بين القنا الخطار خط نحيته
دخل الكنيسة فارتقبت فلم يطل فاتيت دون طريقه فزحمتـه
فازور غضباناً وأعرض نافراً حال من الغيد الملاح عرفته
فصرفت تلعبانى إلى اترابه وزعمتهن لبائى فاغرتـه
قمشى إلى وليس أول جورز وقعت عليه جبايلى فقنصته
قد جاء من سحر الجفون فصادنى واتيت من سحر البيان فصدته

* * *

كان شوقى قليل الكلام . ولم يكن ممن يتصدرون المجاس . بل كان
منطوياً يوجز القول ويطيل الصمت . وكان من حوله يهابونه ويتكلمون معه

في حذر ولا يرى شوقي استاذاً له غير اسماعيل صبرى . ولم يذكر شاعراً
في أعجاب كما ذكر المتنبي اذ كان بفضل على جميع شعراء العربية وقد عارضه
كما عارض أبى العلاء .

ولقد ولد بياض اسماعيل^(١) وعاش في ظل الغنى واليسار . فلم يتصل في
كثير ولا قليل بالشعب ولا بالحياة العامة . وقد شغل شوقي نفسه .
في فجر حياته بمدح الملوك والخلفاء . ثم تحول إلى مدح الرسول وصاغ
في ذلك قصائد غاية في الروعة والقوة وقد كان ازدوار شوقي عن المجتمع
واعتزاله وحياته المترفة هو المغمز الذي غمزه به نقاده لانه عجز عن
مشاركة الشعب في آلامه . غير أن شوقي لم يلبث أن خرج عن شعر القصور
والمناسبات بعد عودته من المنفى . وعندما اكتشف شاعريته وآمن بها .
ويروى لطفي السيد في حديث للدكتور طه حسين قوله : كنت التي حافظ
أول عهده بالشعر وكان يسمعى كثيرا من شعره فلا يعجبني فقلت له ذات
يوم : أرح نفسك من هذا العناء فلم يخلقك الله شاعراً ولكنه لم يقبل
نصحى وحسنا فعل فما زال يكدح حتى أرغم الشعر على أن يعنوا له ويصبح
شاعراً وكنت شديد الإعجاب بشعر شوقي اقرؤه في لذة تكاد تشبه الفتنة وانثى
عليه كلما لقيته فما زال شوقي يكسل ويقصر في تعهد شعره حتى ساء ظنى
بشعره الأخير .

قال انطون الجليل انه لم يشد الى فيثاره الشعر وترا جديدا ولكنه
عرف كيف ينطق الاوتار القديمة بنغمات جديدة مستعذبه . وأوتار العود
معدودة وهى عدا ونوعا ، تحت أنامل العازف . وهكذا كانت أوتار الفيثاره
القديمة في يده ، تخرج الحانا مستجده من كل موضع ..

وقال خليل مطران : ان شوقي لا يكدر فكره في معنى أو مبنى وكثيرا

(١) وتوفى في ١٣ اكتوبر ١٩٣٢

أما يعارض المتقدمين ولا يعسر عليه أن يذمهم . وشعره هو شعر التفوق
والعبقرية .

وقد وصف النقاد طبيعة شوقي بأنها طبيعة معقدة وردوا ذلك إلى أن فيها من
الترك واليونان والشركس (١) . وأن كل هذه الآثار وما فيها من طبائع
اصطلحت على تكوين نفس شوقي . هذه النفس بحكم هذه الطبيعة أو الطبايع
أبعد الأشياء عن البساطة وأناها عن السذاجة . وهي بحكم هذا التعقيد
والتركيب خصبه كاشد ما يكون الخصب غنيه كإسعاد ما يكون الغنى .

واجمع النقاد على وصفه بأنه أعظم شاعر في العربية بعد أبي الطيب
المتنبي .

وقال عبد العزيز البشري في وصفه بأنه مفرط في حب نفسه . شديد
الولع بها . مفرط في حب بنيه . شديد الولع بهم . وأنه بعد ذلك شديد الرقة
للناس جميعا . اضعفه الحب وفل من عزمه فلا يستطيع أن يشهد مشهدا مؤلما
ولا يستطيع أن يسمع قصيدة حزينة . ولو قد عرض لسمعه أو لبصره شيء
من هذا لولى منه فرارا . وللى منه رعبا . وهو ولوع بنفسه هيوب من أن
تعتبرها الأيام بمكرهه .

وقد كان شوقي يجود بشعر الحكمة يطلعه على سجيته دون تفكير
وعلى ما كان عليه من بلاغة القصيد . لم يكن يلتقي شعره أو يجيد الحديث
في مجالسه فكان قليل الكلام كثير الاطراق . وغلبت عليه النزعة الدينية
القدرية وبدأ حبه لال البيت واضحا في قصيدة . كما بدت عاطفته للشرق
والاسلام والعروبة ظاهرة في آثاره حتى كان شعره في سوريا وقودا للثورة
السورية بشهادة السوريين أنفسهم .

وقد وصف أحمد عبد الوهاب سكرتيره الماخر طريقة نظمه للشعر فقال
« لقد لازمته في ليله في بوفيه » دى لابر دى ، على كوبرى قصر النيل وكان
ذلك قبل الحرب فخرج يعمل في قصيدة النيل التي مطلعها »

من أى عهد فى القرى تندفق وبأى كف فى المدائن تغدق
وكان كل نصف ساعة يركب مركبة خيل ويسير فى الجزيره بضع دقائق
ثم يعود إلى المنضدة التي كان يجلس عليها فيكتب عشره أو اثني عشر بيتا ...
وهكذا انتهت القصيدة فى ليلة الايتا استعصى عليه ولم يتمكن منه الا بعد
يومين ..

« ... وكان إذا شغلته أشياء عن قصيدة طالب اليه عملها . ولم يتذكرها
الا قبل ميعادها بساعات أو عند طلبها ابتم وطالب ان يتناول صفار ثلثه
من البيض التي يثر بها نيئه . ثم يسدأ فى الغظم فلا تمضى ساعة حتى يتم
القصيده (١) ..

وكان يعمل فى رواياته الاربع : قهيز وعلى بك البخيلة وهدى فى وقت
واحد ويشهد الدكتور طه حسين بأن شوق أدخل فى اللغة العربية وفى الشعر
العربى خاصة بهذه الروايات فنا جديدا لم يسبقه أحد اليه وهو فن التمثيل
الشعرى .

خرج شوق من القفص الذهبي عند ما قال قصيدته التي نفي من أجلها ..

(١) وصفه أحد أصدقائه بأنه كان يفيض فى شئون من يجالسون معه « حتى نحسبه
أحدنا . ثم ينقطع كل هذا فجأة ويرجع الى نفسه فيصبح ليس معنا فهناك تسمع غمغمة كلنا
آتية من غور بعيد ثم لا يزال بعد ذلك يمسح على جبينه يده ثم يهب واقفا ويتركنا من
غير أن يتسم أو يسلم .

ولم يعد اليه مرة أخرى ولعل قصائد شوقي عن المنفى هي أصدق قصائده
تصويراً لا حساسة ومن أدقها تصويراً قوله :

يا ابنة اليم ما أبوك بخيل ماله مولعا بمنع وحبس
احرام على بلابه الروح جلال للطير من كل جنس
كل دار أحق بالاهل الا في خبيث من المذاهب رجس
وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتني اليه في الخلد نفسى
ويصور انقباض الناس عنه قبيل منفاه :

شكرت الفلك يوم حملت رحلى فيا لمفارق لشكر الغرابا
فانت أرحتى من كل أنف كأنف الميت فى النزع انتصابا

أضف إلى ذلك قطعته النثرية عن قنال السويس فهى فيض نفس ملئت
بالاسى والحزن والشعور بالظلم .

وقد سبق شرقى اترابه حافظ والباروى بالشعر الغنائى والمسرحى الذى
تفرغ له فى آخر أيامه .

ويلتقى شوقي مع الباروى فى الاتجاه الروحى فكلاهما قد نظم برودة
البوصيرى وصور عاطفته فى حب الرسول .

وكان حافظ وشوقي فرساناً رهاً . فقد ظلا يتصارعان حياتهما حتى إذا
جاء الموت ، قضيا فى عام هو عام ١٩٣٢ الذى غيب الشاعرين فى التراب .

وكان حافظ يحس بقوة شوقي وعظمته فيذعن ويبايح له فى مهرجان
(٢٩ ابريل ١٩٢٧)

أمير القوافى قد اتيت مبايما وهذى وفود الشرق قد بايعت معى
فلما توفى حافظ فى حياة شوقي نعا على هذا الاسلوب من الإيثار

قد كنت أؤثر أن تقول رثائي يا منصف الموتى من الأحياء
واتصل شوقي وهو في المنفى بحافظ بقول :

يا ساكني مصر انا لانزال على عهد الوفا وإن غبنا مقيمينا
فرد عليه حافظ بقول :

عجبت للنيل يدرى أن بلبله صاد ويستقى ربي مصر ويستقينا
... وكاننا مع ذلك مختلفين أبعد اختلاف . كان منجهما متباينا . أما
حافظ فكان في أول أمره قويا غاية القوة ، كان شاعر الشعب والمجتمع
ولما عاد شوقي من منفاه تحول ومضى يخطو في قوة ويقفز . حيث بقي حافظ
جامداً . والتهم شوقي في منفاه كل آثار العرب ولم يدع كتابا لم يقرأه .
فاضأ ذلك الى شخصيته الادبية قوة عارمة . في الوقت الذي كان حافظ
يقضى ليلاليه سميرا يتوسط المجالس وينثر الفكاهات والأحاديث . وبيته
لامكتبه فيه الا بضعة أجزاء من الأغاني . وإن ظل حافظ يبهز الناس
بطريقة لقائه ضيف الى معانيه قوة . وروعة بصوته المليء ونبراته الجهورية .
يقول المازني : وأنا أعتقد أن شوقي مدين لخليل مطران بأكثر مما يعرفه
الناس — ولا سيما في صدر حياته — فإن خليل مطران هو أول من أدخل
شيئا من التجديد على الشعر في مصر وتبعه شوقي حيناً ، وروى طاهر الطناحي
أن حافظ قال في بعض مجالسه : والله أن لشوقي لشاعر وأنه لا شعر مني .
أقررت بهذه الحقيقة في شباني وكهولتي . ولا أريد أن أكفر بها في شيخوختي .
وقد وصفه الموسيقار محمد عبد الوهاب بأنه كان مرهف الحس لدرجة أنه
يشعر بالكوارث قبل وقوعها فيدخله الخوف . فمثلا كان لا يعبر طريقا إلا
إذا كانت السيارات القادمة تبعد بمسافة كبيرة . وكان أيضا يخاف الناس

فاذا اندفع اليه شخص ارتعش واضطرب ، ويضاف إلى هذا أن شوقي كان يحب الحياة حب جما ويكره الموت ويخافه .

* * *

وبعد فقد كان شوقي يغار على شعره وبكره النقد وينفر منه وله في ذلك قصص ويبدو أن هذه كانت طبيعته .

وقد حمل عليه العقاد والمازني وطه حسين . ثم تحول المازني وطه عن رأيهما وبقى العقاد على رأيه . وهاجم هيكल شوقي بعد أن كتب مقدمة الشوقيات وهو بهذا الهجوم قد تحول عن رأيه إلى ما أعلنه في المقدمة .

وغاية القول أن شوقي جمع في شعره بين النواصي وللتنبي على فترات حياته في شبابه والثاني في شيخوخته . محاولا أن يكون شاعر الحكمة وشاعر الحب والجمال ولكنه مع ذلك كان نسيجا وحده يمثل عصره وشخصيته . ولقد اتبع اشوقي بعد وفاته أن بمعن في السير قدما في طريق الخلود بعد أن جرى مجرى الغناء وانتقل إلى الآلة التي لم يكن من اليسير لها أن تطلعه أو تلم به في دواوينه .

وقد أكسب هذا شوقي بعد أن أمعن في طريقه إلى جوار الله بريقا ولعبانا أضفيا على فيه قوة جديدة ومهد له سبيل الخلود على نحو لم يكن ميسورا في حياة الشاعر .



الشاعر ولد على ضفاف النيل عند ديروط . وعاش حياته أعزبا منطويا على نفسه في دار الكتب عشرين عاما بعد أن عاد من السودان . كان خلالها مقيدا بقيود الوظيفة لا يستطيع أن يقول أى شئ

نشأ في بيئة شعبية ، ومات والده صغيراً ، وذاق طعم البؤس واليتم والخصاصة ردحا من حياته .

عاش (١) حياة الناس واضطرب في ميثاقهم . وخبر آلامهم واحزانهم وخفق قلبه الرقيق لهم .

ولد وفي نفسه تلك الجذوة الشاعرية الملهمة الفياضة ولكنها ظلت خافتة نائمة لأنه لم يكن قد آن وقت ثورتها . وأغلب الظن أن حافظ قد حبس لها وجمع

(١) جريدة القاهرة ٢٩ سبتمبر ١٩٤١ عن مقال للتأليف

ما صادفه من الوان التأمل والدرس في أناته واصطبار .

وظل هذا الشاعر الصامت ينازع نفسه غايات الحياة وأسباب المجد وينفر من السودان والحرب والجيش . ويود لو تهيأ له أن يعود إلى مصر وهو في حنانه وشوقه وانزعاجه وثورته إنما كان يرسم الخطوات الأولى نحو ذلك المجد .

وقد اتصل حافظ في حياته برجلين كانا من كبار الرجال في عصره هما محمد عبده وسعد زغلول .

واستمرت صلته بالشيخ عبده طويلا . وكان قد كتب اليه من السودان يطلب منه أن ينقل إلى القاهرة بعد أن ضاق بالغرابة . ثم ظل متصلا به أربعين عاما . وقد أثر عن الشيخ عبده قوله انني صحبت حافظ أربعين عاما فلم استطع أن أهديه ولم استطع أن يضلني .

ومعنى هذا أن حافظ على صلته القوية بالشيخ عبده لم يتأثر به ولم يستفد منه . وفي حياة حافظ عقدة غير واضحة . ولم يستكشف بعد . فقد كان نواسيا إلى أبعد حد . وقد حوى ديوانه بعض قصيده في مناجاة الغلبه والخمر . وقيل انه تزوج ثم طلق بعد أربعين يوما وعاش بعد ذلك أعزبا ما بقي من حياته .

فاذا أردنا أن نعرف أثر المرأة في أدبه وفي حياته شق علينا ذلك ولم نجد السبيل اليه إلا في بعض أبيات كان يفتح بها قصيدة وفق ذلك الأسلوب التقليدى في الاستهلال بالنسيب .

وبعد هذا الجانب من أغمض الجوانب في حياته . ولم يتناوله أحد من الذين كتبوا عنه ولم يلق عليه أى ضوء حتى ليتمكن القول بأن حافظ كان بعيدا عن محيط المراء وانه لم يعرف الحب ولا هذا اللون من العاطفة . ولعل مرجع هذا الضيق والبؤس واضطراب الأعصاب يكون نتيجة لهذا

* * *

وقد وصفه عبد العزيز البشري (١) بأنه خفيف الظل عذب الروح حلو الحديث حاضر البديهة رائع النكتة ، اذا كتب لك يوما أن تشهد مجلسه أخذك عن نفسك حتى ليخيل اليك أنك في بستان تقطعت جداوله . وهتات على أغصانه بلبله .

« وهو أجود (٢) من الريح المرسلة ، ولو أنه ادخر قسطا مما أصابت يده من الأموال لكان اليوم من أهل الثراء على انه ما قفى طوال أيامه يشكو البؤس حتى إذا طالت يده الالف جن جنونه أو ينفصها في يوم إذا استطاع . . ثم هو ما برح يطلب البؤس طلبا ويتفقده تفقدا ...

« وهو ضيق الطعن قليل الصبر سريع الغضب . له صوت جهير ضخيم ، رائع المقاطع فاذا هو وقف ينشد الجماهير هزها هذا ورفع بالترتيل حظ الكلام درجات على درجات .. »

ويرى خليل مطران أن حافظ يجيد الرواية من قصائد العرب وإذا فاته الابتكار في المعنى فانه لا يفوته في التصوير . « وهو مؤثر في شعره السهل الممتع . وقد اتخذ أسلوبا جعل الشعر قريبا إلى اذهان الجمهور وأزواقه وشعره هو شعر البيان الناصع . »

وقد وصف نفسه بقوله « هناك عوامل تجعلني أجيد الشعر وهي أن أكون في حالة من الشجن تجاوز الحزن أو أكون متعجلا مضطرا . أو أكون في أرق . أما الصفاء والأنس والفرح والسير في الرياض وكنت الماء والشجر

(١) توفى حافظ في ٢١ يولييه ١٩٣٢

(٢) روى مطران في الهلال أن حافظ كان كريما في بيته ، مضافا .

فيحدث في نفسى حالات لا توانى على النظم . فانا لا أجيد القصائد في التهاني
نفسها إلا وانا حزين . وإني أو من بأن لكل شاعر شيطانا لأنى أكاد اسمعه
يهمس في اذنى المعنى وأحيانا ينصرف فيغلق على . وأنا أقيد همساته . بيت
أكتبه في القهوة واخر أكتبه وأنا بالقطار وآخر وأنا أحادث الأصحاب .
وأكبر عوامل الافساد للشعر أن يطلب منا الشعر .

وأحب قصائده إليه غادة اليابان وقصيدة أوجيني وذلك لسهولة
لأن السهولة عندى مبدأ من مبادئ الشعر وكثيرا ما يخطر لي المعنى الجليل
فاتركه لأن الألفاظ لا توانيني .

وكان يردد أمنية غالية اذا هيء له العمر . ان يحذف من ديوانه الشعر
التجارى فهو كان يعترف بأن في شعره جانب غث يجب أن يطويه عن الناس
وكان أفضل الشعراء عنده أبو نواس . ثم البحترى وأبو تمام
« واست أحب المتنبي ولكنى احترمه وأخذ البحترى بالخصن . وأحب
الجاحظ وأحب الأغاني » وقد حفظ في شبابه قصة عنبرة التى يرويها شاعر
الربابة . وحافظ قصيدة في ثلاثمائة بيت انشأها فى هجاء صدقى وعنده لم
يعثر عليها كاملة .

ويلتقى البارودى مع حافظ فكلاهما دخل المدرسة الحربية وانتضى السيف
وأحب الشعر وأوغل فيه . غير أن البارودى اشتغل بالحرب فكان جنديا
شجاعا عاملا . وظل كذلك إلى آخر حياته . أما حافظ فقد هجر الجنديّة بعد وقت
قصير وآثر عليها حياة الموظفين في نوادى القاهرة وسهرات قهوة متايا مع
نرجيلته .. وهو يرسل حديثه ونكاته مع عبد الحليم المصرى وأمام العبد
وعبد العزيز البشرى .

ويختلف البارودى عن حافظ في أنه اشتغل بالسياسة . وكان معروفا بالدهاء .

كما اشترك في الوزارة وشهد ثورة عراقى وهو القائل . .

وانى لامرؤ لولا العوائق أذعنت
اسلطانه البدو المغيرة والحضر
من النفر الغر الذين سيوفهم لها فى حواشي كل داجية فجر
إذا استل منهم سيد غرب سيفه
تفرعت الافلاك والتفت الدهر
وهما متفقان بعد ذلك فى إثبات الجزالة والاعجاب بالعبارة والعناية
بالصيغة .

وقد كان حافظ قليل الحفل لشهره مبشرة . ملول الطبع مشقت الأوزان
والقصائد ويغلب أن مصدر ثقافته هى تجاربه فى الحياة ودراساته وتأملاته .
وقد كان يشعر بالغربة وهو على ضفاف النيل :

أيها النيل كيف نمشى عطاشا فى بلاد رويت فيها الأناما
يرد الواغل الغريب فيروى وبنوك الكرام تشكو الأواما
إن لين الطباع أورثنا النذل وأغرى بنا الجفافة الطغاما
وقوله فى أكثر من موضع يصف هذا اللون من البؤس القائم الذى يلم
بنفسه بين حين وحين . ولعل مصدره انصراف حافظ عن الحياة الوجدانية
فى محيط الحب والمرأة .

والليل أرشده أبوه لشقوتي وكذا البنون على هوى الأبناء
عين مسبهه وقلب واجف نفس مروعة وجيب خال

ويختلف حافظ عن مطران الذى كان المجدد الأول فى الشعر العربى
الحديث هو الذى دفع حافظ وشوقى إلى التحول والتأثر .

ويلتقي حافظ معه في أنه لم يتزوج .. وإنه كنه التقاء في المظهر لا في القلب .
لقد أمسك مطران عن الزواج مخلصاً لذكرى حب كان حب حياته كلها ومصدر
الهامه في شعره . وقد ماتت عذراء وهي صاحبه ولم يعرف قلبها حب إنسان
غيره فقد صدم في آماله وحبه في أوائل العقد الرابع من عمره .

ويخيل إليك عندما تراه ، إنه أدرك جميع حقائق الحياة فاستوى عنده
حلوها ومرها . وهو يلتزم أعداء المخطئين قبل حسابهم عليها . يفضي عن
الاساءة ويتناسى الهفوات . ولا ينسى صديقه وإن طال بينهما الفراق .
ويقول مطران : إنني أنظر إلى العالم على أنه مسرح يتداول الممثلون الظهور
فيه فأنا أشاهد كل ممثل . واسمع كل ما يقال . على أن استخلص من ذلك
ما شاء لي من العبرة والأسوة .

ولقد أحب هذا الرجل النحيل الضامر حباً واحداً عشرون عاماً كاملة :
أحبك حتى لا سرور ولا منى ولا شمس إلا أن أراك ولا نجما
أحبك حتى ينكر الحب رسله جميلاً وقيساً والذين استشهدوا قدما
ولو لم تكن في الموت سلوى أخافها لا حببت حتى الموت فيك ولو ذما
وقصيدة منديل الحبيبه تكشف عن هذه العاطفة الحارة :

أعداها المنديل ذكراً محبباً	وانطق به الطيب الذي فيك مطرباً
فما بك من نشر في القلب مثله	طواه الهوى قدما وما زال طيباً
ولم عرضت لي غانيات فغففتها	وصننت ضميري واللسان المشيباً
ولم بلد وافيتة متلبها	فما درته أدمى فؤداً وأكاباً
ما زال هذا الحب في مؤيداً	مكيناً نبت عنه السنون ومائناً
مازلت يا منديل ليلى ملازماً	تنشقني الذكر نسيماً مطيباً

وأمنية مطران : الحياة إلى الساعة الأخيرة من العمل . والموت متى
جات . ساعته بلا وجل .

* * *

وهو هند طه حسين زعيم الشعر العربي المعاصر واستاذ الشعراء
العرب المعاصرين — لا يستثنى منهم واحداً ولا يفرق بين المقلدين والمجددين
وانه حمى حافظ من أن يسرف في المحافظة وشوقي من أن يسرف في التجديد
وصف مطران دوره في التجديد (الهلل — نوفمبر ١٩٣٣) وأردت التجديد
في الشعر منذ نعومة أظفاري . ولقيت دونه ما لقيت في عنف ومناوآه .
وليس هنا محل وصف الالام التي عانيتها للبواعث التي انبعثت منها نوازع
الذين حاولوا قطع السبيل بضع سنين .

« . . . وعدت إلى الشعر وقد أنصج الفكر لى طريقة في كيف
ينبغي أن يكون الشعر فشرعت انظمة لترضيه نفسى حيث اتخلى . أو اترية
قوى عند وقوع الحوادث الجلى . متابعا عرب الجاهلية في مجراه الضمير على
ومراعاة الوجدان على مشتهاه موافقا لإزمانى فيما يقتضيه من الجرأة على
الألفاظ والتراكيب .

لا أخشى إستخدامها أحيانا على غير المؤلف من الاستعارات والمطروق
من الأساليب . وذلك مع الاحتفاظ جهدى بأصول اللغة وعدم التفريط فى
شئ منها . . . وقال مطران فى حديث له (١) . إنه عزم على مفارقة الشعر إذا
لم يتأ له فيه مذهب جديد . وظل يجاهد حتى تحقق له ذلك .

وقد اتفق لحافظ ومطران أن يترجما الاثار الغربية فترجم حافظ البؤساء
وترجم مطران روايات شكسبير .

(١) مجلة كل شئ : ٨ ديسمبر ١٩٢٩ .

وهنا يبدو مدى الفارق بين حافظ وشوقي ومطران وقد جمعهما الزمن في
في جيل واحد. كل له طابعه وطريقته وحياته الخاصة واتجاهه الشعري .
ومعالمه النفسية الواضحة .

ان مطران هو أوضحهما من ناحية الطبيعة النفسية فمقد كان حبه واضحا
واتصاله بالمرأة بارزا في صسرة قوية رائعة .

وعاش حافظ بعيداً عن هذا الميدان يطوى أيامه وفي نفسه ذلك البؤس
الذي ما أظن أن مصدره الا خلو حياته من المراه التي كان يمزف عنها .

الزهاوى



قد انى يامنيتى أن تعودى بي إلى ما كنت قبل وجودى
 ليس من هذا الموت يا نفس بد فهو للناس من تراث الجدود
 يا امانى فارقينى ويا نفس وداعاً ويا حشاشه جودى
 لا تخافى على فالموت سهل لا كما ينعتونه بشديد
 لا تخافى فالموت ليس على الأرض ولا فى سماها بجديد
 لهف نفسى على صبابه عيش لولاك لم يكن برغيد
 لست أدرى اللغناء ستمضى بعدما نموت أم للغسلود
 إننى فى شك وإن ملأً وسمعى بوعد يروونه ووعيد
 ولعل الصبا تمر رغاء فوق ملحودتى فتعش عودى
 لا أنيس ولا نسيم ولا نور يزيل الظلام من ملحودى

يوم لا تبصرى الربيع ولا تصفى لانغام البلبل الفريد
 يوم لا تطلع النجوم علينا باسمات من السماء كخود
 يوم لا يسفر الصباح لنا من جانب السماء قائما كعمود
 يوم ايدى الردى تجردنى من كل مالى من طارف وتليد
 هذه الآيات من قصيدة « احساساتى » التى كانت آخر ما نظم الزهاى
 قبل موته (١) ترسم صورة هذه النفس المتمردة الثائرة التى عاشت حياتها لا تبالى
 القيود ولا التقاليد وتحلق فوق الزمن وتسبق الأيام .

هذا الشاعر الثائر ، الراغب الى التجديد المتشائم الفيلسوف الذى يقف
 من مصائر الحياة والأمور موقف التشكك هو تليد صريح للمعرى ..
 وقد سبق زمانه بوقت طويل . فعاش غريباً وأثار عليه المحافظين ورجال
 الدين . ولكنه هز الحياة فى العراق والشرق هزة عنيفة وكان فيما انشد
 ونظم يصدر طبيعه حساسه قوية . امتزجت بها تجارب واسعة واتصالات
 مختلفة بالاتراك والاستعمار .

وقد عرف عنه أنه لا يجرى مع التيار ويجهز بالكلمة التى يؤمن بها
 حراً لا يبالى . وظل إلى شيخوخته حار القلب متدفق العاطفة . وخلا شعره
 من قصائد المديح أو الرثاء أو مناسبات الصالونات التى عرفت عن شعراء
 مصر :

وتبدو فلسفة القوة واضحة فى شعره :

ليس الحياة سوى نزاع دائم يا للضعيف به من الجبار
 يا شيب لستم للوعى فأنخروا وبدار يا شبان ثم بدار
 القوا القديم وبالجديد توشحوا حتى م تختالون فى الاطمار

(١) توفى فى ٢٣ فبراير ١٩٣٦ .

وتحرروا من نير كل خرافة خرقاء تلقى الزيغ في الافكار
وتحرروا من قيد كل عقيدة سوداء ما فيها هدى للسارى
أمن اكتفى بخرافة فهو مؤمن ومن امترى فيها من الكفار
ولدى النهاية جاهل في جنة فيها النعيم وعالم في النار
وقد دافع عن حرية المرأة بقوة :

كان الحجاب يسومها خسفا ويرهقها عذابا
إن الالى قد اذنبوا هم صيروه لها عقابا
وسيطلب التاريخ من ناس لها ظلوا حسابا
وقد وصف الزهاوى نفسه ورسم الخطوط الرئيسية لحياته وكلمها تعطينا
الدوافع لاتجاهاته الثائرة التى وصفت بالانحراف .

« كنت فى صباى اسمى المجنون . لحركاتى غير المألوفة . وفى شبابى
الطائش ، الخفتى . وايقالى فى اللهو . وفى كهولتى ، الجرىء ، لمقاومتى
الاستبداد وفى شيخوختى ، الزندىق ، لمجاهرتى بأرائى الفلسفية ،

وقد بدأ حياته بنوع من الاضطهاد لعله بعيد الأثر فى حياته ، كانت
والدق تعيش مع أولادها فى بيت منعزل عن بيت والدى . فزغنى والدى
من أحضانها دون إخوتى وأخواتى . وأخذ على عاتقه أن يربى تربية خاصة
مشعباً هواه . وكان من هواه الأدب .

« وكان يعدنى بدرهم إذا نظمت شطراً واحداً من الشعر ،
وكان عنيداً ويروى هذا الحوار الذى جرى بينه وبين والده وهو فى
يافع صغير .

— البس يا جميل عبائك فانى أخاف عليك البرد —

— يا أبي إني لأبس العرقه . فمن أين يقترب البرد

وعرف في صباه بهواية تطهير أسراب الحمام في الهواء والولع بركوب الخيل .

وقد كان أبرز كفاحه السياسي الذي سبب له المتاعب مطالبته بالدستور . ومقاله في المؤيد عن حق المرأة حيث دعا إلى حريتها عام ١٩٠٢ ونشر هذا الشعر في ذلك الوقت البعيد الغائر في الجلود .

مزقي يا ابنه العراق الحجابا واسفري فالحياة تبغى انقلابا
مزقيه واحرقيه بلا ريث فقد كان حارساً كذاباً

وتعد هذه القصيدة هي ذروة ثورته على الجلود . وعلى أثرها واجه أقصى حمله حتى أن البعض طالب باباحه دمه .

وكانت كتاباته وأشعاره مبنية على الحدة والحماة لا على الدرس العميق أو حتى الاستكناه الدقيق .

وقد كان نائباً في البرلمان العثماني في استانبول . وأستاذاً للفلسفة في الجامعة التركية . وقد اتهم بالحاد . وانشد أبا الهدي الصيادي قصيدة في ذم عبد الحميد فسجن .

ويصف أخرج ساعات حياته بأنها دلتا سجنتي السلطان عبد الحميد ، وارجعني إلى بلادى مخفوراً ذليلاً جزاء اتفاقى مع الأتراك الأحرار في طلب الدستور وكذلك يوم هاج الشعب العراقي على لمقالة شديدة نشرها في المؤيد في الدفاع عن المرأة حتى إني قبع في داري أسبوعاً لم أخرج منها خوف اغتيال الشعب لي وعزلني يومئذ والى بغداد ناظماً باشاء من وظيفتي في مدرسة الحقوق . .

وكان قد سافر إلى استانبول نائباً عن لواء المشفق . وكان لصلته بالصحافة

في مصر أثرها في تخفيف اضطهاده . فان بطاقة من جريدة المقطم حالت دون نفيه إلى الهند .

مزيه وبمد ذلك أيضاً مزيه حتى يكون هبابا
بزاعيه بقوة وطئيه واجعل في فم الخيق يرابا
وقد اضطر في أبان محنته إلى بيع معظم كتبه . ثم هاجر إلى سوريا
ومصر وظل في معارضته لحكم عبد الحميد يوالى انشاء القصائد في هجائه .

وعند ما عاد إلى العراق وكانت الظروف قد تغيرت وعزل عبد الحميد انقطع
عن التدريس للشعر ولكنه ظل سابقاً لعصره متما بين أهل جيله وبلده
بالزندقة والجنون والإلحاد ، فقد عاش في تلك المرحلة المضطربة من حياة
البلاد العربية عند ما كان الصراع بين القديم والجديد . والحفاظة على الماضي
والاندفاع نحو الرب قائماً . وكان يريق الحضارة قد بهره فاندفع يدعو لها
بقوة ولكن الزهاوى على هذا الاتجاه الفلسفي في شعره وتقليده للبري
لم يخلق مذهباً شعرياً معيناً . ولعله في نظري أشبه بحافظ . يقول الشعر ثم
يدعه مهملاً ولعل جنوحه إلى مثل هذه القوضى والاضطراب ناتج عن
وراثيات مضطربة وأعصاب مجهد .

وقد منحه العمر الطويل وتقلب الزمن حيث عاش إلى سن السبعين
مسحة من القداسة الرائعة خاصة بعد أن تخطت العراق مرحلة الانتقال
الثقافي والاجتماعي وعين عضواً في مجلس الشيوخ .

ولعل دفاعه عن حرية المرأة متصل إلى حد كبير تأثر المرأة في حياته
وفنه وقد أثرت عنه في أبان إقامته في استانبول مغامرات وضيئة حيث
أطلق لهواه العنان بعد أن فارق بيئة العراق حيث كانت التقاليد والكبت
تصاحبان حياته منذ أول الشوط :

ولكنه على ما طبع عليه من قلق لم يعرف الحب المديد أو يألف العشق
الظويل المدى .

ويبدو أن الزهاوى في الحب اشبه بشوق فهو على طبيعته المتكبرة
لا يصل إلى اعماق الحب ولا يسبر غوره . وهو ليس من الروحيين الغزليين
وأقرب إلى الواقعية الآدمية ولا تجد عنده تلك الحرارة الدافئة في العاطفة .

نظرت إليها وهي تخطو كأنها غزال يمشي من الروض يمرج
وتحسب ماس القرط نار حباج على متلع من جيدها تتوهج
ولا صبر حتى يمسك القرط رجفة باذانها أو قلبي المبهج
ولعله هنا لم يسبق عصره وإنما استجاب للعاني التي تفرضها البيئة
المحافظة والفهم الغائر في القدم .

ولعله وجد في مصر أيضاً سبيلاً إلى عاطفه أو حب . وهو في كل أحواله
عن المرأة والدعوة إلى تحريرها ليس الا داعية بالتعلم إذ أنه لم يستجب لذلك
في حياته الخاصة . فقد كان الزهاوى زوجاً وكانت زوجته متحجبة . وقد
وصفت هذه الحياة بأنها كانت هادئة مرضية لنفسه .

وقد تزوج الزهاوى في سن مبكرة وأمكن أن تهىء له زوجه أسباب الراحة
النفسية على ما به من شذوذ . إذ كانت خير معزلة في المحن الفكرية
والسياسية التي تعرض لها . وفي خلال سنوات مرضه بأعصابه . وغاية القول
أنها كانت تعنى به عناية الأم بطفلها وتهتم بهندامه وتنظيم مكتبه وقد سافرت
معه إلى إيران فقيه إلى مصر وسوريا .

ومن أبرز معالم حياة الزهادى الخاصة أنه لم يرزق أبناء ولعل ذلك كان
مصدراً من مصادر اضطرابه النفسى .

وأبرز معالمه النفسية خوفه من الموت ومداوره معانيه :

ما الذ الحياة لو هى دامت غير أن المنون بالمرصاد
وكان يربط بين حياته وشعره ويراه كل ما يملك فى دنياه :

أنا بالشعر وحده متمسك إنه كل طارفى وتلاذى
وإذا وافقه المنية قبلى فاحفروا حفرة له فى فؤادى
وإذا مت قبله فهو يرثينى لو ظل حافظاً لودادى

وقد وصفه بعض النقاد بأنه ناظم وليس شاعراً وقال عنه الناقد يوسف
جورج أنه ليس شاعراً ، إذ أن الشاعر يعتمد على العاطفة والخيال قبل العقل .
والزهاوى كان لا يبالى بالعواطف والخيال أبداً . ومن يقرأ شعره لا يرى
فيه إلا حقائق تعتمد على العقل قبل أى شئ آخر ولم يستطيع أن يكسيها
بوشاح من الروح الشاعرة على الرغم من محاولاته العديدة فهو ناظم وليس
بشاعر .

* * *

وتقتضينا دراسة الزهاوى أن نتحدث عن رقيقه الرصافى . وقد كان
أشبه بحافظ وشوقى فى مصر تنافساً وصراعاً فى ميدان الأدب .
وليس شئ اتهم به الزهاوى يمكن أن يخلى منه الرصافى فقد اتهم
بالكفر والزندقه أيضاً .

وقد كان جريئاً فى المطالبة بالسفور ومهاجمة المحافظين والمتعلمين بالشرعية .
وقد تزوج مرة واحدة أثناء إقامته فى تركيا . وطلق امرأته بعد فترة وجيزة
كما فعل حافظ . ولكنه كان محباً رقيق العاطفة جياش القلب :

وقفت عليكى قلبى الذى يمر به الحب مر السحاب
فمنكن أحببت هدى وتى والقيت عذاباً يكن العذاب

فمنكن بيضاء ما فلبها دما حمرة الخد إلا التمر
فتلك التي طاب لي وصلها كما ليلة البدر طال السحر
ومنكن حمراء جذابة حكى وجبها الشمس عند الطلوع
أرى عينها وهي خلابة فامسك بالكف مني الضلوع

وهذا الحب هو حب نوعي جذى لا يمثل المعنى الفلسفي الروحي ولم
يعرف عن الرصافي أنه أحب حباً واقعياً واحداً . وإنما هو يرسم لوحات
للجمال الذي يشاهده أحياناً في المرقص . وله في ذلك غنزره وغنزر الأدباء
في عهده سواء في مصر أو في العراق فقد كانت المرأة محجبة ولم تكن
يرى إلا في هذه الملاهي . ولذلك فهو يتحدث عن المرأة كامرأة وليست
كلمة .

ومنكن طراً بوادي الهوى أهيهم وإن لم تعد عائده
إلا أن حباً بتلي انطوى كثير فلم تكفه واحدة
فالله ما قد عجن لي من صبابه الفت بها طي الضلوع دلي الجبر
وارسلت قبي نحوها مشيعا فراح ولم يرجع إلي حيث لا أدري
إتها حواء أينما ذهب تأخذ قلبه .

وتعرض الرصافي لحقد السلطات العثمانية والانجليزية نتيجة لحرية رأيه
وقامى شظف العيش أياماً طويلة حتى اضطر إلى أن يبيع السجائر في دكان
صغير . ولكنه عاش عزيز النفس . يكره المال ولم يمنه هذا من التكسب
بشعره وقد صور آلامه ومأساته في هذه الصورة .

قد رقت ثيابي اليوم حتى تكاد تذوب من مس الهواء

عذت شفاه حتى كآني لبست بهن أثواب الرياء
وقد اشتغل الرصافي^(١) في مستهل حياته بالتدريس . وعندما شبت
الثورة في تركيا ضد السلطان عبد الحميد لأجل الدستور كان الرصافي أول
من غذى هذه الثورة بشعره .

وقد اضطر تحت ضغط الاضطهاد أن يترك العراق .

عُتبت على بغداد عتب مودع امعنيه قها الحادثات قراعا
اضاعتني الأيام فيها ولو درت لغز عليها أن أكون مضاعا
وحمل الرصافي كاحل الزهاوى على التخريب الديني والتعصب المذهبي إذ
كانت البيئة العراقية تذخر إذاك بهذا اللون من الجمود .

وقد خلف الرصافي بغداد فترة طويلة سافر خلالها إلى الشام ومصر
وتركيا وأقام في اسطنبول ثم عاد إلى العراق ١٩٢١ حيث عمل مدرسا
بمدرسة المعلمين وانتخب في البرلمان العراقي ١٩٣٠ . وفي ١٩٣٧ انتزل
السياسة ومضى يقضى شيخوخة موحشة .

وترك الشاعر الرصافي عند موته وصية جديرة بالتسجيل قال فيها
كل ما كتبه من نظم ونثر لم أجعل هدفي فيه صفتي الشخصية وإنما قصدت
به منفعة المجتمع ، الذي عشت فيه والقوم الذي أنا منهم ونشأت بينهم .
لذلك لم أوفق في حياتي إلى ما يسمى بالرفاهية والسعادة في الحياة . لا أملك
سوى فراشي الذي أنام فيه وثيابي التي لبسها وكل ما عدا ذلك من الأثاث
الحقير الذي في مسكني ليس لي بل هو مال أهله الذين يساكنونني وكل من
اعترى لي في حياتي فهو في حل مني . وإذ كان هناك من اعتديت عليه أنا
فهو بالخيار . إن شاء عقاغي وإلا قضى بينه وبينى الذي هو أحكم
الحاكين .

(١) ولد عام ١٨٧٥ وتوفي عام ١٩٤٥ .

على أدهم

عنيت (١) منذ وقت بعيد بأن توجع النهضة الأدبية وتشعل النار المقدسة. وترد عن الأدب عادية الصحافة ، والجحود والاسفاف .. وكانت « الزمان » قد افردت الأدب مكاناً مميزاً . وقد رأيت وأن لسبيل هذا الكفاح استنهاض الأدب من عثرته . بعد أن طغت عليه موجات السرعة والسياسة والتعبير الصحفي وأدب الساندريتش والطناطيق .. إن أذكرك بامر هذه الطائفة من كتابنا وأدبائنا الذين هجروا ميدان الأدب أو كادوا .. في ولست أشك لحظة في أن الأدب في مصر لا يعز أصحاب الأقلام وأصحاب المثل العليا على أن يعضوا في طريقهم . ولكن متى كان المفكرون والأدباء إلا ضحايا على مذهب الفكر الخالد . ومتى عرف الناس قدر الأدباء العباقرة والكتاب الافذاذ إلا بعد أن يوارىهم الزرى ويطويهم الموت .

خذ مثلاً الأستاذ على أدهم . هذا الكاتب الذى تراه حين يطالعك فى أناره وكتبه وقد أخذ بزمام نفسه . وملاً إهابك بروحه الفياضة . ومضى

(١) نشرت هذه المقدمة فى جريدة الزمان ١٩٥١ فى كلمة موجهة إلى الأستاذ

محمد على غرب *

بك إلى غايته وأنت مهوور مأخوذ أقمد كتبت في مذ كرتي الجامعة عن « على
ادهم » منذ خمس سنوات « ليس من الكتاب الذين يتحدثون عن أنفسهم .
تبدو في دراساته روح المثالية . وخصوصية الثقافة وجودة لغرض كاتب
مقل ولكنه عميق . تستطيع أن تمضي معه دون أن تصدمك منه بادرة ما .
تجده مقبلاً على فكرته يبسطها في رفق ويكشف عنها في هدوء .

وهو معنى بالنفس الإنسانية والبحث في اغوارها . واوض في اسرارها
والكشف عن غوامضها . وهو دائب التطلع إلى ما وراء الأشباح
القائمة . فيه صوفية معتدلة . وفيه فلسفة غير معتدة وفيه ، مثالية
واضحة . وهو وسط على أى حال . لا تميل إلى التشكك الذاهب في دياجير
التشاؤم . ولا ينجح إلى السخرية المفرقة في التهمك .

لم يتجه على ادهم يوماً إلى ميدان الصراع الأدبي . ولم يدخل في مناوشات
أدبية أو خصومات فكرية . وهو رجل يغلب عليه الانطواء والهدوء
ولا يعنى بالهرج والزخرف ولا يطلع على الناس بالرأى الجري .
ولا بالفكرة الحادة ..

وبعد فعلى ادهم كاتب « موضوعي » مقل . يكتب في أوقات الصفاء .
ويتحيز أوقاته وموضوعاته . ويبدو من وراء إنتاجه أنه رجل منظم أنيق
وهو من الكتاب الذين يترقبون أوقات الفيض والوحى واعتدال المزاج .
وأنت لا تستطيع أن تقول عنه أكثر من أنه رجل باحث ألم المأما
واسعاً بالأدب الغربى الحديث وقرأ كثيراً من الأدب العربى القديم فتكونت
له تلك العقلية التى تتعرض للفضايا الكبرى فتبسطها فى يسر .

فإذا ذهبت بعد ذلك تسأل عن شخصية الكاتب . فانك تراء كأكثر
كتابنا أبناء المدرسة التى خلقت مدرسة الرواد . إن أغلب أبناء هذه المدرسة

يعملون في دور الحكومة . فقد كرهوا العمل الخالص للصحافة وأحبوا أسلوب الكتاب المؤلف عن المقالة الصحفية . والأستاذ أدهم أحد هؤلاء يعيش حياته الرتيبة العادية ، يقرأ ويكتب .

ولعله يصور نفسه في هذه العبارات الإنسان يريد أن يسيخبر كل مجبول . ويستبطن كل سر . وأن يسع عليه كل شيء فلا يجهل ظاهراً ولا خفياً . ولا تند عنه شاردة ولا واردة . ولكنه يرى قصر الحياة واستهدافها لسلطان المصادفة فيظهر له غرور المعرفة وخداع الأمل وعيب الطموح . ويستوثق أن مصير آماله الزاهية في الإحاطة الشاملة ، للأفول ، وأن ظمأه إلى المعرفة لن يرتوى لها غليل ، وأنه لن ينتهي إلى غاية مهما تمده له الأسباب .

وبعد فعلى أدهم قارىء مدمن . وأن يرى دائماً في المكاتب الكبرى في القاهرة يتطلع من وراء نظارته إلى رفوف المكتبات باحثاً عن كتب جديدة . وهو في هذا أشبه بصديقه العقاد ..

وهو من الكتاب الموضوعيين الذين يعجبون بالأدب الانجليزي . ويتصلون به اتصالاً وثيقاً وأسلوبه رصين متزن . سهل التناول . ولكنه قوى . وهو يعنى بتجويد أسلوبه . ولا يبتذله ، ولا ينزل به إلى المستوى الصحفي . وهو من أصحاب المذهب الارستقراطي في الأدب . وفنه الرئيسي « المقالة » ولم يشغل بالشعر أو القصة . وإن كان قد ترجم بعض التصص

وقد اتصل على أدهم بالعقاد ، حتى عرف في بعض الأوساط الأدبية بأنه من تلاميذه . وإليك عند ما قرأ أدهم وتراه يتميز بالشخصية الاستقلالية . فهو عزوف عن السياسة منذ شبابه وبذلك برى أسلوبه من عدوى « الهجاء » التي تميز بها أسلوب كتاب مصر الرواد الذين اشتغلوا بالسياسة . وهو من الكتاب الذي ينتجون في صمت ويعملون في هدوء وقد

أسامت إليه الصحافة إذ أبعدته عن مكانه الخليق به في الأدب . عند ما فتحت
الشهر الطاغية لكتاب الصحافة الذين تترد أسماءهم في كل يوم .

ولم يشترك على أدهم في سجال ما ، ولم يدخل في معركة أدبية . وبذلك
ظل بعيداً عن مجال المسرحيات الأدبية التي عرف بها بعض الكتاب .
وكانت سبباً في ظهور اسمائهم . وإن كنت أعتقد أن من مميزات الكاتب
القوى أن يكون مقتحماً وصوالاً . يستلوع أن يصارع ويتقاتل ويتعرض
للنقد ويدخل المعارك الحقة . ويهاجم الآراء الملتوية .

ولكن يبدو أن على أدهم تنكر هذا اللون من الصراع بطبعه ولما فيه من
مثالية إذ يرى أنه قلما يخلو سجال من غرض شخصي أو هدف ذاتي .

ولا نأخذ على « أدهم » إلا أن أدبه لا يكشف صورة نفسه ولا يرسم
مرآة لشخصية . فهو مؤرخ وعالم ذاهب في اعماق البحوث . ولذلك فمن
العسير تصوير حياته أو هواياته أو الأحداث التي أثرت في اتجاهاته .

وهو في هذا تخلف كثيراً مع زميله وصفوة عبد الرحمن صدقي الذي
يمكن أن تميل الجانب الوجداني الخالص في هذه المدرسة التي اتصلت بمدرسة
الديوان من قريب . فصدق يتميز بالشباب الذي يتفصد حرارة وحيوية .
والذاتية الأدبية بارزة في أدبه وموضوعاته . وقد كشف ديوانه « من وحي
المرأة » عن طبيعة شاعره وعن نفسه عاطفية تهتز للحب والموت .

سعيد العريان

« ... وهذا كاتب آخر قد اختفى أو كاد من عالم الأدب . منذ سنوات . قلم نعد نقرأ له كلمة في صحيفة سياره . أو نسمع عن كتاب جديد له تخرجه المطابع .

ويقيني أن الأستاذ العريان قد شعر بضعف تقدير البيئات الأدبية الأثر الجيد فأثر الانزواء واحتجب عن ميدان الأدب . وقد كان خليقا به الا يقهره شيء عن المضي في أداء رسالته في تجلية جوانب مصر الإسلامية بذلك القصص الممتع المجود . فهو كاتب جيد العبارة . صادق الاحساس . مصقول البيان . تشهد أثاره بمدى الجهد الذى يبذله فى سبيل استخلاص هذه اللوحات الفنية وإخراجها من بين صفحات التاريخ المبعثرة الضخمة . المتعددة الجوانب . المتباينة الألوان والأهداف .

وإني لأذكر يوم كان يكتب فى مجلة الثقافة بابه الأسبوعى الذى كان يوقعه بكلمة « قاف » ، والذى كان يصدره بكلمة « هذا رأيى وعلى تبعته وحدى » ، وإن أنسى فصوله فى الرسالة والثقافة وخاصة ما أرتبط بمأساته الخاصة ،

هذه كلمات نشرتها الزمان سنة ١٩٥١ وكنت قد تابعت العريان طويلا وشهدت المعركة التي كان يقودها بعد موت الرافعي . وعرفت صلته بالرافعي في هذه الفصول التي كتبها عنه والفصول التي كتبها الرافعي نفسه وكان هو « العقل الوسط » بينه وبين القراء . وأن يد العريان مع روح الرافعي هي التي قربت إلى الناس فصول وحى القلم بعد أن ظل الرافعي معتصما بلون من الأدب لا يقرأ إلا الخاصة .. ودحا طويلا من الزمن ..

ثم عرفت كيف اتصل العريان بالدكتور طه حسين . وظل مع مودته يحتفظ برأيه في الرافعي ويبقى له وهو في الوفاء مثل . وله بحديث الوفاء صله . فقد ماتت زوجته منذ سنوات . وقد عاش لا كراها وفيها . ولعل هذا من صفحات التاريخ الأدبي الباقية . فقد كتب بضع فصول عن هذه المناسبة على أثر مرور العام الأول على وفاتها تفيض بالحزن العميق والوعة المشبوبة والسكد المرق . وهو في هذا يختلف مع عبد الرحمن صدقي الذي تدفق الشعر منه بعد وفاة زوجته حتى كتب ديوانه في خلال شهرين . أما سعيد فانه لم يبدأ نوحاته إلا بعد عام كامل قضاه يجتر همومه وأحزانه .

لقد كانت — هي — نعمة من تلك النعم النادرة التي يسوقها الله لبعض الناس . زوجة المفكر الأديب حينما تكون هديا لروحه وضياءا لأيامه . تمده بالابداع الفني الذي يدفعه إلى مكان الصدارة .. ولكن مهلا فقد كان موتها أيضا من أجماد الأدب . لقد حمل سعيد أن يعكف على قراءة التاريخ القديم كله . يقضي فيه أيامه ولياليه . لينسى في أحداثه وقصصه هذه المناسبة فكانت هذه الآثار والروائع التي ألهمها من « على باب زويله » إلى « بيت قسطنطين » إلى « قطر الندى » إلى « شجرة الدر » أثرًا من آثار الحزن العميق والألم الممض والحب المحترق في قلب شاب كانت طبيعته المتدينة الخافتة . تقصيه عن ميدان المرأة .

وكذلك وجد سعيد الفه ، تلك النفخة الروحية الصادقة . ثم يلبث أن

فقدتها . فقدتها على حين شفة من الدهر . وبلا مقدمات . وتركت له ابن وبنت
ابن ولد لم يرمع الضوء أمه . وبنت ماتت أمها وهي لم تبلغ العام وتركت له
ألمها ومراره . . كانت فصول تحت الرماد بعض أثرها . فعاش سعيد
للذكرى .

* * *

ولد سعيد لأبيه وهو في سن المائة وفتح عيناه على تلك المكتبة الضخمة
الخافتة بكتب العلم . فامتلات روحه منذ ذلك الصبا الباكر بمعالم الروحية
الصادقة النقية ثم اتجه في شبابه إلى الدراسات الإسلامية التي تبلورت بعد في
فمه التخصصي الذي كشف به عن الجوانب الغامضة من فصول هذه الحياة .

وقد أحب الرحلات من صباه ، ودرس أثار مصر القديمة وبيوتها
ومساجدها ومقابرها وهي اقتحامات جريئة لم يبالى خلالها بالظلام ولا
بالوحدة . . .

وقد عرف سعيد بعزوفه عن الصحافة فلم تفتنه مغريات البريق الخاطف
تخلص أدبه من الميوعة والرخاوة . وهو إلى هذه المثالية عزوف عن المجتمع
حريص على برجه العاجي وافقه الخااص . يقرأ ويكتب ويعيش في حديقته
ينسق أزهارها ويحرق مياهاها . وتلك هي هوايته .

ويغلب على الأستاذ العريان الاتجاه التاريخي . فهو من هواه مزج
التاريخ بالأدب . وهو من المؤمنين بالبحث وتجلية الماضي الخالد . وإبراز
الإنجازات العربية والإسلامية . وقد قرأ تاريخنا الإسلامي باحثا فيه عن هذه
الجوانب الجديرة بالابراز والتخليد .

وهو يتخير أوقات الوحي التي تزدهى فيها القريحة وتشرق النفس وينفض
القلم ويتحرى أوقاته في الصباح الباكر والمساء المتأخر . ويجلس على مكتبه

ليس معه إلا قلبه وورقه الأبيض وعليه سجاثره يحرق دخانها فهو لا يستعين
بالمراجع ولا الجذاذات .

* * *

وبعد فهل يمكن القول بأن الحرمان كان هو مصدر إنتاجه :
... ها أنذا أقيم في هذا المكان منذ رماني القدر من بفتاته بمارى
متفرداً بأحزاني على حدود الصحراء . هذه النخلات بازائي . وهذه
النخلات من ورائي . وهذه الرمال . . حتى الفت مكاني . ما بالي اليوم
يعاودني حنين المغرب فيطوى بي الزمان والمكان إلى حيث يذكرني وما
نسيت . . وجلست وحدي في الشرفة اتطلع إلى السماء . وكم لنا في السماء من
غايات . وكم لنا عندها من ودائع . في مثل هذا اليوم منذ عام . لم أكن
في مجلسي وحدي ولم تكن نظرتي وحدي . ماذا أرى الساعة ومن ذا يراني
لا شيء ولا أحد غيري وغير أحزاني . واذن مؤذن الراديو في المنزل البعيد
خف كل صائم إلى مائدته وثقلت بي همومي فلم أغادر مكاني . ونظرت
نظره إلى الورا فثابت إلى نفسي . هذه ابنتي الصغيرة تدعوني إلى مائدتي وإلى
جانبا أخواها الصغيران . طفلة تستند إلى مهد طفل رضيع . هذه اسرقي
منذ اليوم . بل منذ أمس الذي كان .. وحسوت حسوة من دموعي ثم
هضت إلى المائدة . من أجل هؤلاء يجب أن أعيش . وخيم السكون على
الدار الصامته إلا صوت أب . يضاحك بنيه على المائدة . وإلى جانبه مقعد
خال . ومضت ساعة الغروب من أول يوم من رمضان لأحدث ولا مسامرة
ولا نحوى .. ولا نور . يا ليالي في رمضان فات . وفي رماضيين قبله
عليك وعليك . عليك اسكب أحزاني دموعا جافة لا ترطب وجنة ملتبهية
ولا تظني

هذا جو. من القصة . فحة النار التي تحت الرماد . وهذه صفحة
أخرى ...

« لقد كان لي ذات يوم تاريخ . وكنت في ذلك التاريخ شيئاً . أو لعل
قلبي هو الذي كان . فالיום وقد بلغ هذا القلب آخر قصته فان من حق هذا
التاريخ أن يكتب وأن يقرأ قارئه .

.. ولكن ما هذا الذي كان في حياتي ثم انطوى . أرايت لو أن حلماً
يجسد لذى عينين بشراً سوياً فيعيش كما يعيش الناس حيناً ثم يرتد إلى وادي
السكرى كما يتوارى الشعاع أو يختفي الظل — لو أن شيئاً من ذلك يمكن أن
يقع في حياة الناس ، لقلت أن هذا الذي كان في حياتي ثم انطوى لم
يكن إلا أمنية حلم . ثم عاد كل شيء إلى طبيعته . كان لم يكن شيء . وعادت
الأمنية التي كانت ذات يوم حقيقة فاختبأت في أحلامي .. »

وهو يزمن بالمرآة « إن المرآة للرجل أن هي وحى المجد ومطلع الأمل .
فاذا عادت لثمة ودموعاً هي امرأه ولكنها اليأس والحزن والحسب »

وكانما ربط الحب بينه وبينها على أدب وفن « .. وتلاقينا على ميعاد
وجلسنا أقرأ لك فصلاً بليغاً من كتاب كان معي فتندت عينها بالدمع .
لقد قلت لي لئمة مازال صداها يرن في أذني :

.. ليس في البشرية كلها من يتندر على خلق المعجزة التي تهز النفس من
أعمقها غير الأدب البليغ »

.. عشر سنين من عمر الشباب وأنا أخرج للناس كل يوم جديداً في
الأدب . الايكن من الهامك فانه بسبيل تحقيق أملك .. »

وبعد فأنه أحب الراقعي سعيداً وأحبه وقال سعيد عنه « من حق الراقعي
على أن أذكر له يده على فهو الذي سدد خطاى إلى هدف مرسوم ، هو الذي

جعل كفاحي للعلم والأدب إلى غاية . فاذا كنت اليوم شيئاً من أدباء الجيل
فذلك حسنة من حسناته ويد من أياديه ، وقد وصف الرافعي سعيد بقوله
أما دس ، فرجل كشيخ المسجد يكاد يرى حصير المسجد حيث وطئت قدماه
من الأرض! ذوى دين وتقوى . وما بهما ينقبض وينكمش ويتزائل حتى
يرجع طفلاً في الثلاثين من عمره . وهو حائر بائر لا يتجه لشيء من أمر
المرأة .

وقد فقد منها ما يحل وما يحرم . ولا جرأة لنفسه عليه فلا جرأة له على
الموبقات . ولا يزين له الشيطان ورطة إلا أملس منه . فان له ثلاث أبواب
مفتوحة لله رب . إذ يخشى الله . ويتوقى على نفسه . ويستحي من ضميره ،
وبعد فسعيد العريان من أدباء الشباب . من الجيل الذي جاء بعد جيل
الرواد وهو أديب صبغ الحب حياته وأدبه ونخشي أن يكون فتور الأحران
في نفسه فتوراً عن الإنتاج والبحث .

على الطنطاوى

... هل تذكر يوم أن جزنا قبور الدحاح ونحن طفلان
يتيمان . فى طريقنا إلى المنزلين الصغيرين المتجاورين فى السمانه . فوقفنا ساعة
بين القبرين المتدانيين نزور أبويننا . ثم ذهبنا مسرعين لتودع الآمنا صدر
الأم ، اتذكر ما قلت لى يومئذ عن حبك أمك وتعلقك بها وقالت لك .
اتذكر أننا أتفقنا على أن الحياة مستحيلة علينا بعد الأمهات . وأتأنا سنبقى
معهن أبداً وشملنا جميع وعقدنا متصل . لقد كان ما ظنناه مستحيلاً . لقد
ماتت أمى وأمك وأحتواهما ذلك القبر الذى حوى أبويننا وعشنا بعدهما .
هذه صورته على الطنطاوى بقلمه مع صفيه زميل الصبا أنور العطار . أنها
أسعد صداقاته . هناك فى مدينة الأموات عاشت هذه المودة التى لا يستطيع
أن يعدوها الموت لأن الأدب اكسبها الخلود فهذا نائر وذاك شاعر .
وقد جمعتا الرسالة بضعة وعشرين عاماً .

وعلى الطنطاوى من أبناء دمشق بلد الحب والطف والكرم والجمال .
ولكن مصر لها فيه جزء كبير . فهو قد جاء مصر وتعلم بها وتلقى على خاله

العالم الفاضل السيد محب الدين الخطيب الذي تلقين عليه واحبيناه وعرفنا فيه غيرته على التراث الاسلامي .

وقد بدأ الطنطاوى حياته وأكبر أملة أن يكون معلماً وكان يتوهم حياة المعلم جنة انزلت الأرض . فيها ما نشتهي الأنفس . فلما صار معلماً لم يجد من تلك الجنة إلا الذي تجده الغوطه في الشتاء . أرضاً موحلة ما فيها إلا الشوك . فأمل أن يكون كاتباً فلما أصبح ملاً الدنيا من حديث طريف وأسلوب جميل . ولكنه هل رضى . اسرعان ما ضاق بنفسه وأدبه . وأمل أن يكون قاضياً وأن يكون خطيباً وأن يسبح في البلاد . ولم يجد في الأمل إلا الألم لا تنتظاره ثم الملل من بقائه .

وقد ساح في البلاد . ذهب إلى القاهرة وبغداد وبيروت ومكة والمدينة وشاطئ دجلة والبصرة وكركوك ودير الزور والقدس .. وقرأ تاريخ العرب والاسلام . وأعانته هذا على إنشاء فصول تنبض بالحياة والايمان بالعروبة واجداد الاسلام .

ويقول الأستاذ الطنطاوى أنه أخذ الأدب عن الاستاذ سليم الجندي الذي كان يحذره من قراءة الجرائد والمجلات وكتابات أهل العصر خشية أن تصيبه عدوى الركاكة . وهى شر من عدو الكواير والجزام . ومن ثم دخل الجامعة وهو لا يعرف من العصرين إلا المنفلوطى رحمة الله . وكان يظنه أبلغ كتاب العصر ولا يعدل بأسلوب نظراته شيئاً حتى وقع في يده « روافيل » للزيات فوجده كنزاً من أغلى كنوز النثر . ثم عرف الرافعى وقد أصدر كتابه تحت راية القرآن . فعلم منه أن الله قد خلق من هو أبلغ من المنفلوطى : « أى والله ومن عبد الحميد وابن المقفع وابن العميد ،

وهو يقول أن خاله محب الدين الخطيب قد أخذ بيده وسدد خطاه ،

وكان له أفضل مرشد ومعين والرسالة في نفسه مكان أي مكان .. ثم
انصلت بالرسالة صديقه وروحي وسميره وحقوقي . وكنت إذا نظرت في كتاب
أو أصغيت إلى حديث . أو ضمنى مجلس . أو اشتملتني عزله . أو أضعجت
لائنام . أو نهضت من منام . أو ذكرت ماضيا . أو فكرت فكرات . أو
أغمضت عيني متأملا . أو فتحتها على مشهد من مشاهد السماء والأرض .
أجد في ذلك موضوعا لمقالة أكتبها أو فصلا أنشئه ..

ولقد نشأ على الطنطاوى في عهد مظلم في تاريخ سوريا . فتح عينه على
الدنيا أيام الحرب الماضية . كان في العاشرة من عمره سنة ١٩١٨ . كانت دمشق
في أشد أيامها ومظاهر البؤس والالام في كل مكان . يرى الازدحام كل صباح
على القرن الذى لم يكن يفتح منه إلا كوه صغيرة يبرز منها رأس خباز ليعطى
السعيد من الناس كتلة سوداء لا يعرف ماهى على التحقيق . وإن كان يعرف
أن أسمها الرغيف . والاسم المرعب جمال باشا . يملأ القلوب فزعا . ثم
رأى المشائق وشهد المآتم . فأتملات نفسه بهذه الصور القاتمة ولم تكند
سوريا تسمع بفرحة الاستقلال في حفلة التوزيع حتى ذابت غصة الانتداب
في مأساة ميسلون ولم يكن يعرف في هذا السن الصغير غير طريقه إلى مكتب
عنبر . وتلك الساقية الصغيرة بمقبرة الدحداح . وذلك الطريق الذى ينتهى عنده
الجمران ويبدأ منه عالم الظلام والفرع والصوص .

ولقد عاشت هذه الصورة في نفسه فاشتغل بالصحافة وغامر في السياسة
ثم صار مغلماً وسافر إلى مصر ثم عاد . ثم ترك التعليم والأدب إلى القضاء ..
ولكن هل استقر ؟

لقد كانت له آمال ضخام في بعث أدب العربى القديم والتراث الإسلامى
« ولو قدر لى أن أسلك سبيل الأدب سلوك المسافر المطمئن . لا أتعثر الضال
وأرضى من هم الكد للعيش ونكد الحياة التمنية الجاهة حياء الوظيف ،

لحق هذه الآمال ، انى لا قرا من التاريخ ما يزلزل شعورى وهو على
اختصاره وجموده على أساليب العلماء فساله لا يمنع الاعاجيب إذا فصل
ووسع وطار فى آفاق الأدب ..

وهو فى سن الأربعين يحس بالآلم . أنه لم يفد غير ذكريات واهية .
« بقية قلب تناثرت اشلاؤه على سفوح قاسبون فى دمشق . ومسارب
الإعظيمة فى بندا د و غابات الصنوبر فى لبنان وعلى طريق الأهرام فى مصر .
وعلى ضفاف الشط فى البصرة . وحوائط النخيل فى يثرب اشلاء من قلبى
وإشلاء ... »

والأدب ماذا أفاد منه ، لقد تحول عنه فى سن الأربعين وغير رأيه فيه :
« ... أما انى لم أجد الأرب إلا عبثا . ولم أجد الآداب إلا بجانين . يسعى
الناس وراء المال ويسعون وراء سراب خادع يسمونه المجد الأدبى . كلما
أقبلوا عليه نأى عنهم فها هم بياغيه حتى يموتوا . الأدب الذى أنا تاركة اليوم
أو ظان أنى تاركة . ومقبل على الفقه أجدد العهد بما قرأت من كتيبه وواهب
له قوتى ووقتى . »

لقد كنت أهزل يوم كنت أفضل الأدب على العلم . واين من اين . على
انى أن تركت الأدب فما أنا تبارك الكتابة . وأن من الكتابة لعلماء وأن
منها لأصلاحا ... »

ولكن على المنطوى رغم هذا أديب له طابع الأديب الأصيل .
الانسان المفكر الحى الذى ينتفض ويتدفن ويحلم . استمع اليه ، أنا أنصرف
العمر فى قطع العمر . وأجعل أكبر همى أضاعه أيامى . كانى أعطيت الحياة
لأعمل على تبديدها . فإذا لم أجد ما أفرق به الوقت . واضطرتت إلى
مواجهة الزمان . فى ساحة كساعات الانتظار . ضقت بعمرى . وضجرت
وأحسست كانى سأجن . انى ركض ابدأ وراء المستقبل . فى المستقبل

أبلغ آمالي ، وفيه أصلح نفسي ، وفيه أنيب إلى ربي ، وفيه أكتب تلك المعاني
التي طالما جاشت بها نفسي ولم يجر بها قلبي ، ولكن المستقبل لن يأتي أبداً
فأنا كالفرس الذي يعدو ويشدد ، ويكد نفسه ليدرك حزمة الحيش ، والحزمة
معلقة في عنقه ، يبصرها أبداً أمامه ولا يصل إليها فلا يزال يسعى حتى يدركه
الكلال فيقع أو تعترضه حفرة فيسقط فيها ولكن الحفرة التي اسقط فيها أنا
لا قيام منها ولا مناص من ورودها .

وهو يطوى نفسه على فلسفة متشائمة عميقة الخبرة بالحياة فتراه كمن
ينفض يده من الدنيا نقضاً ، إن متع الدنيا أو هام . من لم ينلها تشوق إليها
وحسد عليها . ومن نالها ملها وتمنى غيرها ، ، ، ماذا ينفعك أن يكون الناس
كلهم يمدحونك إذا كنت منفرداً في غرفتك مبتسماً ، تعس النفس محزون
القلب ، نحن كنا اطفال ، ثم أن الآمال لا تنتهي وإذا أنا وصلت إلى
الآمل الضخم هان على . وذهب بهاؤه وأنمحت روعته كأن الآمال سراب
لا يلمع إلا من بعيد ،

لقد أحب على الطنطاوى كثيراً وتألم أكثر مما أحب ، ولكن الحب
الواحد الذي انطوى عليه قلبي والآلم الفرد الصادق الذي عرفته هو حي أُمي
وأُمي لموتها ، وهو يصور هذا فيقول : لم يبق من آثار هذا العالم الحافل
بالإخلاص والحب إلا قبر منعزل وساقية صغيرة تميل عليها شجرة صفصاف
وهو يشكو من ضيق يلم به بين الحين والحين فيعقل قلمه عن الكتابة
... وحاولت أن أكتب فما سرث في الفصل غير بعيد حتى تباطأ قلبي ثم
وقف . وأحسست في نفسي بهذا الضيق الذي ما أنفك يلازمي منذ أكثر
من عشر سنين . فيطوى وقدة حماسي . ويعقل نشاطي ، ويغلق أبواب الإلهام
دونى . فلا أكتب ما أكتب إلا ملء الفراغ وتزجية الوقت ،

وبعد فعلى الطنطاوى كاتب حلوى الأسلوب جيد العبارة . فيه صفاء
وروحانية . وفى قلبه غيره على العروبة والإسلام . وفيه من الشام ومصر
ومن الشرق والغرب . وهو نفس مشرقه تصور أحلامها وأوهامها . أشبه
بالكتاب المفتوح . ولكنه إلى ذلك كاتب ومفكر له غرابة أطوارهم وتحول
نفوسهم . ففيه ذلك القلق المقدس . والعاطفة المشبوبة . والروح المحلقة التى
تحب التنقل والتحول والجرى وراء المجهول

وقد اكتسبه قراءاته وإسفاره قدرة على العمل الأدبى . وأنت لانتطيع
الا أن تضعه فى صفوف الأدباء بأدبه . كما تضعه فى صفوف العلماء بعلمه .
ولقد قرأت له طويلا ولا زلت شغوبا بآثاره وقد دفعنى هذا أن أكتب له
صورة تحليله عام ١٩٤٣ نشرت فى جريدة « الأخبار » القديمة

ابراهيم ناجي



لست أدري لماذا أراني أتردد وأنا أكتب عن إبراهيم ناجي . لقد كنت أحب هذا الرجل دون أن أعرفه أو اتصل به . وأن بعض قصائده التي نشرها أبولو كانت تثير في نفسي مجاني رائعة . حتى أنني ضقت أشد الضيق عندما تقدمه الدكتور طه حسين في الوادي سنة ١٩٣٤ ووددت لو استطعت الدفاع عنه وأنا في هذه السن الباكرة ..

ولكن قضى الله إلا أن أرتطم به في مسائل عاطفية بحته . جعلتني أنقم عليه أشد النقمة فقد كان شريكاً لي في قلب حبيب . وكان عزيبي في صراع وجداني . ولم يكن في نفسي الحقد على الأموات غير أنني تلقيت خير موته بشيء من التشني .. ولكنني اليوم أحس أن الصراع الذي كان بيني وبينه قد انتهى . وإن العاطفة الغامرة قد فترت . وأن الشعور الحاد قد مات ... وبدأت أنظر إليه من جديد كما كنت أنظر إليه منذ عشرين عاماً . بشيء كثير من الإعجاب والتقدير العميق ، وهو هندي شاعر قلق . ترك الجبال التي في متناول يده إلى الجبال البعيدة الذاهب في أغوار الضباب . رفض الشيء.

التيسير إلى الشيء العسير . وكان محبا محبوبا . قد وسع قلبه كل حب وكل
عاطفة .. وكم من فتاة وكم من سيدة حدثني عن عاطفتها لناجي وعاطفته لناجي
لها حتى كاد يختل إلى يوما أننى لن أصادف في حياتي واحدة تجهل لناجي .

انه شاعر قد ظلله القدر فجعله طبيبا . وليس بالطب من جرح وإنما
الجرح أن يكون الخيال مركبا في طبيعة الانسان ، فاذا القدر يواجهه بالواقع
ويصدمه . وإنما الجرح أن يكون الشعر مركبا في طبيعة الانسان بالقدر يضعه
فوق أسنة المادة ويزجه في الدائرة التي لا شعر فيها ولا خيال ، إنما الجرح
أن تكون طبيعته أن ينصت إلى أنات الروح فيأخذه القدر إلى حيث ينصت
إلى أنات الجسد وشتان بين هذه وتلك . إنما الجرح أن تجزبه طبيعته اناجيه
ومهمته لأخرى حتى يتمزق بين شد هذه وجذب تلك .

ولكن لناجي يبالغ حتما في هذا ، لأن الطب كان جزءا من الحب وقطعة
من الفن ومن الشعر وهو نفسه يعاود هذه الفكرة بصورة أخرى . والطب
الذي ارتبط بالأدب في حياتي أناح لي فرصة الاطلاع على حياة السكّيرين من
العباقره الفقراء فلم أضق بهم ذرعا . وكانت النزعة الأدبية عندي تجعل عطفي
عليهم مضاعفا . بيت الشعر قد يشفي نفسك المعتلة تماما كما تشفي جرعة الدواء
معدتك أو سواها من أعضاء جسمك .

ويتغزو لناجي اتجاهه الأدبي إلى قصة «كوبر فيلد» ويقول أن هذا
الكتاب وأن يكن ثرا إلا أنه قد خلق مني شاعرا إذ أخذت أبحث عن «دورا»
مقلدا كوبر فيلد وكانت دورا هذه صبيه تجلس بجانبى في الدرس في بيتنا .
فقلت فيها أول قصيدة . وكانت غزلا أصف به دموعها .

ويقول أنه ينظم وهو في العاشرة وكانت مكتبة والده هي الزاد الأول .
وكان ينظم وهو على صخره المكس في حب . فتاة استرالية ، ثم صار الشعر

سجيه . يهبط إلى وية تضئني امتضاء العزم . والعزم أحيانا يطلب التسديد
عاجلا وأحيانا يميل ،

ثم أحب ابن الرومي وأبي نواس والمتنبي . وأحب شعراء الطبيعة في
أوروبا . ورد سورث وغيره وقصيدة الغد من روائع ناجي (مارس ١٩٣٣)

اغدا قلت فعلني اصطباراً ليتنى اختصر العمر اختصاراً
عبرت بي نشوة من فرح فرقصنا أنا والقلب سكارى
سندم النور حتى يتلاشى ونذم الليل حتى يتوارى

وقصيدة الوداع الحنين والحرمان (يناير ١٩٣٤)

حان حرمانى ونادانى النذير ما الذى أعددت لى قبل المسير
زمنى ضاع وما انصفتى زادى الاول كالزاد الاخير
رى عمري من أكاذيب المنى وطعامى من عفاف وضمير
على كفك قلب ودم وعلى بابك قيد وأسير
وهذه القيود .. قيود الحب

اعطنى حريقى . أطلق يدى أننى أعطيت ما استبقيت شئ
آه من قيدك أو هى معصمى كيف أبقيه وما أبقى على
إن شعر ناجي يحمل شخصيته . شعر واضح . هو خفقات قلب . لا
فلسفة فيه ولا غموض . عاطفة خالصة لا تخالطها الفكرة التى تفسد القريض
.. وهو موله دائماً . متشائم دائماً . يحس بالحرمان

وكانما الحب فى حياته كائن حى . لم يفارق حياته لحظة . وهو الذى
وصف الحب بأنه قدر كالحياة والموت .

وترى من .. هي ليلاه في شعره الأخير ، اكتوبر ١٩٤٧ ،

الليلى ما أبتى الهوى في من رشد فردى على المشتاق لفته ردى
ايذى تلافينا وأنت حزينه ورأسك كاب من عياء ومن سهد
أقول وقد وسدته راحتي كما توسد طفل متعب راحة المهد
تعالى إلى صدر رحيب وساعد حبيب وركن في الهوى غير منهد
في قصيدة الصحراء ..

أيه « ليلي » وهل فؤادك ليلي بالذي في جوانحي لك عالم
شهد الله ما قضيت الليالى ناعم الجنب فوق مهد ناعم
أى جيشك مغرق .. حبك الطاغى أم الشوق وحده وهو عارم
وكانت ليلاه مريضة فملا . وكان هو الطبيب . يعالج الروح ويعالج
الجسد . يعالج بالحب وكتب علم النفس . وكان الطبيب وفيما يؤمن بقدسية
الحب . وكان شاعراً يصور آلامه وحرمانه في قصائده .

واعله قد اتخذ اسم ليلي كما اتخذ شعراء الصوفية قديماً أمثال ابن القارض
وعبد الغنى النابلسي لتصوير معنى النفس الانسانية في أى روح جميل
ولست أذهب مع الداهيين في أن لناجى فلسفة . إنما هو طيب استأثرت
بنفسه عاطفة حب ضخمة . كان في نفسه فراغ لا يملأه إلا الحب . وكان شعره
تعبيراً عن عن نوحاته وحرمانه .

زكى أبو شادي



أشهد أن اعتراجه في سبيل الفكر هو الذي هزني . ولما نقى . أما شعره فأنا لا أو من به كك . أنه له عند صورة الكاتب الكافح الدائب الذي لا يجهد ولا يكل . والذي يضحي بآله في سبيل الفكر ما ورث عن أباه الغنى من أراغى في سبيل إبراز أفكاره وأثار أصفياه وحواريه

فأنا أو من بأبي شادي الكاتب . الذي كافح في سبيل فكره والذي تصفه السيدة جميلة العلايلي بأنه كان حركة دائمة يتمنى مع سرعة دجلات المطبعة بنشاطه وفكرة ومشاعره في أعداد مجلة بولو ومراجعة وتصحيح أصولها والإشراف على إخراج مجلة الامام الأدبية ومجلة ناسك النمل والمجلة الزراعية دون أن يعتمد على كائن مهما كان أو يعتمد على معونة حكومية

وأنا أو من بأبي شادي صاحب المدرسة الجديدة في الأدب الذي احتضن عدداً من الشعراء والأدباء فأخرج لهم مؤلفاتهم وأثارهم وابحث عن صنوه في زمانه فلا أجده

ثم لما أحس بأن الرجعية أخذت تفسد عليه حياته هاجر إلى الاسكندرية ولكنها لم تدعه . كانت ممثلة في صورة الصراع الحزبي البغيض . وكان متهماً بأنه مدرسة أدبية أنشأها عنده ليضرب بها العهود . . . عندما أحس بأنه لا يستطيع أن يلتقط أنفاسه حرة طوى رداءه وأغلق حقائبه وسافر . . .

.. من أجل الحرية آثرت الاغتراب عن وطني حينما تجر الطاعون يضرب المفكرين يمينه ويسره . ولأجل مثبتي الحار وطلاقتي الفكرية والروحانية احتملت مشاق النفي الاختيارى مادياً ونفسياً لأنى وجدت هذه المشاق لا بد منها لانقاذ نفسي وتحقيق رعايتي بقلبي ولساني لمسقط رأسي الحبيب والسلمة مثلى الانسانية ..

وسافر في عام ١٩٤٦ واستكن اسمه ظل مخفياً حتى عام ١٩٥١ عندما بدأنا نقرأ له بعض رسائله إلى أصدقائه في مصر وفي مقدمتهم تلميذته جميلة الغلايل التي حملت فترة من الوقت لواء الدعوة إلى عودته . ولكنه كان قد استقر هناك بصفة نهائية . حتى توفي هذا العام (١٩٥٥)

وكان أبو شادي يحب أنى العلاء وابن الرومي والمتنبي . وكان مغرمًا بشكسبير ومilton وكيثس . وقد عاش في إنجلترا عشرة أعوام وعاد إلى مصر ١٩٢٤ فعاش بها حتى عام ١٩٤٦ وفي خلال هذه الفترة أصدر مجلة أبولو وعدداً من دواوين الشعر . فقد كان الشعر عنده سجية طليقة . وقد حدثني عنه الأديب الشاعر الأستاذ محمد أحمد رجب بأنه كان يزور ميت غمر بصحبته وعلى طول الطريق كان في يده ورقة وقها فها من منظر رائع إلا وأحاله على الورق شعراً حتى اتى بالاعاجيب في سرعة النظم .

وعاش في أمريكا تسع سنوات . وكانت زوجته قد توفيت عشية مغادرته للشعر فضى إلى الغربية وحيدا بغير السيدة التي جمعت بينه وبينها عوامل شتى من الحب والزمانة في بريطانيا . .

وهناك مضى ينتج وينشر في صحف مصر وسوريا ولبنان . وكل صحيفة تصدر باللغة العربية .. وقد ترك عدداً من دواوين الشعر ، يقول الأستاذ الياس بسوى ، انه كان في أيامه الأخيرة يريه لقاتفها .. ويتحدث معه في قلق واضح ، حديث المشفق على أعز إنتاجه من الضياع ويسأله متى يتاح لهذه الدواوين أن تنشر وهل يمتد به العمر ليراه منشورة مجلدة ويستدرك فيقول أنه جاوز الستين ولكن عزيمته لم تهن وقوته النفسية تستطيع أن تذلل مصاعب المرض .

وتزوج أبي شادى في أيامه الأخيرة وعاش يكتب لصوت أمريكا ويعد أنثاره الجديدة للطبع ويساعد زوجته في زراعة بعض شجيرات الورد في مصر الحديقة المؤدى إلى باب الدار .. ويقرأ كل شيء يصدر في الشرق ومصر .. وصديقه الأستاذ وديع فلسطينى يرسل إليه كل أسبوع طردا ضخما من أنثار الفكر التى تصدر في القاهرة فضلا عن قصاصات الصحف . وكان إلى ذلك يرسم لوحات رائعة يزين بها داره في واشنطن .

كانت روح أبي شادى شابة نائرة قلقه . لا تفتر ولا تهمد . وكان يعمل ليل نهار في سبيل الفكر والأدب وقد طواه الموت . ولكن أنثاره ستظل يقيه . ومكانه في الأدب العربى المعاصر لا يزال مكينا .

مجلد زکی عبد القادر

نفس قلقه طموح . تحفی قلقها وراء ستار من التجل والتوقر . وترید
أن تعطى صورة الهدوء والسلام والاعتدال . أنه قلب خفاق حی . ولكن
مع غفل قائد غیر مقود . إن دراسة الاقتصاد لم تعطه الجفاف . بل اعطته
المنطق . ولم تحرره العاطفة ولكنها أمدته بسلامة الحكم . ونصاعة الفكرة .
لقد درس القانون . واشتغل بالصحافة . ولكنه طوع قلبه لاسلوب
أدبی ممتاز . لم يجعله صحفياً صرفاً . ولا من أهل العلم والأرقام والماذیات
فهو جماع متنسق من العاطفة والعقل — والصحافة والأدب . والبيان والفكرة
وفیه الموضوع والنصاعة . وفیه الاشواق والحيرة .

وهو يحس أحياناً بأنه فی حاجة لأن ينطلق وينسى ذکریاته وآلامه
ومتابعه . وكان الحر شديداً والليل ينشر ظله الرقيق فابتعدت عن الناس
أخذ النسيم یرق وقد انتصف الليل أو كاد . القمر هادی صاف .

ينشر نوره في سحاء ورقه . والأهرام على خطوات منى . والسيارات راحة
غاديه . اسمع أصوات ضحكات ناعمة فاترة . وأحيانا لا أسمع غير عجلات
تنزلق على الأرض في سرعة خاطفة . ونور يومض من وقت إلى آخر . وتغير
ينطلق . من يدري إلى أى غاية ؟ ترى أى قدر ينتظر هؤلاء الضاحكين . وأى
قدر ينتظر الذين أظلمت الدنيا في وجوههم .

ومر شريط سريع أمام عيني تلوت فيه حياتي من أولها ، لا أكاد أحس
أن السنوات مرت .. والعمر ، ما هو العمر ؟ هل يعد بالسنوات التى مضت
أما بالسنوات التى تبقى . أم باليوم الذى نعيش فيه .. ،
وهكذا ، حيرة نفس مشوقة إلى مجهول ..

وهو محب للرحلة شغوف بها ، ما أحلى أن يطوف الانسان في الأرض
ما يطوف وأن يرى ما شاء أن يرى . ثم يعود إلى وطنه فاذا في قلبه حنين
وفي صدره همس رقيق ، وهو يهرب من الحياة الرتيبة إلى الوحدة في رمضان
.. أفطرت اليوم وحدي . لم أشأ أن أذهب إلى البيت . لاني أشعر أحيانا
بحاجتي إلى الوحدة كما أشعر بحاجتي إلى الالفه وخرجت إلى شارع الهرم .
ووقفت تحت ظل شجرة ، بينما كانت الشمس تغضض أجفانها لكي تنام .

وأكلت ونظرت وتنفست وتمتعت و تأملت ، وشعرت وأنا وحدي
كانني مغمم النفس والقلب والصدر بمئات الأصدقاء ، أحسست أني اسمع
النجوم من الشجر والزهر والنبات .

كانت بضع سيارات قليلة تمر منطلقة كالسهم وفيما عدا ذلك كان الهدوء ،
كأنه قداسة الايمان ، والطبيعة كأنما محراب لا يجترى على دخوله انسان .
كان في شبه خلوه ، فيها همس المحبين ، ودلال العشاق .. ،

وساءلت نفسي : من أنا ومن أكون ، من اين جئت وإلى أين المصير ،

« ذره في هذا الكون العظيم ، شيء نافه صغير » .

هذه هي النفس الشاعره ، الخيرة التي يتحدث عن المجهول
ولعله قد صور نفسه في لوحة « نحو النور » هذه فاعبانا عن البحث وراء
طبيعته وفلسفة حياته .

دان له من المجد ما أراد وأكثر مما أراد حتى سئم المجد ، و سرى له
من الشهرة ما أراد وأكثر مما أراد حتى سئم الشهرة ، وأفاء الله عينه من نعمة
المال ما أراد وأكثر مما أراد حتى سئم المال ، وأحبه الناس كما أراد ، حتى
سئم الحب وسئم الناس .

وها هو ذا في قمة الحياة يشعر بالقلق نفسه الذي يشعر به من لا يزالون في
القاع . . لم تصبح المجد أو الشهرة أو المال أو الحب أشياء تستهويه وهو
يسأل نفسه أين المستقر ؟ أين اللحظة التي يطمئن فيها القلب ، ويزكو
الفؤاد ؟

هل السعادة أن نحصل على كل ما نريد ، أم أن يظل أمامنا هدف نسعى
إليه ، أليس للجهد نهاية نقف عندها ونقول هذا موعد الحصاد ؟ أليس في
صحراء الحياة واحة نبغها فنشعر أننا أوفينا على الغاية وأن أن نستريح ؟
أم أن الكائنات الانسانية شمعات تظل تحترق وتذوب إلى أن تنطفئ ،
يختلط في حياتها النور بالنار ، والهدوء بالقلق ، والشكوى بالثورة ،
والنجاح بالفشل .

وماذا يكون لو خلت الدنيا من الهموم والمتاعب والأحزان والآلام
ماذا لو سارت رخاء كأنها طريق مفروش بالورذ والأزهار ؟ هل تحملو ؟ لا
أن الحزن ضريبة الفرح ، والفشل ضريبة النجاح ، والفقر ضريبة الغنى ،
والكراهية ضريبة الحب . أن لكل شيء نقيضه ، ولولاه ما كان ، ولا

يتصور نجاح يشيع في النفس أمواج السرور من غير كفاح مر يشيع في النفس
أمواج اليأس والقلق .

ليس الاحساس بالسعادة متصلا ولن يكون ، وليست السعادة مرحلة
قائمة بذاتها في الحياة ، ولكنها لحظات تغمر النفس عند كل هدف يتحقق
ثم يعود القلق ويتجدد ، لتتأنيب النفس إلى احساس بالسعادة جديد .

والوقوف غير متصور في الحياة لأنها قائمة على الحركة ، والدوام
مستحيل لأنها قائمة على التحول . والتعود على أجمل الأشياء وأعلها يفقدها
قيمتها . وهذا هو سر القلق ، وهو سر الحياة ،

وهكذا أميز بما يتميز به طابع « المثالية » التي تطابق بين شخصيته وكتاباته .
فهو رجل لم يتحول منذ بدأ يكتب . منذ ثمانية عشر عاما . نصف عاموده في
الأهرام ثم في الأخبار .

وهو من كتاب الاجتماع المعتدلين الذين الذين يحبون الحضارة الحديثة
ويحبون معها الشرق . وهو من الذين لا يحبون الخصومة أو الصراع . وقد
شغله الصحافة عن التأليف والانتاج الخالد .

بدأ حياته الأدبية في السياسة ومن كتاباته فيها اصدر بمجموعة الأولى
« صور من الريف »

وهو يحب الصحافة ويرى أنها مهنة أختارها له القدر ، ذلك انى درست
الحقوق وكنت طوال دراستي أحلم بأن أكون محاميا ، ولكن ما همست إلى
به أحلام شبابي الأول شيء ، وما كان القدر يعده شيء آخر ، فلم أكد
اتخرج من كلية الحقوق حتى دعاني الأستاذ كامل البنداري المحامي وعضو
الأحرار الدستوريين حينئذ للاشتراك في تحرير جريدة السياسة وكان يرأس
تحريرها في ذلك الوقت الدكتور هيكل ، ونعمت بالعمل في الصحافة فترة

من الوقت ، فقد شاقني فيها أنها حركة و يتقظ وسعى وتجدد ، واسكني ضقت
بها فترة أخرى ، وكدت أمجرها ، لما لاحظت أنها تتخدع بهريق ظاهره وفي
باطنها تملك العيش وضيق المستقبل . وكدت انتقل إلى العمل في المحاماه لولا
الحنين المكتوم القديم لصناعة التخاطب مع الجمهور والانتقال به والسعى
له والدفاع عنه عصمني من الاندفاع إلى مستقبل آخر ، لقد مرنت أن أعيش
في أعماق الحياة لا على هامشها . والحياة عندى انفعالات وتعبير عنها .
وليس كالمصاحفة عمل يمزجك بالحياة ويمزج الحياه بك .

وهو يعاود فكرة الرحلة فيقول انه لولا مسئوليات ثقيلة لقضى العمر
يتنقل في بلاد العالم، يرى وجوها جديدة وأخلاقا جديدة . وانه ليسام أجمل
يقاع الدنيا بعد أيام ، فيشعر بالرغبة في الانتقال منها إلى بلد لم يره . واني
لأسف أن أرى سنوات العمر تمضي دون أن أزيد علما بهذه الدنيا التي أعيش
فيها . وخير أن يعيش الانسان بالعرض لا بالطول ،

ولا يتصور نجاح يشيع في النفس أمواج السرور من غير كفاح مر يشيع
في النفس أمواج اليأس والقلق ويرى أن الأمل جوهر الحياة ، وأن السعادة
ليست إلا ومضات خاطفة من الاوهام .

هذه خطوط من نفس كاتب ، لاتطفي عليه الصحافة في أسلوبه ولا تجرفه
في أفكاره .

محمود كامل

ما أظن أننى تأثرت لسكائب فى مطلع شبانى كما تأثرت لمحمود كامل .
حتى لأظن أن الرؤى والأوهام والأحلام التى دفعتنى فى طريقى إلى الصحافة
والأدب والقاهرة . . كانت أحلاما فى قصصه التى قرأتها أعوام ١٩٣٣ وما
بعدها .

وقد عشت فى هذه القصص حياة أبطالها . وأثرت فى نفسى قصة حياة
الظلام ، بالذات ولقد كانت هذه العبارات تمثلا لنفسى ، ، ، وتترد فيها كأنها
أنغام حلوه ناعمة .

فاطلت النظر إليها ، إلى عيناها العجيبتين اللتين كانتا تبرقان فى ظلام
الكوخ الخشبي برمتا يثير الرهبة والخشوع . خيل إلى أنهما جذوتا نار
تطفوان على سطح محيط طال وقوفى على شاطئه فى ليلة قارصة البرد . كان
يبدو لى كأنما حلت بهاتين العينين من قبل . . .

ولكن اين محمود كامل الذى دأبت له الآصة طويلا . . اين هو الآن

لقد كنت أثق بأن محمود كامل يعيش حياة قصصه وحياة أبطالها وأنه ينبعث عن نفسه . عن صميم حياته . عن نفس الأحلام التي تعيش فيها روحه لقد خلف القصة منذ زمن طويل ومضى يشرق طريقاً آخر لعله يظنه أقرب إلى المجد وإذا أربط دائماً حياة محمود كامل بقصته الخالدة حياة الظلام فهي تصويره وقد بدأ يتصل بالمتعة بعد أن أحرز اليسانس واتصل بأوساط الهوى ، وبالسيدة الموسرة التي فتحت له أبواب المجد الأولى .

ويمتاز أسلوب محمود كامل بالعاطفة المضطربة والبشاشة والاشراق . وفي فنه تنوع وتلون . كما تحتوي قصصه الكثير من اللحظات الوجدانية الصادقة .

والعل مصدر الاشراق في أسلوبه هو أنه يصور حباً واقباً ، وضرباً حياً في نفسه ، كان يعلم به الاحداث في قصة التي تجري في اتجاه واحد .. هو التمرد على الواقع يعبر عن هذا المعنى في مقدمة مجموعته القصص المتمردون التي صدرت يومه ١٩٣٥ . . . أن هناك وحدة معينة تشع فيها . ونسبها بطابع خاص . تلك الوحدة تلخص في ثورة الشخصيات البارزة في كل قصة منها . ثورة تتجه اتجاهها معيناً وفق الموضوع الذي كسبت الصفة من أجله . تلك الشخصيات المريضة المضطربة المتناقضة . تلك الشخصيات التي تفكر وتطيل التفكير . وتزن الحياة بميزانها الخاص . وتحاول اخضاع الحياة كلها لوجع أعصابها مهما بلغت ثورة تلك الاعصاب . سيرى الناري أن تلك الشخصيات التي صادقتها شخصيات .. تتمرد وفق حانه معينة . لها مثلها العليا الخاصة بها . فهي تتمرد في سبيل تحقيق ذلك المثل مهما كلفها هذا التمرد من بذل وتضحية ..

وليس شك أن محمود كامل على رأس مدرسة من مدارس النصف الافرنسية العربية . هو كاتب الطائفة الوسطى . نشأ فيها وكتب لها . ومثل هؤلاء

الكتاب الذين عاشو في غمار الحياة يكونون أروع إنتاجا وأصدق أدبا وأخلد
أثراً حين يصورون هذه الأوساط . ولكن محمود كامل يحرص على أن يصور
الحياة الارستقراطية . بيئات القصور والسيارات والصالونات ، وهو
يخفق في هذا إخفاقاً لاشك فيه كأن يتمنى هذه الحياة وينظر اليها من بعيد .
ليس شك أن محمود كامل . كان يطمع في أن يصل إلى هذا اللون الرفيع
لحياة . وكان يتمناه . ولذلك كان يجد في تصويره على هذا الوضع ، لونا
من الانتقام والقصدى يرى نفسه ربا من الأرباب يستطيع أن ينتقم من أبطاله
ويذهب بهم إلى الجحيم .

وإذا كانت قصص محمود كامل تستجيب للنفس الانسانية فإنها تستجيب
لنوع محدود . انها تثير في نفس الشاب المحروم ظمأ ، ولكنها لا تطفىء
عنده لوعة .

وهي ليست من النوع الذى يدفع إلى المثل الأعلى أو التسامى على دعوة
الغرائز بل لعلها تدعو إلى نداء الجنس ولعل مما يؤخذ على محمود كامل انه كتب
في مرحلة الشباب ثم اختفى وذبل فنه وتوارى إنتاجه بعد أن ارتفع به العمر
ولعله وصل إلى الشهرة والمجد من طريق آخر . ولكن فنه الاصيل كان أولى
به إلى آخر الحياة .

الحب في حياة الصاوى



قالت (١) انما لصاحبها عند ما تحول عنها إلى غيرها ، أنت كاتب لا تبحث عن المرأة والحب في ذاتهما بقدر ما تبحث عن أثرهما في نفسك ، ليتحول الأثر بعد ذلك حبراً على ورق فانت تبحث دائماً عن طعم جيد وعن طابع غريب ، لا تحاول ان تحتال لهذا وأن تلبس المغفرة . فلا ذنب لك ، إنما طبيعتك ، طبيعة الفنان الأمين الذى يسخر كل ما حوله لخدمة فنه .

وقد أحب الصاوى ، وسجل صفحات حبه في كتاب حياة قلب ، وقد عاش يبحث عن الرفيق وصوره في صورة رائعة ، فهو رجل لا يهمه علم ولا جمال ولا مال ، ولقد رأى من هذا كله الشيء الكثير ، لأنه من ذلك النوع البوهيمى الذى يظل عنيداً كأنه اصم اعمى ، حتى تمر في حياته امرأة ، امرأه واحدة ، فيرتجف وينتفض انتفاض العصفور بلله القطر ويسلها

(١) كتبت هذا الفصل سنة ١٩٥٣ وقد اجريت فيه بعد التعديل عند ما أعددت له للطبع

حياته ... وسواء لديه سارت به إلى الصدرام إلى القبر ..

لقد بدأ الصاوى حياته الباكرة محباً عاشقاً .. كان طموحاً . لا يريد الحياة على تلك الصورة التى تعيشتها الموظفون . وزهد فى العمل الرتيب . ورنأ إلى أفق أعلى ، وإلى حياة أخرى ، إلى باريس ، مدينة النور وبدأ يحب شيئاً محرماً على من كان فى سنه . وكان هذا الحب كفيلاً بأن يجعله يكره كل ما عداها . كيف كانت تلك التى تجسدت له فيها : الملهمة !

كانت سمراء طويلة ، نحيلة ، رشيقة ، وكان فيها ذلك السر الذى سيظل طول عمره يحتضنه فى كل بقاع الأرض .

« المرأة المترفة ، كانت عزيزة ، عزيزة المثال . كان دونه ودونها الأحوال وهو يحب الحب لأهواله ، لن يطيب له يوماً الحب الرخيص . لن تطيب له امرأه كل الناس . سيعجب بالجارية الشمطاء إذا كانت له وحده ، ويحتوى الكاعب الحسناء ، إذا كانت نهياً متمسكاً بالناظرين .

« إنه شديد الأنانية فى الحب ، وفظيع الغيرة .

لجأت هذه الفتاة فسخرته ، بصورتها وصوتها .. وسحرته قبل هذا بترفعها وكبريائها ، لا تنظر إلى أحد ، وهو هكذا يريدنا ! ولا توزع النظرات جزافاً .. كأنها لا تجد رجلاً يستحق النظر إليه .

« لم يكن أمامه بين بين ، لم يكن يسعه إلا أن يختار بين العلم والعشق ، بين البكالوريا وفتاة أحلامه .

« لم يكن فى السن التى تقدر العواقب ، بل السن التى يحول فيها المعان العيون دون رؤية الحماق .

عياه اللتين كانتا ضاحكتين ، لم يطفى من نورهما السهر والمطالعة والدموع .

« ولو أنه قدر العواقب يومئذ لكان مصيره مثل مصير الوف الذين
انظمت دراساتهم واثموا علومهم ، ودخلوا تلك الخانات المرتبة بالدرجات
والعلاوات ولكان رقما من الوف الأرقام ، وهو لا يعتقد أنه الآن أسعد
حظا ، فللسعادة مقاييسها الغريبة ، ربما كان يسعد ومنها بالدرجة الثامنة ثم
يزداد سعادة وهناك بالدرجة السابعة ثم يطنى عليه الهناء والرخاء إذا
عاش ومات في الدرجة الخامسة .

« ربما كان يسعد ومنها إذا تزوج في العشرين ، وانجب الأولاد
والبنات ، وكانت امرأته تزهر بقطعتين من الشيت صيفاً ، وقطعتين
من الكستور شتاء من بنزيون .

ربما كان يسعد ومنها إذا تمكن في كل أسبوع من شراء شمامة أو بطيخة
ترعرع قلوب الأولاد ، وإذا شرب من قلة ماء حتى ارتوى ، وإذا ، وإذا
« وذا لم يعرف ما هي المعرفة حقاً . وما هو الحب حقاً . وما هي أوروبا
وما هي الثلجة الكهر بائية .

« ما كان يرى أو يعرف أو يتعلم ، أو يحب ، لولا أنه أدرك من ساعات
مراهقته الأولى ، أن في الحياة نشوة روحية هائلة تسمو على كل المقاييس
والموازين هي التي قد تززع الدرس وتهز كيانه المستقبل ، ولكنها هي
هي علاقة النفس الموعودة بالوجود ! والخلود

« كان في ذلك العمر الباكر يرى الدنيا ماثلة في صورته تلك الفتاة النحيفة
التي تضع في أذنيها قرطان من الذهب ، هما كرتان صغيرتان متدلّيتان وتضع في
رسغ اليسرى سلسلة رفيعة من الذهب يدل الخلخال .

« كانت مثله تسبق زماؤها ، وعرفت لساعاتها الأشياء الرفيعة ، كيف
تأسره ، ولم يعد أحد من رفاقه يشطّيع النظر أو الإشارة إلا تلميحا

أو اعجابا ، وكانت له قبل أن يصير لها ، إنها ان تصير له ، إلا في خياله .
فقد كانت بينه وبينها جبال وتلال ، من الخيالات والاحلام .

* * *

هذه هي قصة الحب الأولى ، هذه هي أضواء الفجر على حياة حافلة .
ثم كانت قصة دآدا .

وكانت عينها مزيجاً مدهشاً من الظلة والنور ، من النعاس والظلة ،
من الخيال والحقيقة ، من التضحية والتمرد .
وسافر الصاوى إلى باريس وعاش هناك واحب .

وذلك الدور العنيف من حياته المقيد في الشرق بقيود الحرمان ينطلق
في الغرب بغير حساب

انمحت من حياته تلك الحلقة النارية فهو لا يحاول بهذه الصفحات
زهواً ولا مباهاة ، وإنما أراد أن يرد إلى الشباب بعض وديعته الغالية ،
هي حياة قلب غض بكل ما في الحياة من محاسن أو مساوئ .
كانت هناك قصص ، لقد كاد الصاوى أن يعيش هناك ، وأن يسلم
حياته كما قال ، ولكنه تذكر القيود التي ارتبط بها في مصر .

وكان غارقاً في مسؤولياته ، هل هو طائر طليق حر في حياته ؟ كلا أنه
مقيد إلى حد ما ، إلى حد كبير ، بمسئوليات أدبية ، إذا أنكرها تنكرت له
المادة . وهذه رسالة من حبيبته التي هجرها ، تعطي صورة لذلك الوفاء ،
وفاء امرأة غربية لشاب شرقي ، وفاء في الحب ، وهناك من جانب الشاب وفاء
آخر ، وفاء في الحب أيضاً ، أنه صراع عجب ، ليس مسؤولاً عنه
هو ولا هي ، وإنما القدر !

« أنك ستبحث طويلا ، لن تجد حبي ولا قلبي ، إنني . حبك هذا القلب
منذ رأيتك وحدثك ، ولن أستطيع أن استرد ديتي ، وإن كنت انت
ترفضها سيظل قلبي وفيأ لشخص مجهول مر في حياتي .

ويعود الصاوي الحب على انه صراع ، على أنه حرب .

« سيكون الحب صراعا أبدا قتالا ، ولو كان ظاهره الوئام والسلام .

أكون الحب كله ، حتى في أقصى نشوته قائما على شهوة الانتقام ، ولذة
الإيلام ، الويل للحبيب من الحبيب .

وهذه قصة أخرى من باريس .

والصاوي لا ينسى ، أن الذكرى تحفر في قلبه آثارا بعيدة المدى .

« قلت في نفسي ترى ماذا يكون حال لو إني رأيتها وسمعتها في سن العشرين
أن السنين القليلة التي عشتها بعد هذه السن قد انقضتني من شر مستطير ،
أو حرمتني خيرا كثيرا ، إذ من يدري في الواقع أين هو الخير من الشر ،
ربما فتحت لي هذه الفتاة أبوابا من العزاء أو الهناء لو إني اتصلت بها
وأوثقت معها عرى الود ولسكنني نفرت منها ، كأنها أفعى !

فلماذا فررت ونفرت ، أهى قراءة وأدمانى المطالعة والنظر في تاريخ
الغابرين وتجارب المعاصرين هي التي حملتني على النفور والفرار !

أم أن شيئا خفيا يحرسني ويدود الشر عني كدعوة أم حنون أو يدلي
مسلم مسحت على رأسي في طفولتي أو شياني ، أو بركة كاهن اسراييلي شملتني
في طريقى إلى باريس ، أم هي حياتي الذاتية المتعلقة بغيري الراضحة تحت
عبء مسئوليات خطيرة فلا أستطيع أن أفرح طلقا كالصغير يومأ واحدا
لثلا أعود إلى القفص مهشم الريش مقصوص الجناح .

ويعود الصاوي من باريس ليستقبل حياة جديدة ، وشرق نجمه

أشراقاً سريعاً ولمع لمعانا خاطفاً ، وكان بهذا هدفاً للحب جديد .
ومن حب إلى حب وعاد الصاوى إلى حيرته ..

« قال لما بصراحتي الممودة التي تبلغ الوقاحة أحياناً . ماذا تريدن ، إن
زواجاً ان يكون بيتنا ، فانت حديثة السن وأنا لم أعد قتي . . وأنت ذات
فضأة انجليزية وأنا أحب اللغة الفرنسية . وأنت است موفورة الاناقة وأنا
اهيم بالمرآة الانيقة . ولو كانت أشبع بنات حواء . .
ثم قبل هذا كله . أنا لا أفكر في الزواج ولا أؤمن بالزواج وأما
جهاد طويل .. »

ولكن الصاوى ما زال في حيرته .

« احترقت الاسلاك واحترقت الضلوع ، ثم كانت الرؤيا ، فرت نجاتها
الازلى على القلب بطابع الحب ، ولكن ذاك عهد من حياتي قد مضى بين
تشبيب ، وشكوى ، ونواح !

« .. إن الكاتب في حاجة دائماً إلى تلك المحدثات الروحية التي تجعل في
نظرة العيش . وتلوّنه بألوان بهيجة .. وتجعله يسمع في نفسه آراء لا يتحدثها
الرغبة ولا الفتنة ولا الغيرة .. »

ولكن .. هل يجوز الكاتب أن يتزوج ! وأن يقيد نفسه ، وهو
الطليق الذي يجب عليه أن يطير ويذهب إلى أقصى الأرض في سبيل
مهنته وعمله .. »

وهل يسعد الكاتب الذي يحب مهنته إذا تزوج !

هذه القضية .. التي عاشت سنوات في نفس الصاوى وتفكيره وأشد
ما يكرهني في الزواج فكرة الأولاد ، أنا لا أرى نفسي أناذياً إلى حد أطمح
معه في الهندية ولما يبق في العمر ما يسمح بتربيتها حتى تكبر . ولا في القلب

ما يسمح بأن يذوب لهفه على طفل عليل بين البكاء والعيول ومن أشد ما يكرهني في الزواج أيضاً ، هو فكرة حرمانى من الأسفار ، والرحيل عن الأوطان ، فانا الآن رجل خفيف — الخمل لا الظل — أستطيع أن أسافر إلى أى مكان في العالم بعد ساعات واصل إلى أى ركن في الأرض بعد ساعات ، وليس ورائى علة ، والزواج علة العلل ، لأن الرجل الزرار الطيار يربط ذيله بوابور الزراط .

وفكرة السفر إلى بلاد واق اواق هذه ليست بدعة ، إنها جزء لا يتجزأ من حياة الكاتب ومن روحه ، ومن فكره ومن جسمه جميعاً ، إن كل حقائبه هى قلبه السيل ، فيستطيع أن يكسب عيشه في كل مكان فهو اية الكاتب الرحالة هى التى تشجعه على البحث عن الشخصية الإنسانية أكثر مما يستخفه على الجرى وراء المواقع والنجوم ، أو حتى آيات الفنون التى كانت دائماً تشغل عشاق الأسفار من عهد سليمان إلى عهد كوك .

« إننا قد ننشد جبال سوسرا المتوجة بالثلوج الناصعة ، ولكننا ننشد قبل ذلك الناس فهم الذين يقودونا في مسالك الأرض وفي لجج البحر وفي طبقات الجو ، شاعرين في مسيرنا بذلك القلق الذى لا يمل والذى يسوق الرحالة الأصيل كما تسوق المرأة دون جوان .

وإن هذا الهناء الروحى المنسوب إلى الحياة الزوجية هو الهدوء .

والكاتب يتطلب الاضطراب الزواج هو النظام ، والكاتب يحب الفوضى وهو الاتزان ، والكاتب ينثر النززع والزواج هو الاستقرار .

فانا لى نكتب يجب أن يختل ميزاننا ، ويتزعزع كياناتنا ويضطرب حالنا ، ويخفق أشد الخفق ، فوادنا ، ومن ثم تنشأ عن الحياة الزوجية تلك للقيوبة السعيدة التى تشبه تدخين الآفيون ، فلا يفىق المرء إلا مصدع الرأس ، رضى الأعصاب ، فاطر الفكر ، هامد الشعور .

وهكذا يتمازج غرضه ان أسما بين حياته الزوجية الخادمة الهادئة تحت
انقاض الهدوء والما في بيئة الأمن ، وبين كل تلك اللذات الروحية
والجسدية التي صارت حراما عليه في شكل البيوت والفنادق أو البنسيونات
التي تقويه خلال رحلاته ، المبنية من حجارة أو خشب ، المقامة على ضفاف
البحيرات الصافية ، أو الصخور الزهرة ، أو تحت سفح الجبل ثم تلك
الخدائق الغناء التي ليس لها أبدأ بنفس الزهور ولا نفس الظلال ، ثم ينابيعها
وجداولها المترقرة ذات الموسيقى ولا ذات الانغام ، ثم شمسها التي
لا تدخل أبدأ من ذات النوافذ ، ثم امطارها التي لا تهطل أبدأ لمستوى واحد
فتهطل مرة رزاراً ، ومرة مدراراً ، ثم الخادمة التي ليس لها قط ذات
الابتسامة ، ثم أصوات أولئك المارة أو اتباعا الذين يتجولون تحت نوافذه
ولا يتكلمون أبدأ بذات اللسان .

هذه حيرة الكاتب بين الحب والزواج والرحلة ، يصورها الصاوي
على إنها أسمى مرحله في حياة الكاتب حين يريد أن يضحى ، أو يمضي أناانيا
وراء فنه ومهنته .

أبراهيم المصري



يلتقى إبراهيم المصري مع أحلامي ، فهو فيما يكتب وفيما يترجم وفيما يلخص عن كتاب الغرب يصور النفس الحائرة المحبة المتطلعة إلى المجد والحب وهذه هي الزاوية التي يواجهها دائماً . إنه ظالم إلى الكمال الروحي يبحث عن وسائله وأسبابه . ويقول أن هذا الكمال لا سبيل إليه لأن المجتمع يضطر صاحب المشل العليا إلى النفاق ليعيش وأن القليل منهم هم الذين استطاعوا التغلب على الغرائز والسمو عن انصاف الحلول وانصاف الفضائل . ويعده تولستوى استاذة الروحي فهو عنده الفنان الأكبر الذي دعا من الصفاء .

ولقد قرأت له منذ عام ١٩٣٠ وأعجبت به . وشاقني أسلوبه العربي البليغ وتناوله للموضوعات وحرية رأيه . ولعله أول من كتبوا الدرامات المسرحية وقصته ونحو النور ، التي نشرها متفرقة في البلاغ وضمها كتابه الفكر والعالم قد سبقت ، أهل الكف ، التي كتبها توفيق الحكيم والتي عدت في تقدير بعض النقاد من أول قصة من قصص الحوار .

ولعل هذه القصة تمثل شخصية كاتبها . فهي كما وصفها « مرحلة من حياة عبقرى » تدور حول الصراع الذى يلقاه الفنان فى بيئته وبين زوجه وأهله عندما يحس أن أحداً لا يفهمه أو يتجاوب معه .

ولقد عنى إبراهيم المصرى بأدب المقالة وتخصص فيها . ولكنه عكف فى السنوات الأخيرة على قصص الحب وكتاباته وتناول الحياة الاجتماعية وعندى أنه كاتب الحب الأول فى مصر . وله فى هذا أراء رصينة جاءت نتيجة دراسات مستفيضة وخبرة واضحة .

« أى قيمة للجمال الشائع فى نظر الحب . الحب لا يحفل بمظاهر الحس البراقة التى اصطالح عليها المجتمع . الحب يتصيد الجمال الخفى . الجمال المستور .. »

ومن نظرياته التى التقي معه فيها قوله « الحب فى نظر المرأة هى كل شىء . ولكنه لن يكون أبداً كل شىء فى نظر الرجل . والمثل الأعلى للمرأة هو كمال العاطفة . والرجل الذى يتغالى فى العاطفة . ويسعى لاكتمالها تحقره المرأة من أعماق نفسها وتكرهه لأنه ينافسها . أما الذى يحبها وهو لا ينفك يؤكده سلطانه بالبحث عن قيم عليها أغلى وأثمن منها ، فهو الرجل الذى تعجب به وتحبه وتشجعه لأنها ترى فيه رمز الرجولة التى لا تناقص طبيعتها .. »

وهو يصل إلى جوهر النفس الانسانية ولبابها فى تصوير هذه التجربة « كثيراً ما نشعر أننا فى حاجة إلى الحب . ثم تلفت حولنا فلا نجد المرأة المثالية المنشودة التى نبحت عنها فنهزع إلى أية امرأة تلقى بها الظروف فى طريقنا ثم نحاول أن نصطنع الحب بها . ولكن الايام تمر واصطناع العاطفة يغدر بنا وينقلب شيئاً فشيئاً إلى استهواء ذاتى يجذبنا إليها ويربطنا بها ويدفعنا

بالرغم منا إلى حبها حباً قوياً عنيداً لم نكن نتوقعه أو نحلم به . ثم نستفيق
فاذا المرأة التي تورطنا في حبها تبدو أمامنا على حقيقتها مخلوقاً شائعاً تافهاً
سخيفاً لا يمت بأي صلة إلى الصورة المثالية التي كنا ننشدها ، فنحاول أن
نقاوم ولكن العادة المستبددة تتمكن منا .. ونصل إلى المرحلة : أننا نجب
امراء ونشعر في الوقت أنها غير خليقة بنا . وأننا في صميم نفوسنا لانستطيع
ونحن نجبها إلا أن نحتقرها ونكرها

وابراهيم المصري أديب اشتغل بالصحافة واحترفها ولكنه ضن بأسلوبه
عن الابتذال وصانه عن السرعة التي تذهب بقوته ونقائه . وقد تناول حياة
المحبين من الأعلام والعظماء والكتاب والفنانين وصور حياة كل عاشق وكل
عاشقة وقد نشر في سنواته الأخيرة مجموعة من القصص العالمية الرائعة كانت
عاطفته واضحة من وراء قصص أصحابها وله قبل ذلك مجموعة من المؤلفات
التي أهي مجموعة مقالات نشرها في البلاغ وغيره من الصحف عن الحضارة
والفنون والآداب في عصر الآله . وله فصول قوية عن بيروت وبروست
وبودلير وهو من المدرسة التي بدأت تبرز بوضوح في عام ١٩٣٠ وما بعده
وزملائه الصاوي وابراهيم ناجي ، هذه المجموعة التي انشأت الصفحة الأدبية
لاول مرة في الصحافة اليومية وغذتها بفنون عن المقالات والقصص

وأكد أعتقد من وفرة ما كتب ابراهيم المصري من قصص الحب أنه
لم يغادر قصة رائعة من هذه القصص العالمية إلا وكتبها بأسلوبه الرائع وطريقته
الشاعرية التي تجذب فيها عاطفته وروحه وأشواقه الروحية .

وابراهيم المصري من ذلك النوع الذي يعكف على نفسه ويحب العزلة
ولا يختلط كثيراً بالاجتماع . ولا يعرف عنه انه سافر كثيراً أو أحب الأسفار .
وربما عوض ذلك بالسفر في بطون الكتب وإن كان قد عرف عنه انصرافه
في الأيام الأخيرة إلى كتب العاطفة والحب وقصصها ودراساتها . وهو من

المشغوفين بالأدب الأوربي والفرنسي بوجه خاص . وله أسلوب متميز في الترجمة
ينقل به أفكار المؤلف في أسلوب عربي ناصع رصين .

ولذلك فانت لا تجد عند « إبراهيم المصري » هذا اللون من الرغبة في
الصراع أو السجال وهو لم يشترك في مثل هذه الألوان . بل حرص دائماً على
أن يكتب في « موضوعية الأدب » وإن يمارس دراسة التراجم للابطال
والأدباء والأعلام .

ولما أرتفع السن به بدأ يرسم صورة للحب والكهولة .

« قد يشعر فرد من الأفراد أنه إنسان ممتاز وإن مواهبه قد أعدته لعظائم
الأمور فتراه يقضى أيام صباه في تثقيف عقله . وترقية وجدانه . وتهذيب
روحه . وتطهيرها من شوائب النقص بغية الوصول إلى هدف عظيم يمثل
في نظره مثلاً أعلى .

فاذا ما أقبل هذا الرجل على الكهولة أحس فراغاً شديداً يكتنفه . وعزت
عليه حياته التي أمضاها في شرف الكفاح والعمل . وطافت به أشباح المفاتن
والمباهج الدينية التي حرم نفسه عامداً منها ليستطيع أن يجاهد ويصل
فاستيقظت فيه بغته رزيلة الطمع واحتواه حب المال وسحره إغراء المراه
وجرفه بتار العبث والتمتع . ويشعر الرجل أول الأمر بالقلق والحيرة
والتخبط فيتألم . ولكنه يظل يتأرجح بين سموه النفساني القديم وبين شتى
عوامل الإغراء المتألمة عليه قيود أن يفقد نفسه . ويثوب إلى رشده .
وينتفض على ضعفه . ويذكر ماضيه ويرتد لا نذا بطيف مثله الأعلى .
وإذا حبه المراه والمال وهي تفتح عينيه على مفاتن لم يكن قد أبصرها من قبل
تلوح له بالموت القريب فتشده إليها وهي تهمس في أذنه أنه لا حياة بعد هذه

الحياة وأن كل شيء باطل ما خلا النعمة الدنية الأصلية في وجوده . وهذا
الشیطان يحوم - واما جميعا . وترى بنا جميعا . ولا ينالك يوسوس لنا
في مهبط العمران تتذكر ما غيأ ونخون مبادئا . فأنحدر في مغرب حياتنا
أرب ذلك الشيطان ..

وانى لا ذكران « إبراهيم المصرى » كان على رأس فريق المجددين من الشباب
عام ١٩٣٠ . كان استجابة صادقة لروح الجديدة التي بعثها رواد الأدب في
الأدب العربى المعاصر فأنجى بالأدب وجهة الترجمة والابتداع معا . وحرص على
أن لا تأكله الصحافة أو تدفعه إلى محيطها الجارف فظل صامدا في ميدان الأدب
الرفيع لا يريم وفى البلاغ وفى التراجم ودراسة الشخصيات والحب ودراسة
العاطفة وقدم للأدب العربى باقة رائعة من هذه الألوان التي تجد صداها فى
النفس الإنسانية الشرقية لأنها تصور العاطفة فى سموها وانحدارها على السواء
واستأنى لا إبراهيم المصرى انه رحب بانتاجى فى مطلع العمر ورغب
الى ان ارسل اليه بما اريد نشره وقد كنت يوميا فى الريف لا اجد من يأخذ
بيدى الى مجال الادب الرفيع

ميخائيل نعيمة

« ثلاثة » أشياء في حياة ميخائيل نعيمة تهر من يدرس نفسيته ويبحث وراء معالمها الظاهرة : الصداقة الخالدة ، والوحدة الصوفية ، والتعمق في فهم الحب أما الصداقة الخالدة فهي صداقته لجبران خليل جبران ، وإن من يقرأ كتابه الضخم الذي كتبه عن صديق شبابه وصنوره « جبران » يدهش لهذه العاطفة العميقة الضخمة التي تظهر في كل سطر من سطورهِ وتشع حتى لقد عد هذا الكتاب من التراجم الرائعة ، التي ترسم صورة للصداقات الأدبية الرفيعة التي فلما عرفها الشرق من قبل ، ولكن هي الغربة والألم والأدب والنوحات الروحية المزدوجة بين نفسين تطلعا إلى الحياة والمجد والحب ، ولعل وحدة « ناسك الشخروب » مرتبطة إلى حد ما بوفاة صديقه جبران فإنه قد هجر نيويورك سنة ١٩٣٢ واعتزل الناس في صومعته في الشخروب حيث أطلق عليه لقب الناسك .

ولكن ميخائيل لا يريد أن يقال عنه أو يقول عن نفسه أنه ناسك ، « ما أنا بالناسك ولا هجرت الناس . ولا هجرني الناس ، لأنني أحياء للناس إذ

أحيا لنفسي ، وأن أتحدث إلى إنسان عينا لعين ووجها لوجه خير من أن
أتحدث إليه بالخبر والقرطاس ، وأن أكسب معرفة إنسان لأفضل من
أن أكسب إعجابه ، فالوقت ليس من ذهب .

وهو يرى أن العزلة بالنسبة له كالماء والخبز والهواء فهو حريص كل
الحرص على عزته ، ولعل بين عزله وبين حبه العميق للطبيعة رابطة ، أنه
يحب الطبيعة على صورته لم تعرف عن الشعراء والفنانين يقول « خليك بي
أن أنتهد بما للطبيعة العجاء في عزلي من أثر بعيد ، وأياد سخية ، فانا منذ
حدثني قد الفت هذا الطبيعة الجبلية وشغفت بصخرها وترابها وأشجارها
وأعشابها وطيورها وهوامها ومائها وهوائها وسماها وكواكبها وأنوارها وظلالها
والوانها المتبدلة في كل طرفة عين تبديلا يسحر القلب والعين ، والبحر الحالم
يدا عند اقدامها ، الفتها وشغفت بها في كل فصل من فصول السنة وفي كل
ساعة من الليل والنهار فانا أحسها فورات من النور ، وآونة السنة تخاطبني
بلغته أوليات ما حوتها قط بطون المعجيات ، وحينما يغمرني الشعور باموتها
فاراني كالرضيع على صدرها ، ولكننا ترضعني من ألف ندى وثدى . وتنس
اجفاني بالف كف وكف ، وتعزف لي على آلاف آلاف الاوتار ، وهي في
كل ذلك رفيعة إلى أقصى درجات الرفق ، وجواده حتى آخر حدود الجود ،
أما الحب فان ميخائيل نعيمة يصل في تصوير هذه عاطفة إلى مدى بعيد
من العبق ، هذا العمق الذي يعطيك إيمانا بصدق تجربته وتعدداتها ونوعا .
« ما انفك الحب منذ أن كان الناس ، يجعل من الصعاليك ملوكا ومن
الشياطين ملائكة ، ومن الأندال أبطالاً ، ومن سلالة آدم وحواء آفة ،
خليقة بالتسبيح والعبادة ، ومن ذا غير الحب يستطيع أن يسمو بالانسان
إلى خد أن يجعله يخاطب إنساناً نظيره بمثل هذه الكلمات ، « معبودي » .
إنما الحب وحده يملك السر في تحويل الانسان إلى ما فوق الانسان ،

والحب وحده تبارك سحره — يملك المفتاح إلى قدس اقداس السمادة التي
يشدها الكل فلا يلحون وجهها الا في لحظات نادرات هي من العمر
زبدته ولبابه وناره ونوره وما تبقى فرغوه وقشور ، وحطب ورماد .

نعم : هو الحب يحلو بصائرنا وأبصارنا ، وإذا بنا مرآة صافية تعكس
المحبوب صافيا ، وإذا المحبوب أكثر من عظم ولحم ودم ، وأكثر من يشعر
بعقل ، وينطق ويأكل ويشرب ويشتهي أشياء ، ويهرب من أشياء ، وإذا به
فتنة وروعة وجلال وطعام وشراب لا تستقيم لنا بدونها حياة ، فهو الكيان
المتمم لكياننا وهو الحياة في حياتنا ، والرجاء في رجائنا ، والإيمان في
إيماننا ، به نكتمل ونخلص ، وبدونه نبقى ناقصين ونهلك ، به نحيا وبدونه
نموت ، به الوجود حلوة وهناء ، وبدونه حسك وحنظل .

هذه هي أبرز معالم حياته ، وأن الكثيرين ايربطون بين موت جبران
وعودته إلى لبنان ، ترى هل كانت وفاة صاحبه وصفيه نهايه مرحلة في نفسه
دفعته إلى أن يتحول إلى التأمل ، ترى هل قتل في الحب فانتقل إلى الطبيعة
يمزج بها وجوده .

لقد عاد بعد عشرين سنة قضاه في العالم الجديد فلماذا ؟ إنه يصور فلسفة
العودة ويرسم لنفسه سر التحول : ويضع أيدينا على نقطة الانقلاب النفسي الذي
اعتراه ودفعه إلى أن يترك نيويورك العاصبة إلى سومر مـ زوله في الجبل الاشم
« إنني بعد عشرين سنة قضيتها في الولايات المتحدة شعرت بحاجة إلى
الاستحمام في نور البساطة العارية من زخرف المدينة وغشها وتشويشها ، فقد
ابصرت الحياة حقيقة بسيطة عارية ، ورأيت الناس في كل ما يعملون ويقولون
ويؤمنون ، إنما يسبرون عرى الحياة باقيسه لا تحصى من أودام تقاليدهم
ومعتقداتهم ، فيخسرونها من حيث لا يعلمون . ولذلك يتألمون ويشقون ،
وقد وجدت أن الله يبدو سافرا في هذه البلاد السافرة ، حيث أنه في مدينة

كنيويورك تحجبه طبقات كثيفة من ضباب الأوهام والتقاليد الكثيفة
فلا تلمحه البصيرة حتى يخفيه البصر ولا تقترب منه الروح ، حتى تعصية أهواء
الجسد ونزعات النفس .

هذه الحضارة الغربية الصاخبة القائمة على مقاييس المادة لا يمكن أن ترضى
هذه الروح الهائمة الطائرة ، الشاعرة التي تؤمن بالمثل العليا وبالعاطفة
وبالروحانية وبالنسك والجمال المجرد . لذلك كان لا بد أن تقع هذه الوحشة بعد
موت جبران فيراد ميخائيل من الاعماق إلى أن يعود .

« عدت وفي أذني ضجيج مدنيات لا تحصى ، وفي رأسي براكين من
الافكار وفي قلبي حنين إلى عزلة أستطيع أن أغرق في صمتها وسكونها وجمالها
فاظهر لاذني من الضجيج وأفرج عن رأسي ما فيه من البراكين ، وأبرد بعض
ما في قلبي من الشوق والحنين ،

تراه الآن بعد ربع قرن من عودته أحس بالهناء ، وهل يمكن أن تنهأ
النفوس الطامحة الدقيقة الحس العميقة الغور ، أو تقر ؟ لعله في شوق إلى
تجربة أخرى . لقد شارك ميخائيل نعيمة في صناعة هذا الفن الجديد الذي
عرف في الأدب العربي الحديث باسم « الأدب المهجري » وكان له إلى جوار
أخوانه وزملائه نصيب كبير ، إنه تتلذذ على الاجنحة المتكسرة . وله
« الاباء والبنون ، وزاد الميعاد وهمس الجفون . والبيادر ، والنور الديجور
وغيرها من الآثار التي أصدرتها الرابطة الأدبية ، وله « الغربال ، الذي يعد
ركيزه من ركائز الاتجاه الجديد في الأدب العربي المعاصر إلى الابتداع
ومحاربة التقليد .

ومنذ ١٩٢٢^(١) وميخائيل نعيمة يعلن رأيه في إيمان « أن الشرق لني غنى

عن اقتباس حرف واحد من المدنية الغربية . أنا عارف أن المدنية الغربية
وأن تداعى نفياتها لا تزال براقة غرارة وإنما لن تهوى إلى الحضيض قبل أن
تشمل المعمور بأسره ، أيرشقى من إ شاء بأن رجعى يريد أن يعود بنا إلى
مجاهل الدين وخرافاتة وهو فى هذا الاتجاه يختلف عن صديقه وصفية جبران
الذى كان كلفا بالحضارة مؤمنا بها .

ولعل أبلغ صورة لفلسفة ميخائيل نعيمة تتجلى فى إيمانه بخلود الفن
والآدب . « غدا ستفمرنا لجة العدم بأحزاننا وأوصابنا . يفقرنا وموسرنا
بوجهينا وفقرنا وستقوض الأيام أركان ما شدناه من البناءات السياسية
والاقتصادية فلا تبقى إلا الخالد الجميل والحق فينا .
ومن ذا الذى يتقى ليخبر عن الخالد والجميل فينا . إن لم يكن الآدب
والفن .

انطون الجميل



ليس يفتنني في شخصية « انطون الجميل » ، الانسان إلا عبارته المدة :
« اعز ما يحول بقلبي من الاماني العيشة بسلام . سلام مع نفسي و سلام
مع الغير » ، وانطون الجميل كاتب وأديب . قد طوته الصحافة فعاش ذا . بل
لقد غمرته حتى قطعتة عن الانتاج الادبي . و لكنها لم تستطع أن تصرف
نفسه عن ايمانه بالسلام النفسى بالرغم مما تدفع الصحافة إليه من صراع . .
وفي « انطون الجميل » ، ذلك الطابع الحلو ، في دماثة الملق والساحة التي
نعرفها في جرجي زيدان و خليل مطران ، وقد دفعه استعداد النسي هذا
أن لا يتعصب ولا يتميز . فكانت عنده من سعة الأفق والرغبة في السلام ،
ما حال ذلك بينه وبين الانزلاق إلى العنف والخصومة .
بدأ حياته معلماً . ثم اتجه إلى الأدب وأغانه على ذلك ثقافته الفرنسية

والعربية القويتين . وقد هاجر من بيروت إلى القاهرة سنة ١٩٠٩ ، في تلك الفترة التي هاجر فيها الذين ضاقوا بالاضطهاد في الشام . وفي القاهرة أصدر الزهور وحرر في الأهرام الفرنسية واشتغل بالترجمة . وتنقل في وظائف الحكومة . ثم اعتزلها حيث تولى رئاسة تحرير الأهرام .

وأثار كتابة عن شوقي ضجة ضخمة . وفتح باب سجال أدبي عنيف بين طه حسين والعقاد حول الثقافة اللاتينية والثقافة السكسونية فقد تناول شوقي بأسلوب فيه رقة ويسر . ووصف العقاد هذا الأسلوب بأنه طريقة الصالونات الفرنسية التي لا تصرح ولا تهجم ولا تنقد في قوة ولا تكشف عن العيوب الأدبية في وضوح .

ونسى الناقدون أن هذه هي طبيعة انطون الجليل وأنه كان في أسلوب كتابته عن شوقي إنما يصدر عن طبيعته الخالصة التي لا يستطيع أن يعقها . . وأسلوب انطون الجليل شعري في صورته وإخيليه والفاظه وتضمينه للشعر ورواياته « أبطال الحرية » عن الانقلاب العثماني و « السموال » عن وفاء العرب تعطي اتجاه انطون الجليل والرابطة بين ماضيه وحاضره . فهو عربي تتمثل له العروبة في وفاء السموال . وهو مؤمن بالحرية تتمثل عنده في صورة تحطيم الطغیان العثماني

ولقد كان لانطون الجليل حبا عميقا عفيفا : ذلك هو حبه « لى » . كان يحب « دى » حبا صامتا . إذ جمع بين روحيهما التقارب في الاتجاه الأدبي وقربا الوطن وغربه الدار .

وفي رسائله الى « دى » صورة نفسه .

« يا لى يا لى أن أخاطبك باسمك مجرداً من الوصف واللقب . لأن كل وصف قليل إذا ما قيس بصفائك . وكل لقب ضئيل إذا ما أقرن باسمك فاسم « دى » وكفأك به ووصف ولقب قد أصبح في هذا الجيل يرادف حسن

البيان وفصاحة اللسان ونبوغ العقل وكبر القلب .

وبعد فقد طلع على كتابك في ليلة العيد مع هلال الشهر محوطا بهالة من نور هو نور نفسك الفياض . لا عجب اذ تقبلت ما فيه من عواطف سامية وما معه من هدية ثمينة شاكرآ ممتنا . فانه ما دون ذلك يستوجب الشكر والامتنان . فكيف بذلك كله بحلى بما شرفنى به من صداقة عالية .

على انى ما أتيت إلى آخر كتابك حتى مزج شعورى هذا شئ من الاحتجاج ، الاحتجاج الشديد ، على ما نسبته إلى من النعمة على خطك والضحك على حروفك ووالله ما رسم خطك إلا كل بديع وطريف ولا عبرت حروفك عن كل سام وشريف ..

« بلغت إلى البحر ما زودتنى له من سلام وتحيات . الساعة الآن متأخرة من الليل ولا يسمنى إلا الانتقال بالفكر إلى تلك الشرفة الشاهقة ذات الفضل العميم على من مثل هذه الساعة . فاقف طويلا عن الكتابة ضائعا في بحار الذكريات . بل أن الكلمات تعصاني فأبحث عنها ولا أجدها . »

ولكن الأمر بين انطون الجميل و «امى» انتهى إلى شئ من القطيعة بعد عودتها من المستشفى فتمد كان شغل عنها أثناء مرضها ،

وقد لخص انطون الجميل حياة في هذه العبارات الموجزة الواضحة :
« يقولون أن في حياة كل انسان ملحوظة رجلا وامراة وكتابا . كان لهم الأثر الأول في تكوينه أدبيا وخلقيا .. »

والرجل الذى أثر في تكويني الأذى هو الأستاذ الذى كان يدرس لنا البيان والبلاغة . والمرأة التى كان لها الأثر البالغ في تكويني الخلقى فهي «امى» التى علمتني الجلد والتسامح ومعاملة الناس بالحسنى .

أما الكتاب فان المثل اللاتينى يقول « احشى رجل الكتاب الواحد » ولعل خير كتاب يفيد الأمة الانسان هو « كتاب الناس »

جميلة العلايلي



و على (١) وجهها وجوه كثيرة تحمل من السكابة مسحة بادية . ويروعك هذا الجرى المتواصل وراء النظاها التي تحتبس وراء شفها كما همت بأن تتكلم هامت يدينا بجولة غير محدودة . تهرم بدنيا ما وتشد في ألامها ما عجرت عن تحقيقه في رقيقة العيش .

وهي ليست شاعرة أو فنانة فحسب — بل هي — رابعة لا تقنع بنشد أن الطمأينة والصفاء في هيكل واحد . واسكنها تنتقل من دير إلى دير تجر وراءها أنقلا من الشجن وكأنها تخشى أن تهوى ثانية إلى عالم الماديات والحب الضائع والحسنه التي تجزى بالشر .

(١) هندية : كتبتها في مجلة الحديقة والمنزل (سبتمبر ١٩٣٨)

وإذا خدتها تدرك وراء ذلك كله ظمأ لا تنفع له غله ، يحدها إلى ارتياد
المجهول تلبس فيه قبض الريح فتعلم لما وتموتك رغبة من الاشفاق عليها .
تعذب نفسها وتشتها وفي يدها خلاصها . لذا كان من العسير أن يفهمها
أى رجل وكذلك من العسير أن تحب أى رجل لأنها لا يمكن أن تخضع بالحب
فعاشت المثيرين من عمرها ويزيد بمحنة حاملة تنتقل بين الأرض والسماء .
عذاب لا ينتهى . وظمأ لا تنفع غلته وهى مستوية القلى — تحلق — ولكن
سرعان ما تجذبها الأرض متبرمة ، ثم تدوى فى أذنها أناشييد الرجاء
ويختلجها الحنين إلى المجهول الناقى . إلى الغامض الذى لا يفسر . ولا يسقط
منه قناع وقد أبت الطبيعة عليها ذلك بعد أن لقحت انسانيته السامية بزاز
ترايبية . فى حمايتها توالد جرائم اللذة : لذة الجسد ولذة القلب .

امراه بما يصطخب فى قلبها من تيارات فائرة وينابيع صافية ساجية جمّة
المحاسن وافرة الرواء . وتديما تلبس هذا المارض فئة من الشعراء فأحاطم شكاه
متبرمين . ولطالما حاولت أن تكون فتاة حياة وتعيش على الأرض التى جبلت
منها طينتها . وحاولت أن تلقم ذهب روحها بشيء من النحاس ليصلب عوده
على أنها لم توفق فى محاولتها مع أنها فى مستقبل الشباب ولما من هذا الشباب
وسامته وعبقه .

ولو شامت للعبت بالحياة والرجال بطرف أناملها فهى محبوبة مرغوب
فيها ولكنها تريد أن تشاهد دخان نفسها وهى تحترق فى بطن لتسجل شجوها
فى سطور وترسمها فى خطوط وظلال وتصورها فى نغم والحنان شاعرة ،

هذه لوحة فنية رسمتها جميلة العلالى ابنة طلة اطلقت عليها اسم « هندية »
ولا نعدو الواقع إذا اعتقدنا أنها إنما كانت ترسم صورة نفسها فى هذه الفترة
من الزمان .

أحبت الأدب منذ صباها الباكر . وأعانها على ذلك طبيعة شاعرة وبيئة علم وثقافة . وجو رائع . فقد فتحت عينها على ضفاف المنصورة حيث النيل هناك يرسم صورة ساحرة .

وقد اتهمت منذ صباها كل ما وقع في يديها من الإنتاج الأدبي وبدأت تكتب مبكره ففي عام ١٩٢٦ أصدرت أول رسالة لها . وعندما أتاحت لها فرصة الانتقال إلى القاهرة أندجحت في البعثات الأدبية وأرتادت المحافل الفكرية وربطت أواصر صداقات أدبية متينة مع كبار الأدباء . وكانت من رواد أبولو ومن الشاعرات اللواتي اعتر بهن الدكتور أحمد زكي أبو شادي . وفي أبولو والرسالة نشرت طائفة كبيرة من قصائدها . ولمع اسمها وهي فتاة لم تبلغ العشرين وكانت من صديقات مي والمعجبات بهدى . ثم انصلت بالصحافة . وأنشأت مجلة « الأهداف » وبدأت تكتب القصة وتعبّر عن آرائها بالنثر والترسل أكثر مما كانت تفعل قبلا . وبقي الشعر روحا طائقا يهفو إلها وتهفو إليه بين حين وحين . واستهواها التأليف أكثر مما استهوتها الكتابة في الصحف الكبرى .

وهي تؤمن بأن لها رسالة : « أن لي رسالة خاصة أستطيع أن أقوم بها من وراء السماء أن اجتفيت هناك . ومن عبر البحار أن عشت خلفها . أن رسالتي أن الهم وأوجه . أن رسالتي كالسكرباء . تنتج في سكون وصمت . بعيدا على الضجة الكاشفة .

وهي إلى هذا كاتبة فنانة . صادقة الحس . دقيقة الشعور . تعيش كل لحظة في حياتها وتسجل كل لحظة في وجودها . بالنثر أو بالشعر .

وقد رسمت عاطفتها في الشعر والنثر صريحة واضحة . وكانت جريئة في اتجاهها هذا الذي بدأته مبكرة .

وقد أحبت الرحلة والسياحة وسافرت إلى سوريا ولبنان وفلسطين وكان لها من هذه الرحلات زاد نفسى عظيم .

وقد أحبت من أعلام الإنسانية غاندى و طاغور و أحبت فيهما الروحانية العظيمة والإنسانية الصادقة .

وترى أن «مى» هى الرائدة الأولى للادب النسوى . وتؤمن بها صادقة الحس عميقة العاطفة .

ولم يعجبها فى الآداب المحدثين غير الرافعى .

وهى تؤمن برسالة المرأة كاتبة وملهمة وموحية وداعية للخير وترى أن مكانها البيت وترى أن الهيئات النسائية ليست إلا أدوات للظهور والدعاية الكاذبة تقول : على أننى أرجو ألا تستهين المرأة بمواهبها الأصلية وأن تثبت للرجل أنها لا تضحي بالأسرة ابتغاء مركز اجتماعى تفاخر به . فإن مفخرتها الأكيدة إنما تكون بتكوين الأسرة لتنشئ جيلا جديدا لا يعرف غير المعنى الإنسانى السامى .

سهير القلماوى



لا تعطيك أثارها شخصيتها . فإذا أردت تستجلي ملامح طبيعتها أو أو شئائل نفسياتها أجهدك هذا .. فهي لا تحدث عن نفسها كثيرا . ولا تصور معالم حياتها . وتتلخص حياتها في انها من الجامعات الأولى . وأنها تليذة الدكتور طه حسين ..

ولأنها بدأت دراستها في الجامعة الأمريكية ثم انجذبت إلى كلية الآداب . ثم سافرت إلى فرنسا حيث قدمت رسالتها عن « ألف ليلة » ثم عادت إلى مصر فعملت في الصحافة مع طه حسين في كوكب الشرق ..

وآثرت البيئة الجامعية وتفرغت لها إلا من بضع قصص أو مقالات وفصول تنشرها بين آن وآخر . أو تذيعها . وانصلت إلى ذلك بالحركة النسوية وعملت في ميدانها

ولعل الذين سمعوا صوتها وطريقة القاءها يدهشون لهذا الطابع العلى الذى تحاول دائما أن تلبس ثوبه . وهى كالسيدة أمينة السعيد فى أسلوبها

رجوله . وفي معالم كتاباتها ذلك الطابع الذي لا تسكاد تحسن معه انك تقرأ
لأننى . ولعل مرجع هذا الى أنها عاشت في بيئة الجامعة والعلم والبحث طويلا
وهى تحب الرحلة . وقد اتيج لها أن تسافر إلى امريكا وإلى بعض بلاد البحر
الابيض المتوسط كلبنان وقبرص وتؤمن بأن السفر يفتح افاقا جديدة .

وهى تؤمن بأن الأدب للحياة وتقول : الأدب في الواقع لا يمكن الا أن
تكون له غاية . والحياة كلمة متسعة كما ترى تتضمن الفن . وقد تتضمن كل
شئ . لذلك أرى أن الأدب مجرد اللذة الفنية أو ليوذى خدمة اجتماعية أو
سياسية أو اليتق بأن يكون موضوع المناقشة . والمشاهد أن الأدباء
منهم من ينصب نفسه هاديا ومنهم من لا يعنيه إلا أن يقول ما يحسه . وكلاهما
أديب بل أحيانا أديب ممتاز ..

وقد كتبت سفير في الثقافة عام ١٩٣٩ فصولا عنوانها : في سبيل جيل
جديد عرضت فيها لبعض آراء علماء التربية . كما ترجمت كثيرا من القصص
عن كتاب الغرب .

ولكن سفير القلماوى بالرغم من هذا الطابع العلى الذى تسبغه اليوم على
شخصيتها — كانت لتقول شعراً فى عام ١٩٣٣ وهذا نموذج من شعرها :

فى سكون الليل يحلولى البكاء فأروى القبر من روى الوفاء
أترى روحك تسرى فى المساء فى سلام وسكون وصفاء
أم ترى حيرى تهيم فى الفضاء

يا حياة عشتها كانت ممات أنت فى القبر ومن قبل رفات
أنت سرت من سباب لسبات ضحك الموت ومن قبل العناء
فضيت من عفاء لعفاء

كم رددنا الطرف والطرف حسير وسكبنا الدمع والقلب كسير
وسئمتا العيش فالسعى عسير آه يارباه حتام الشقاء

أن حى العيش فى جسمى كداء

أترى قدر للنفس الخلود كل من يدري يولى أن يعود

قد عرفت اليوم ما سر الوجود فارحمينى . خبرينى . ما الفناء

ان نفسى فى عذاب وعناء

ويعطى هذا الشعر صورة العاطفة العميقة . والروح المشرقة الطليقة .

فهى تذكر إنسانا عزيزاً فقدته فسئمت العيش وسكبت الدمع . وهى تتعمق
الاحساس فتسأل عن الموت والخلود والفناء ...

وسير القلبواى تعطى فى انارها وإنتاجها المقل طابع العلماء أكثر مما تعطى
صورة الادباء والصحفيين وهى فى هذا تختلف كثيراً عن بنت الشاطىء . وأمينه
السعيد .

فهى لا تمارس الكتابة بصفة دائمة وهى لم تمارسها كذلك إلا فى سنوات
٣٩ - ٤٢ وبالرغم من أنها بدأت عملها فى الصحافة بعد تخرجها من الجامعة
وكتبت فى كوكب الشرق باب المرأة ، فانها تحوالت فيما بعد إلى الكتابة ذات
الطابع العلمى فأصدرت كتابها الاندلس .

وهى فى هذا الاتجاه تمشى مع طابعها النفسى . طابع الاعتدال والتريز
والبعد عن محيط الصراع . والرغبة فى اسباغ جو من الهدوء والسلام . فهى
ليست مقتحمة أو مصارعه ولا تحب الدخول فى فيها مساجلات . ذلك
الطابع الانطوائى الذى يكعف على القراءة والمطالعة . وعلى رعاية الأولاد
وتنشئة الأطفال .

فاذا ذهبنا نقصى أسلوبها فى الكتابة وطريقتها فى البحث

الفيناها قريبة في النهج من استاذها الدكتور طه حسين مع استقلال واضح في شخصيتها .

وهي كالجامعيين لا تعطي الادب تابع الحرية ، وانما تؤمن به في حدود من النظريات وقیود من الاوضاع والقواعد . وإن لم يكن الادب في يوم من الايام مقيدا أو مستعبداً .

لقد قالت سبیر الشعر في أول الشباب . وكانت بعض فصول انتاجها تعطي الطابع النفسى هذا الطابع الهادى . الذى يرسم صورته السلام والانطواء والصفاء الروحى . واسكنها تحولات بعد ذلك حيث أوغلت في الطابع العلمى وأوفت للروح الجامعى كل وفاء . وإن كان ذلك فى الاغلب على حساب الادب المتحرر من كل قيد .

أمينة السعيد



كاتبة ناثرة . لا يؤمن من يقرأها بأنها « اثوية الأدب » وإن كن لقائها يعطى صورة عكسية لهذا الاحساس فأننى كثيراً ما أراجع ما نكتب على أنه من كتابات الرجال لا أجدنى أجده فارقاً كبيراً . أن فى طبيعتها وأسلوبها ذلك الطابع الرجل الذى يصدر عن طبيعته جريئة شديدة الجرأة . معتدة شديدة الاعتداد

ولعل هذا يرجع إلى أن « أمينة السعيد » كانت من أولى فتيات اللواتى اقتحمن حرم الجامعة فصادقتهن تلك المتاعب التى تعترض أى طريق جديد خاصة فى بيئتنا منذ ربع قرن عند ما بدأ الاختلاط فى محيط الدراسة

ولعل مصدر هذا أيضاً . أنها وثقت بالناس فى صدر شبابها ثم تبين لها عكس ما كانت تعتمد . . . كنت فى فجر شبابى شديدة الثقة بالناس آخذ بمظاهرم وأحكم على اخلاقهم بما يتبدى أمامى من أقوالهم وافعالهم على اعتبار أن الوجوه مرآة صادقة لما فى القلوب . وبدافع من هذه الثقة العمياء أخذت من بين معارفى أصدقاء . ظننتهم نبلاء . فاخلت لهم الوفاء . وكانت

حياتهم موحشة فأنستها بعطفي . ونفوسهم كسيرة فقومتها بحنانى . ثم كشفت
القلوب عن سترها .

فرأيت القبح فى صور لها أعجبت بجمالها . فأوجعنى قلبى لصدمتى . وضاق
صدرى بهجتى . وشفيت بعد زمن قصير ولكنه المحنة أنهكت قدرتى على
الوفاء واستنفذت ذخيرتى من العطف وعلمتني أن أكون بخيلة بقلبي لا أعطى
منه إلا قليلا . ولا اتطلب من الناس كثيرا .

وهى تعزى بجرأتها مهما رأى الناس فيها . من طبائعى التى كنت أعتز بها
كل الاعتزاز : تلك الجرأة الشديدة التى لازمتني منذ صغرى . ونمت مع
الأيام ونضجت . حتى أصبحت صفة متصلة فى أخلاقى . فكنت أفعل ما
أشاء وأقول ما أريد . وألبس ما يحلو لى ولا يهمنى أن رضى الناس أم كرهوا
ما دمت مطمئنة الضمير إلى عفة مقصدى . نقية القلب أمام الله الذى هو
الحكم الأول والآخر فى نفوس عباده وأعمالهم وكثيراً ما كانت هذه الجرأة
تثير العواصف فى وجهى فازداد تشبهاً بأساليبى حتى نزول النعمة وينتصر الحق
فقتنع الناقدون من تلقاء أنفسهم بخير ما فعلت .

ولكنها ترى أنها عفيفة الطبع أكثر مما يجب . إلى ذات طبع عفيف
أثور لاتفه الأسباب . وأقول الحق أننى كنت أخرج فى غضبى عن حدود
الاعتدال والوقار فاخطئ . فى حق وفى حق الناس ثم لا ألبث أن أهدأ وآسف
على ما بدر منى ولكن بعد فوات الأوان .

وقد صورت أمينة السعيد بيئتها الأولى فقالت أنها نشأت صريحة فى
القول تبدي رأى فى أمانة إذا ما طلب منها ولا تتطفل به على أحدا ولا
تعرف الجاملة فى الحق . وكنت أمينة بضميرى . إذا أحبيت أقبلت وإذا
كرهت اعرضت . ابتسم لما يسرنى . وأقطب لما يفضينى . امتدح الخير جهاراً
وأذم الشر علانية .

وقالت أن هذا السلوك قد أدى بها إلى أن غضب الناس عليها . وتحاشاها
الأصدقاء . وتفرق جمعهم من حولها . ثم وجدتني أقف وحيدة في طريق
مليء بالعقبات وتحت سيل منهر من اللوم والنقد والشك .

وقد أحبت الكتابة الأدب منذ شبابه وكرهت وظائف الحكومة .
واشتغلت بالصحافة . وترى أنها أدبية أكثر منها صحفية وقد قرأت كثيراً
ولكنها لا ترى أن شخصيتها تتأثر بالقراءة في كثير ولا قليل أو تخرج عن
طريقها المرسوم . ذلك لأنني لست بمن يتغيرون بما يقرأون . وأعتقد أن
التغير دليل الضعف . وعنوان الحرمان من الصفات الرئيسية التي تجعل من
كل انسان شخصا قائماً بذاته له شخصيته المميزة واتجاهاته الفكرية الخاصة .

ونحن لا نوافق الكتابة على هذا الرأي . وإن كنا نراه يستطرد مع
طبيعتها الحادة التي تبدو من خلال هذه الملامح التي جمعناها عنها من كتاباتها ..
وإن كانت هي تسجل على نفسها أنها اضطرت أخيراً إلى أن تتخلى عن
جرأتها المعبودة وتنحو نحو التحفظ في كل نواحي حياتها . ثم تزن الأمور
بألف ميزان قبل أن تقدم خطوة إلى الامام .

كانت أمينة السعيد أول فتاة لعبت « التنس » في ساحة الجامعة وناقشت
رواية مجنون ليلى في قاعات الجامعة . وأول من خلعت غطاء الرأس في كلية
الآداب .

واعلمها أول سيدة تكتب كتاباً جريئاً عن « ييرون » .. وتختار
شخصية ييرون بالذات . وهي تحب شخصية « رابعة العدوية » حبا روحيا .
لم أر صاحبته إذ سبقتني حياتها بمئات السنين ولكني عرفت سيرتها من التاريخ
فقرتها الكتاب إلى نفسي . وأودعها الاطلاع بين طيات قلبي حتى لأحس
بوجودها أحيانا أكثر من الأحياء ..

فاذا أردنا أن نعرف أثر الزواج في اتجاهها الصحفي والادبي . وفي اتجاهها في الحياة عامة نقول . . . لو لم تزوج جامعيا يقدر العلم والثقافة . ويحمل الجهاد في سبيل المثل والمبادئ . ما استطعت أن أشق طريق في عالم الكتابة . ولا أمكنني أن أخدم بلادي في أكثر من ناحية . فالرجل يكره بطبعه أن يوسع ميدان العمل أمام زوجته . ويغض أن توزع حياتها بين البيت والمكتب . ولكن العقلية الجامعية السامية ارتفعت بزوجي فوق هذه السقطات الفكرية . فاخذ بيدي غوراً نحو تنمية مواهبى .

وبذلك امكنني أن أجوب وحدى انحاء الشرق وأزور أقطاره البعيدة ولا رفيق لى في سفرائى الكثيرة غير ضير في خفرته الثقة به إلى المبالغه في تلافى الاخطاء والتمسك بدواعى الكمال

وإننى اعترف في صراحة اننى مدينة لزوجى بكل ما وصلت اليه من قدرة كتابية ومكانة اجتماعية ،

وتقول أمينه عن نفسها انها ليست ربة بيت ناجحة فحسب . بل أنها ممتازة في هذه الناحية . وانها تجمع النواحي الثلاث فزوجها سعيد كل السعادة وأولادها مثال التفوق والاجتهاد والادب . وبيتها جميل نظيف انيق .

ولكن أمينه السعيد تغلب العمل الصحفي على التأليف ولذلك فليس لها في أيدي المثقفين إلا كتابين أو ثلاثة لا تعطى في مجموعها صورتها الادبية الكاملة

وداد سكاكيني



كاتبه من دمشق تعيش في القاهرة . وتغمر الصحف في القاهرة ودمشق
ولبنان بانتاجها الدائر أحببت القاهرة قبل أن تراها . فلما عاشت فيها ازدادت
بها إعجابا . وهي تعاطيك منذ أن تراها طابع الجرأة والاقتحام . فهي من
ذلك النوع الذي يجب أن يجوم . وهي تبدو لك عندما تقلب صفحات المجلات
والكتب لتحاول أن ترسم لها صورة نفسه تبدو في ملامح الكتابة الناقدة الجريئة
التي لا تني تهاجم ولا تدع فرصة دون أن ترد الصاع صاعين . فهي تهاجم
الادباء الذين يدافعون عن العامية وتهاجم الذين يقولون قتش عن المرأة
وتقول لهم . بل قتشوا عن الرجل وهي تصف المرأة في هذه الصورة الشعرية الرائعة
(١) هي نبغ فاشربوا منه سائغا طمورا . ولا تعكروه بالقذى أو ترموه بالحجارة
وهي فيشاره فوقعوا على أوتارها الانغام العذاب التي تهدد الآلام وتشر
الوئام والسلام .

• قتشوا عن المرأة في تضديد الجروح . ومواساة المرضى واسعاف المساكين
 • قتشوا عنها في أطوار الأمومة الرحيمة . فهناك اقصى غاية الجود والتفدية
 • تسهر لينام أولادكم وتجدد ليستريحوا وتغديهم بالروح مهما اساءوا
 • قتشوا عنها وهي منجبة العظماء الذين كتبوا لامتهم سجل الخلود والابجاد
 مدى الابد .

وهي تضم قصصها بمجموعة من الرؤى والذكريات فيها اشواقها إلى دمشق
 وحنانها إلى أشجار الحريف في بيروت . والنيل والمساجد في القاهرة .

ووداد عربية أصيله فهي تعالج الامور وتنظر اليها من هذه النافذة .
 وهي بذلك تختلف كثيراً عن أدبائنا . وهي بليغة اللغة لا ترضى أن تدعى
 للبساطة والبسر الذي درجت عليه كاتبائنا اللواتي انصلن بالصحافة . وهي
 لا تنسى طابعها العربي الاصيل عندما تصف القاهرة في هذه اللوحة الرائعة :
 كنت في دمشق أتوق إلى القاهرة لارى في مجالها طوابع الشرق والاسلام
 فاتم طواف النظر وحج النفس إلى شرفتنا العريقة وقد سحرتني القاهرة على
 نحو ما سحرتني دمشق .

فعلى ضفاف النيل . وفي ظلال النخيل . حططت رحلى واستروحت
 بأرض مصر ، وطافت في الخواطر مطاف المجد . فرأيت النيل وكأنه نهر
 من ذهب . عاشت لي جانبيه أمم لم تمت ظمأى . وكرت في الذكرى
 أيامه الغر الحجة .

ووداد ، فيها طابع الانثى الواضح الذي لا يفتقده طويلا . وتلقاه
 دائما . تلقاه في هذه النصول التي كتبها عن المرأة تصور فيها ملامح روحها
 • أما دموع امرأة إذا صدمت كالزهرات العاطرات أو كقنارات الندى في
 البكور على اردد والريحان . . على أن دموع المرأة فرجة من همها وألمها .

وراحة لروحها المرهقة . إلا أن البكاء والنساء ضوان . ولقد بكين من يوم
حواء . وما أقرب بكاء المرأة اليها وما أحناء عليها . فليس بينها وبينه حجاب
ولا حساب . إنها تبكى طفله وعجوزا . وتبكى غنيه وفقيره . تبكى إذا تألمت
أو ائتمت . وتبكى إذا زلت ثم ندمت . وتدمع من فرط السرور واهتياج
الشعور . وتستجيب لها المدامع . إذا دم عنداها فراق أو غاب لها رجاء .
وتجد في نفسها من سرعة البكاء وسهولته ما تجده من اقرار البسات على شفيتها
وتسلل الضحكات إلى فيها . وذلك لركة قلبها . ورفاهة حسها ومزاجها ،

هذه لوحة أنثوية خالصة تدل على عمق في تصور حياة المرأة . ولعل
لا أجد مثل هذه الصور إلا عند أمثال «وداد سكا كيني» من كاتباتنا اللواتي
تفرغن للحياة الزوجية وبعدن عن مجال العمل والاتصال بالمحيط العام
اتصالا مباشراً . فإن الحياة في المحيط الزوجي تعطي هذا الطابع الانثوي
الخالص ...

ولعل هذه الصورة أيضا التي نأخذها من كتبها «سحر المرأة» تعطي تأكيداً
لهذا المعنى الذي ذهبنا إليه .

«رب راء لامرأة يعرفها أو يصادفها . وكأنها قد صبت في القالب أو
فحنت مثل دمية أو تمثال . لكن تنقصها الروح والحياة . ولو جالت من
عروقها الدماء لما سكبت عليها من السحر قطره . ولقد يكون السحر ساكناً
كما نراه في الصورة الفاتنة . وكأى من صورة يخيل اليك أن السحر يترقق
في خطوطها وملاعها . فلما نطق وتحركت . عريت من الصناعة ، فإذا هي
عموهة مزوره كالدينار الزائف . ولقد يكن هذا السحر في المرأة كموتة بين
الزنه والحجر ، فلا يترامى حتى يقدحه قاذح ...»

ولست أدري هل تكون المرأة حين تتكلم عن سحر المرأة أكثر

صدقا من الرجل . أم أن الرجل هو وحده الذى يستطيع أن يتحدث فى هذا الموضوع الخطير .

الحق أن وداد سكا كينى : كاتبة انثى . وهى بالرغم من أنها تعيش فى محيط البيت إلا أنها من ذلك النوع المقتحم الذى ينزل إلى المعارك بقوة ويحرص على لغة الضاد وإيجاد العرب ويعطى صورة عاطفته فى آثاره بوضوح

الحب والمجد

في حياة الشمر المعاصر

ص	ص	
٦٧	٥	أقبال
٧٢	١٦	شوقي
٧٥	٢٧	حافظ
٨٣	٣٥	الزهاوي
٨٨	٤٤	علي أدهم
٩٣	٤٨	سعيد العريان
٩٦	٥٤	هلي المنعاري
١٠٠	٦٠	أبراهيم ناجي
١٠٤	٦٤	زكي أبو شادي
	١٠٨	وداد سكاكيني

نوافذ على حياة الألباء

الكتاب الرابع في هذه المجموعة ويشمل حياة خليل شيبوب ومختار الوكيل وفتحى رضوان وأمين الريمانى وبنت الشاطئ وجميلة رضا وفدوى طوقان ونازك الملائكة

— يصدر قريباً —



893.79

J95

BOUND

JUL 18 1961

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58870547

893.79 J95

Adwa ala hayat al-ud